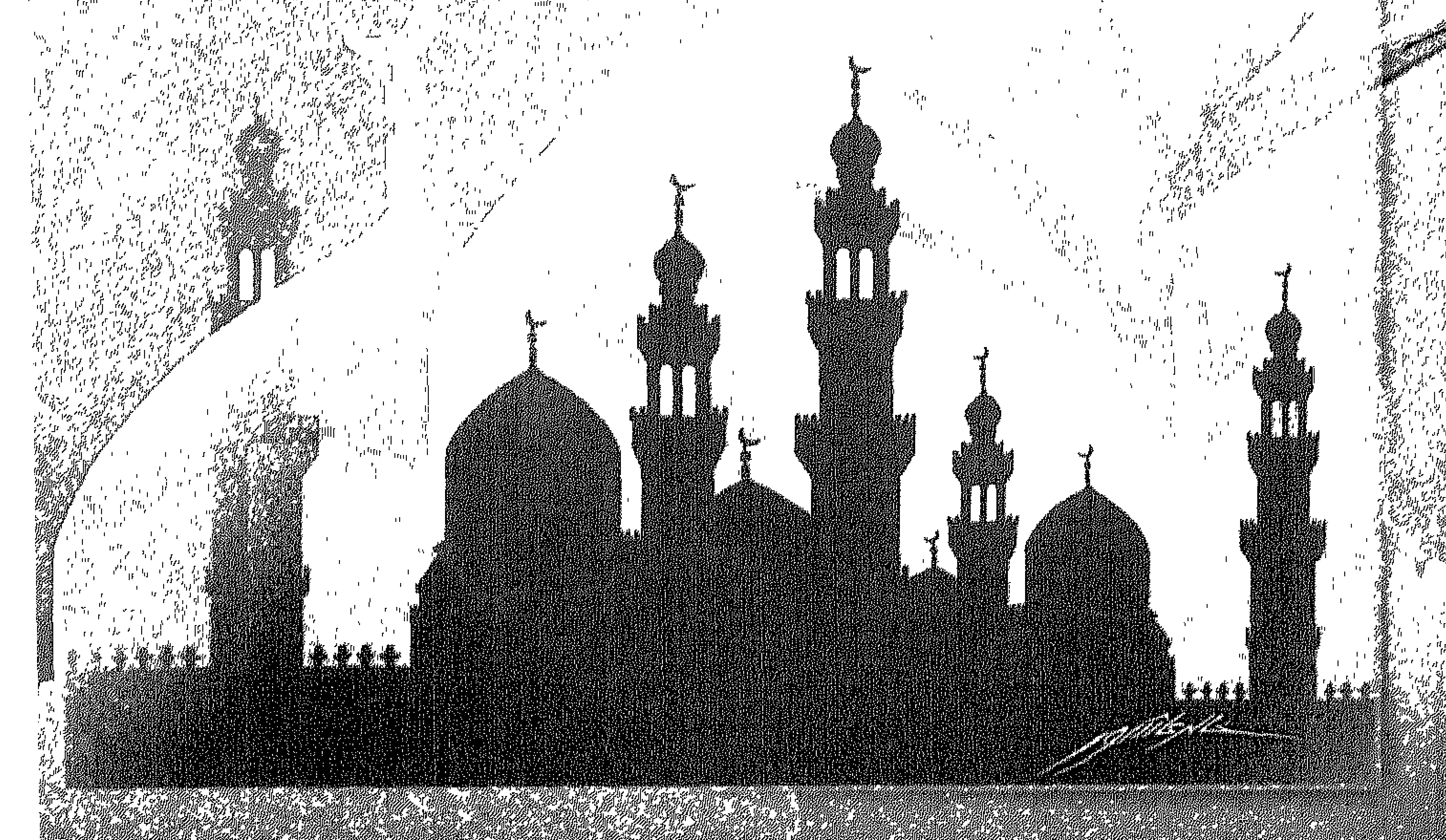
تأملات فى الدين والحياة

محمد فريد عبدالخالق



إهـــــــداء ٢٠٠٦

المرحوم / يوسف درويش

القاهرة

إهـــــــداء ٢٠٠٦

المرحوم / يوسف درويش

القاهرة



تأملات في الدين والحياة

تأليف

محمد فريد عبدالخالق

المفكر الإسلامي

مراجعة وتقديم

الأستاذ الدكتور/ عبدالستار فتح الله سعيد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

جميع الحقوق محفوظة

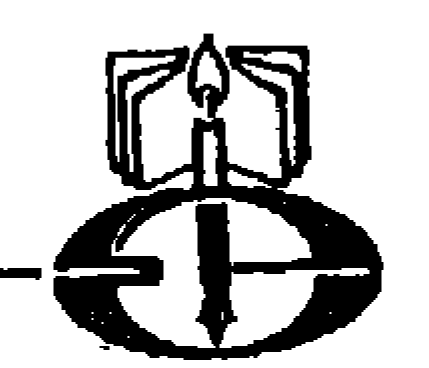
الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

رقم الإيداع: ٣٦٨١ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولى: I.S.B.N.

977 - 265 - 427 - X



دار التـوزيع والنشـر الإسـلاميـة

مصـر - القاهـرة - السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦

٢٥١ ش بورسعيد ت: ٢٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٢٩٣١٤٧٥

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٢٩١١٩٦١

www.eldaawa.com

email:info@eldaawa.com

هذا الكتاب إهداء من
مكتبة يوسف درويش

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد..

فقد أسعدنى الأخ الكريم، والأستاذ الفاضل: (محمد فريد عبدالخالق) حين أطلعنى على هذا السِّفر البديع من المواعظ الحكيمة قبل طباعته، إذ وجدته صورة من صاحبه، الذى عهدناه رائدا أمينا من أمناء الدعوة الإسلامية المعاصرة، وناصحا حكيما غيورا على دين الله الإسلام، وعلى أمته الصابرة فى مشارق الأرض ومغاربها، نحسبه كذلك ولا نزكى على الله أحداً.

إن الكلمة أمانة عظيمة تنوء الجبال بحملها، وتتقاصر الهمم دون ذراها العالية، وأرجو أن يكون المؤلف الفاضل - جزاه الله خيرا - قد قام بحقها، على حين خانها كثير من الزعماء والرؤساء، والكاتبون والعلماء، فضلاً عن العامة والدهماء!!

وسيجد القارئ الكريم أن كلمات هذا الكتاب تحمل للناس زفرات صدر قضى فى الدعوة إلى الله تعالى أكثر من ستين عاما، عاصر فيها أحداثا جساما، ومضى فيها مرابطا على طريق الله المستقيم، حاملاً مع إخوانه لواء الدعوة إلى الإسلام الشامل، فى معركة المصحف المشبوبة على

امتداد الرقعة الإسلامية، والتى لن يهدأ أوارها حتى تعود البشرية الغانية إلى طريق الرحمن الرحيم.

إن الإسلام العظيم قد عاد غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء الذين يحيون ما أُميت من شعائره، ويرفعون غطاء الجهل عن علومه ومعالمه، ويجعلون ذلك قضية وجودهم، وخير ما يورّثونه للأجيال من بعدهم، ولهم فى رسل الله تعالى أسوة حسنة، فإنهم لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورّثوا علماً نافعًا، ودينا قيمًا، وهداية ورحمة للناس.

جزى الله خير الجزاء صاحب هذا الأثر الجليل بما خطب ونصح، وعلّم وأرشد، ودعا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وأودع خلاصة هذا الجهد المبارك – بإذن الله – على صفحات كتاب كريم يتمم الدعوة وييسير بين الناس بهدى الله تعالى، وهو سبحانه المأمول أن يبارك هذا العمل المبرور، وينفع به العباد والبلاد، وأن يجعله فى ميزان حسنات صاحبه، وفى ميزان دعوته التى عاش بها ولها، وأن يجعل عملنا وعمله كله خالصا لوجهه الكريم غير منقوص ولا مدخول.

وهو سبحانه من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أ.د. عبدالستار فتح الله سعيد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

القاهرة فى: غرة رمضان المبارك ١٤٢٢ هـ

١٦/ ١١/ ٢٠٠١م

مقدمة

يضم هذا الكتاب مجموعة من خطب الجُمع التى دُعيت إلى أدائها فى مسجد محمود فى أواخر التسعينيات من القرن الميلادى الماضى، رغب إلىّ بعض الأخوة الذين صلوها معى، أن تجمع وأن يصدر بها كتاب لخير رجوه من ذلك وانتفاع بها، وقد شكرت لهم حسن التقدير لها وعملت بنصيحتهم، وعهدت بإعدادها لباحثين كريمين رغبا فى ذلك، هما الأستاذان رضا عبدالودود، ونبيل فولى، ورجوت الأخ الأستاذ الدكتور عبدالستار فتح الله سعيد، وهو داعية إسلامى من أصحاب السبق فى الدعوة الإسلامية، وعالم أزهرى ثبت، أن يتفحص هذه الخطب التى أعدت للنشر، مراجعة وتقديما، فإن صادفت عنده قبولا واستحسن نشرها، أقدمت على تلبية الرغبة التى أبديت لى فى إصدارها، وقد طمأننى أن فى نشرها نفعا يرجى، فاستخرت الله فى ذلك، سائلا الله فيه التوفيق والقبول بإذنه تعالى.

وغير خاف أن اللسان وما ينطق به ترجمان لما يجيش فى صدر صاحبه، وما يعتمل فى رأسه وقلبه، وما يصدر عنه من رأى، أو اجتهاد فيما هو محل اجتهاد من أمور الدين والدنيا، وأن خطبة الجمعة لأحد أهم صور الخطاب الدينى والدعوة إلى الإسلام، والتصدى لمشكلات الأمة الإسلامية، وأزماتها المختلفة، بيانا لأسبابها وحلولها، وهذا ما أجمله فيما يلى:

(١)
التأصيل القرآنى للخطاب الدينى

الخطاب الدينى عامة وخطبة الجمعة خاصة، أساسه ان أمة الإسلام أمة دعوة ورسالة، وأنها مكلفة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبالإيمان بالله، أى الإيمان بكل ما يجب الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك، فمن آمن ببعض ما يجب الإيمان به دون البعض الآخر لم يعتد بإيمانه، وكأنه غير مؤمن بالله، وقد ناط الله خيرية الأمة الإسلامية لكونها آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر وتؤمن بالله، وذلك قوله تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ..** ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقد بيّن الله تعالى مهمة الداعين إلى الخير ووجوب انتصابهم لهذه المهمة، وأن أولئك هم الأخصاء بالفلاح دون غيرهم، فى قوله تعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وتدخل كل المؤسسات، والمنظمات المدنية، والمجالس التشريعية، فى عموم المأمورين بالدعوة إلى الخير، عليهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وذلك بالمفهوم الواسع لمعنى الخير، سياسيا كان، أو اجتماعيا، أو ثقافيا، أو إعلاميا، درءا للمفاسد وجلبا للمنافع، وقوله: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ** ﴾ من للتبعيض، لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات، ولأنه لا يصلح لها

إلا من أهل لهـا من علم بالمعـروف والمنكر، وكـيف يؤدّى، وهم كـمـا وصفتهـم الآية الأخصاء بالفلاح دون غيرهم.

(٢)

الدعوة على بصيرة

أوجب الله سبحانه على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام وعلى امته أن تكون الدعوة إلى الله على بصيرة، أى مع حجة واضحة ودليل قاطع وبرهان ساطع، هو وأمته فى ذلك سواء، ومن ثم كان وجوب الاشتراك فى البصيرة فى العمل الإسلامى، لا ينفرد بها القائم على أمر الجماعة دون سائر أعضاء الجماعة العاملين معه، فلا يرضى الإسلام من أحد أن يكون إمّعة، ولا يرضى للقائم على أمر الجماعة ان يكون مسيطراً متسلطا، فإن لله الولاية والقهر، إنما هو مرشد ومذكر كما فى خطاب الله تعالى لرسوله الكريم: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢] لأن تحكم الفرد فى المجتمع ممنوع، فالشورى هى أساس ما يكون عليه أمر المؤمنين، ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقد رفع القرآن مكانة العقل والعلم والعلماء وخاطب أولى الألباب والأبصار، وأعلى منزلة الحجة والبرهان، فى آيات كثيرة، كما فى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]، وقوله فى سننه فى الكون والعمران: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

[الحج: ٤٦]، ﴿ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وتجده في حكاية ما كان عليه أهل السعير من ضلالتهم في الدنيا ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠] أي لم نكن نعقل الذكر عقل متدبرين، ولم نسمعه سماع طالبين للحق، جمع بين السمع والعقل لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل، وفيه هدم لمذهب المقلدين، وأن كل قول لا دليل عليه فهو باطل غير ثابت، فليس في شرع الله ما تنكره العقول السليمة ولا الفطر القويمة، بل إن الله سبحانه ربط بين استحقاق العصاة للنار وبين عدم إعمالهم للعقل والبرهان، فقال عز من قائل: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

(٣)

الإسلام دين إحياء و بعث حضارى

يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ويعلمنا الله أن ثمرة كل ما تعبدنا الله به من عبادات مكتوبة وآداب عالية هو تحصيل التقوى وتزكية الأنفس، اللذان بهما نكون أقدر على تحقيق ما عهد به إلينا من تحقيق مهمة الإحياء والترقى، إلى درجة أنه سبحانه صدّر أمره للمؤمنين وذلك بالاستجابة - لا مجرد الإجابة - فهى الإجابة بعناية واستعداد، فتكون زيادة السين والتاء للمبالغة، وإذ قالوا إن ذروة الإيمان الجهاد فى سبيل الله ولأنه سبب القوة والعزة والسلطان وأنه وسيلة كسائر الفرائض لتحقق الأحياء وهو قمة الحياة المطلوبة وسياج لها بعد حصولها. ومع أن الخطاب فى الآية للمؤمنين إلا أن فى الاستجابة للدعوة إليه، هو ثمرة كل الفرائض والطاعات، وهو تحصيل الحياة فى أكمل مراتبها، ومفرداتها الإيمان، وأساسها القرآن، ودعامتها العلم بمفهومه الواسع، الذى يشمل علوم الدين والشرائع، وعلوم الدنيا، لأن العلم حياة كما أن الجهل موت، وكل ما يحقق التمكن والسلطان للأمة ويدفع عنها العجز وذهاب السلطان حياة وإحياء، وحتى لا تفوت المؤمنين الفرصة التى هم واجدوها، نبه سبحانه فى الآية إلى أمرين جليلين وأوجب العلم بهما:

أولهما: ضرورة اغتنام فرصة الحياة فى تحصيل الإحياء، وتحصيل المثوبة عليه يوم الحساب، لقوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩ - ٤١].

ثانيهما: أن إلى الله الرجعى، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وفى الأمرين إشارة إلى

وجوب التمكن من إخلاص القلب ومعالجة علله ورده سليمًا كما يريده الله، وإلى أن العمل نوط سلامة القلوب وإخلاص الطاعة، والحساب تبعاً لذلك، وأن الله يملك على العبد قلبه فيفسخ عزائمه إن فسد، ويبدله بالخوف أمنا إن صلح، كما يغيّر نياته ومقاصده، ويبدله بالأمن خوفًا، وبالذكر نسيانًا، وبالنسيان ذكرًا، إنه تعالى يطلع على كل ما يخطره المرء بباله لا يخفى عليه شيء من ضمائره وكأنه بينه وبين قلبه، ومما أوجب علينا علمه مما ذكرنا ، تجعل لسلامة القلوب من العلل، وما يترتب عليه من استجابة لدعوة الحياة والإحياء التى هى لبّ الشريعة ومقصود الإسلام.

وأعقب الله سبحانه أمر المؤمنين بالاستجابة لدعوة الإحياء بإنذار منه شديد عرفناه فى زماننا هذا الذى شهد تنكبنا لدعوة الإحياء وعدم إحاطتنا علما بالأمرين المذكورين بما يقتضى عملنا بموجبهما، وقد جعلهما الله سبحانه سبيلا إلى استجابة دعوته لما يحيينا من كل وجوه الحياة، فكان عاقبة المخالفة عن أمره ما شهدته الأمة من فتن من داخلها ومن خارجها، ولم نتقها باتقاء أسبابها التى دلنا عليها القرآن فى آيات مبينة كما دلتنا عليها آياته فى الآفاق والأنفس، التى هى سننه الثابتة فى العمران البشرى، وفى إيتاء الملك ونزعه، وفى تاريخ أمتنا على ذلك شواهد كثيرة فى القديم والحديث، يتعين اتخاذ الدروس والعبر منها والتوبة من ذنوبنا، فإن البلاء لا يرفع إلا بتوبة.

وتكفى الإشارة هنا إلى مسلسل الفتن التى تعرضت أمتنا لها، بداية من ضياع الأندلس، ومروراً بمحنة المسلمين فى البؤر الساخنة فى عالمنا المعاصر كالتى تعرض لها شعب البوسنة وكوسوفا وكشمير والشيشان، ثم

ما يقع من نكبة الشعب الفلسطيني ومعاناته لعدوان جيش الاحتلال الصهيوني المدعوم في جرائم الحرب التي يرتكبها بأمريكا وكثير غيرها من دول أوروبا، بالإمداد بالسلاح، وبالتأييد السياسي بغير حق، إضافة الى تعرض غيره من الدول الإسلامية الى خطر التهديد بصوره المختلفة.كالذي تجده إيران والسودان والعراق واليمن وغيرها بدعوى محاربة الإرهاب الدولي التي اتخذوها ذريعة لتشوية صورة الاسلام وتزييف حقائقه، ولإبادة المسلمين وإضعافهم، وذلك قوله تعالى في إثر ما أسلفنا منه ﴿ **واتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وأعود فأؤكد أن اتقاء الفتن إنما يكون باتقاء أسبابها التي هي من كسبنا، وعلينا وزرها، ونملك تغييرها إلى ضدها، إذا تمسكنا بتعاليم ديننا، وعدم اتباع أهوائنا التي فرقت كلمتنا وأذهبت سلطاننا وأطمعت فينا أعداءنا، كما في قوله تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وهذا أمره سبحانه للمؤمنين باتقاء الفتن بكل صورها، اجتماعية أو سياسية أو دينية، أو عسكرية، فإن العقاب على ذنوب الأمم أثر لازم لها في الدنيا قبل الآخرة، والفتنة والبلاء والاختبار. وفي الآية تخويف شديد للأمة منها، وعن النبي ﷺ : «**إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه. فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة**» [١]، وهو عند أبي داود من حديث القرشي بن عميرة، وله شواهد من حديث

---

(١) أخرجه أحمد بسند حسن.

حذيفة وجرير وغيرهما عند أحمد وغيره. والآية عامة إلى يوم القيامة لأنها بيـان لسنة من سنن الله تعـالى فى الأمم والملل، ومـبـالغـة فى التـشـديد والتحذير والإنذار قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥] لمن خالف سننه من الأمم والأفراد التى لا تبديل لها ولا تحويل.

(٤)
الإسلام دعوة "للإصلاح"

والربط بين "إحياء الأمة" و"إصلاحها" حقيقة واضحة، فإحياء الأمة لا يكون إلا بصـلاحـهـا، وفى صـلاح الأمـة إحـيـاؤها، ولكنى مع ذلك اختصصت «الإصلاح» بكلمات منفردة وإن لم يستقل فى مضمونه وهدفه عن «الإحياء»، لما وجدت فى كتاب الله من ذكر له فى آية، ومن ذكر "لمنهاجه" فى آية أخرى، ولشرع الدعوة إلى الإصلاح فى الخطاب السياسى والاجتماعى فى الدول المعاصرة، بغية علاج ما ظهر فيها من فساد متعدد الوجوه، انتظم الحكم وأنظمته، وعلاقات الدول بعضها ببعض من خلال هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن. الأمر الذى عرض النظام العالمى لمفاسد عطلت مهمته الأساسية فى فض النزاعات، وتعزيز السلام العالمى، وتحقيق التنمية البشرية والإنسانية، وحماية حقوق الإنسان الأساسية وحرياته العامة من الانتهاك، كما انقطعت ما يتعلق بالفساد الاجتماعى الذى تمثل فى ثقافة العنف التى سادت دولا كبرى متقدمة كأمريكا، فأغرقت أعداداً غير قليلة من الشباب، ذكوراً وإناثاً، فى تعاطى المخدرات والخمور واستخدام العنف فى التعامل مع الأمر بدلاً من الحوار ومرجعية المبادئ الإنسانية العليا، وما تعلق فيه بالمال العام فى مثل خطورة

ما تعلق بالحكم والاجتماع، وتمثل ذلك فيما عرف بغسيل الأموال القذرة، وتغليب نفوذ المال على مجريات الحياة المختلفة حتى تسيّدها وتحكم فى مساراتها؛ فى السياسات ، والحروب والنزاعات، والتوجهات الفكرية والاجتماعية. وهل هناك فساد يخشى ضرره وخطره من أن تصبح الحياة مادية المنطلق والغاية، وأن يخضع الحق لسلطان القوة المادية، وأن يتخذ المال إلها.

وأهل العقول السليمة والفطر القويمة فى أكثر أقطار عالمنا المعاصر، يتنادون بضرورة إصلاح هذا الفساد العام فى كل مجالاته، وعلاج أسبابه، بدءاً بالتعليم فى كل مراحله، وبالأخلاق الإنسانية يربى عليها الناشئة وتراعيها الشعوب والحكام، وانتهاء باحترام قيم الحق والعدل فى الناس ونبذ الظلم والباطل، وبالتدين الصحيح واحترام الشرائع والأديان. أولئك هم أولو بقية فى زمان السوء والفساد، والظلم، وإبادة المدنيين الأبرياء، وطرد الشعوب من أوطانها واحتلال الغزاة المعتدين أرضهم بغير حق، الذين قال الله فيهم: ﴿ **فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾ [هود: ١١٦]، والقليل ممن أنجاهم الله نهوا عن الفساد، وسائرهم تاركون للنهى وهم الذين ظلموا وكانوا مجرمين، وأصبح باديا لكل ذى لب أن انفصال الأخلاق عن السياسة وعن الحياة الاجتماعية والاقتصادية هو أهم علل فسادها، وأن الإصلاح لها بالتمسك بالأخلاق والقيم الإنسانية العليا التى أمرت بها شرائع السماء وشرائع الأرض الصالحة، وذلك قوله تعالى فى الإصلاح والمصلحين: ﴿ **وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ**

بالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، فجعلت الآية المصلحين في معنى الذين يمسكون بالكتاب، ومع أن التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة ومنها الصلاة، إلا أنها أفردت الصلاة بالذكر لكونها عماد الدين وفارقة بين الكفر والإيمان، إظهاراً لمزيتها التي منها جاء في قوله تعالى: ﴿ .. **وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وفي هذا المعنى قول النبي ﷺ في خطبة الوداع في معنى (**تركت فيكم ما إن استمسكتم به لن تضلوا بعدها، كتاب الله وسنتي**)، وهو من جنس قوله تعالى: ﴿ **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ** ﴾ [مريم: ١٢]، والتصلب في الحق لا يعني غلظة الداعية إليه كما في قوله تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ولا يعني التشدد أو الغلو في الدين فقد جاء في ذلك النهي في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ** .. ﴾ [النساء: ١٧١]، غلت اليهود في حط المسيح عن منزلته، حيث جعلته مولودا لغير رشدة – أي لزنية –، وغلت النصارى في رفعه عن مقداره حيث جعلوه إلها، والواجب الوقوف عند الحق دون إفراط ولا تفريط، والآية عامة في النهي عن الغلو في الدين.

وفي قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ**

عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[المائدة: ٧٢] وفيه نهى عن الغلو الباطل، وهو أن يتجاوز الحق وتتخطاه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه، كما يفعل أهل الأهواء والبدع، بخلاف غلو الحق، وهو أن يفحص عن حقائقه، ويفتش عن أباعد معانيه، ويجتهد في تحصيل حججه، كما في الكشاف للزمخشرى. وبذلك يكون التصلب في ذات الدين في عدم قبول الدنية فيه، وعدم الادهان لقوله تعالى: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٩]، والمداهنة هى اللين والمصانعة بغير حق، وعدم الركون إلى الذين ظلموا، لقوله تعالى: ﴿ ولا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وما لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣]، نهى عن موالاة الأعداء المعتدين فإن من والاهم فهو منهم لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣].

وعلى دعاة الإصلاح فى أمتنا، ودعاة الحداثة والتطوير، أن يلتزموا بهداية الله رب العالمين فى تحقيق الإصلاح بالتمسك بتعاليم الإسلام، وشريعته، ومقاصده، وأتباع أوامره تعالى فى كتابه واجتناب نواهيه، وليؤمنوا بأن القرآن هو حبل اللهِ المتين، يهتدون بهديه فلا يضلون، ويجتمعون عليه فلا يتفرقون، ويطبقون شرعه، ويتبعون نهجه، فيتحقق الإصلاح المرجو، وفى صحيح الحديث عن النبى: « ذكر رسول الله ﷺ

الفتن، فشددها. قال على بن أبى طالب ﷺ: ما المخرج منها ؟ قال: **كتاب الله: القرآن حبل الله المتين لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، من قال به صدق، ومن عمل به رشد، ومن حكم به عدل، ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم**» أخرجه الترمذى فى فضائل القرآن عن على رضى الله عنه مطولا، وله شاهد عن معاذ بن جبل أخرجه الطبرانى، وذلك قوله تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾[آل عمران: ١٠٣]، فذلك أمر باتباع الحق والتمسك بالإسلام، والتناصح والاجتماع على أمر واحد، نظم بينهم وأزال الاختلاف وهو الأخوة فى الله، ومن التمسك بالكتاب موالاة المؤمنين بعضهم بعضا، وهو فى مقابلة موالاة الظالمين بعضهم بعضا: ﴿ **إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [الجاثية: ١٩]، ومن التمسك بالكتاب إمضاء علاقة الأمة الإسلامية بغيرها من مختلف الملل والمذاهب على أساس قاعدة إلهية فيها تعاون الجميع على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، وفى ذلك خير البشرية جمعاء أسماها فى كتابه العزيز "استباق الخيرات" كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم**

بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨] فاختلاف الشرائع أمر مقرر واقع، وإن الله لم يقصد من اختلافها إلا ما اقتضته الحكمة وليس التناحر والعداوات، فأمر الكل بالتسابق نحو ما فيه خير الجميع من عمارة الأرض، وإحقاق الحق والعدل ومقاومة الباطل والظلم، وأما ما يختلف الناس فيه من عقائد فمرده إلى يوم الحساب ففيه الجزاء الفاصل بين المحق والمبطل، والعامل والمفرط فى العمل، فلا يقحم فيما عهد الله الى الناس كافة من عمارة الأرض لقوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. ﴾ [هود: ٦١]، وفى كتاب الله عز وجل بيان ما نصح به أمور التيسير على اختلاف وجوهها إن هم تدبروا الآيات وتذكروها وعملوا بمقتضاها فى المواجب والمناهى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

وإذا كانت قاعدة "استباق الخيرات" بين الأمم فيها صلاح العلاقات الدولية، فإن قاعدة أو منهج " التغيير" مبينة لمنهج الإصلاح فى داخل الأمة، وهو عام لكل قوم وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٣] وهذا قانون إلهى عظيم الشان فى تفعيل قضية الإصلاح

وتحقيق أهدافه. وهو قائم على أساس الربط بين الحال الذى يكون عليها قوم من فساد أو سوء حال مرتبط بها، ما يحل من نقم وابتلاءات. وكأنها عقاب على فساد ما بأنفسهم من عدم اتباع لأوامر الله وسننه فى الناس والعمران، وإن العلاقة العكسية مطردة بين ما يكونون على حالهم من صلاح واستقامة على أمر الله وبين ما يجدون من نعم الله عليهم من إطعامهم من جوع وتأمينهم من خوف، وذلك قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٦]، ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠]، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ونبه أن الله لم ينبغ له ولم يصح فى حكمته أن يغير نعمة عند قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الحال، فإنهم غيروا نعمة الطاعة وأبدلوا بها معصية، ونعمة القوة وأبدلوا بها استضعافا، ذلوا لعدوهم ومكنوا له من أنفسهم بضعفهم وترك الجهاد فى سبيل الله.

وخلاصة القول أن القانون يوجب على طلاب الإصلاح أن يغيروا ما بأنفسهم من وهن طرأ عليها إلى قوة بإعداد القوة العسكرية التى ترهب عدوهم، ومقاومة العدوان، وتوطين النفس على الصبر ومجاهدة العدو،

وعدم الركون الى الظالمين الذين يوالى بعضهم بعضا، وإنما الركون الى الله وحده واتباع صراطه المستقيم، ولا يخشى فى الحق سواه وإن جمع له الأعداء وتجاوزوا الحدّ فى عداوتهم وعدوانهم لم يزد ذلك إلا إيماناً وثباتاً على الحق، ومن جعل الله وليه كان معه وأمده بنصره وهو الغالب على أمره. فالواجب على الأمة حكاماً ومحكومين وعلماء ومصلحين أن يعالجوا علل النفوس وأسباب ما طرأ عليهم من تمكن الأعداء منهم وذهاب هيبتهم عندهم، ومن أحسن تشخيص العلل ، والتمس لها العلاج الناجع، وصبر على تكاليف العلاج واستعان بربه فإن الله ممدّه بروح منه ومحقق له وعده، وخاذل لعدوه، وإن آسف الله بفظائع حرمه وغروره تقويه وجاوز من ذلك حداً عاجله الله بانتقامه منه كما فى قول عز من قائل: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وتحت قاعدة ثالثة فى الإصلاح لا يعطيها الناس حقها ولا يكادون يلتفتون الى خطرها، وهى عظيمة الشأن فى سياق موضوعنا، ذلك أن سعى الأمم فى إصلاح ما بها ودفع البلاء الذى نزل بها لا يأتى بثمرته ويحقق قصده إلا بجريانه فيما بين طلاب الإصلاح أنفسهم وفيما يجرى بينهم وبين غيرهم فى شأنه، وذلك بأن يلتزم هذا السعى بفضيلتى الصدق والعدل اللتين بهما تحق كلمة الله فى خلقه إيجادا وإمدادا، أو سخطا وعقابا، والصدق والعدل لحمة نظام الكون، وتدبير أمره، وسداته، صدق ما أخبر به، وعدل ما قضى به من حكم، وكل ما أنزل من شرائع وما شاء من سنن ثابتة فى إيتاء الملك ونزعه، والتمكين فى الأرض وضده، صدق وعدل كله، فمن خالف فى منهج الإصلاح أو مقاومة الأعداء

لمقتضاهما بأن تعامل فيهما بكذب أو ظلم خاب مسعاه ولم يتحقق له ما يتمناه، وهل تعترف عملية السلام فى النزاع الإسرائيلى الفلسطينى رغم تعدد الهمم سعيا لإيجاد حل سلمى عادل لها، وتعدد القرارات والمفاوضات والمداخلات إلا لجريان مساعى السلام المزعوم على أساس من الكذب والظلم بكل صورهما المضللة والخبيثة والماكرة الخادعة، ولن تنجح تلك المساعى المشبوهة إلا إذا لزمت فضيلتى الصدق والعدل، اللتين بهما تمت كلمات الله بأوسع معانيها فى قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ [الأنعام: ١١٥]، والقاعدة المستخلصة منها مطروحة فى كل الأمور، سياسية كالتى مثلت لها بتعثر عملية الحل السلمى للنزاع الفلسطينى الاسرائيلى، أو اجتماعية أو اقتصادية كالتى تعثر المشروعات الاصلاحية الداخلية أو فشلها، وتعثر العلاقات الزوجية فى زيجات الصغار خاصة ، والكبار عامة بشكل ظاهر ومتزايد فى العقود المتأخرة، وكذلك تعثر كثير من المشروعات الاقتصادية الخاصة وتعرضها لإشهار الإفلاس، كآثار سيئة مترتبة على مجافاة التعامل فيها لمبدأىْ الصدق والعدل اللذين هما الأساسان الجوهريان ، اللذان عليهما تمت كلمة الله، أى تم كل ما أخبر به، وأمر ونهى ، ووعد وأوعد، ولا يخرج عنها كل ما يجرى فى ملكه من تعاملات وأمور ، خاصة أو عامة، لا أحد يبدل شيئاً من ذلك ، فمن أبدل بهما الكذب والظلم فى أمر من الأمور خاب وانتكس ولو بعد حين، حسب ما قضى به تقدير الله سبحانه وتدبيره لما يقع فى ملكه.

هذه كلمات موجزة فى هذه القضية، أرجو أن تكون ذات فائدة كبيرة فى قضية الإصلاح التى تشكل هما عاماً لأمتنا ولسائر الأمم لاسيما فى هذا الزمان الذى عم فيه ظهور الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس من مظالم وأكاذيب كثيرة.

(٥)

كون الأمة هى الحافظة للشرع

بحث ابن تيمية موضوع "الإمامة الكبرى" ورياسة الدولة فى كتابه القيم "منهاج السنة" وضعه للرد على ابن المطهر الحلى من كبار أئمة الشيعة الإمامية، وفيه تقرير لمفهوم الإمامة الكبرى عند أهل السنة، وهو مبنى على أن مصدر سلطة الإمام مبايعة الجمهور له ورضاهم، بأى طريق تتم كما هو فى النظم الديمقراطية الحديثة عن طريق الانتخابات العامة الرئاسية، ودليل صلاحه حب الرعية والشعب له، ويستشهد على ذلك بحديث نبوى يصفه بالثبوت والصحة: **«خيارأئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم»**[١] وليس بالتعيين للإمام المعصوم كما هو مذهب الشيعة الإمامية.

وأوضح من كلام ابن تيمية أن مصدر سلطة الإمام هى بالاختيار من الأمة له، وانعقاد بيعة الأمة له، كأن يحصل على أغلبية أصوات الناخبين

(١) كما فى المنتقى ص ٢٦١، ص ٣٨ فى "الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية لمحمد المبارك.

رئاسية عامة، حرة ونزيهة كما عليه الحال فى الانظمة الديمقراطية الغربية البرلمانية المعاصرة.

وينبنى على ذلك النص الجلّى الذى يقول: «أنه لابد من إمام معصوم بعد انقطاع الوحى ليحفظ الشرع»(١)، وقد أوجب ابن تيمية على أولى الأمر عامة المشاورة، كما أوجب على الرعية مناصحتهم(٢) أى مساءلة الحاكمين وعزلهم عند المقتضى وعدم وجود المانع.

وقوله: «الأمة هى الحافظة للشرع» هو ما نؤكد عليه فى سياق حديثنا، ونرى وجوب ترتيب نتائج هامة عليه، وما ينبغى أن تتجه إليه دولنا العربية الإسلامية المعاصرة فيما نرجوه من إحياء للأمة، وإصلاح لأمرها، فيكون منطلقها وتعويلها على أن الأمة هى مناط الإحياء والإصلاح والتغيير فتوفر لها أسباب ذلك، بأن يجعلوها تختار حاكمها، وتحاسبه، وتملك حق عزله عند المقتضى، وأن يجعلوا الأمر فيها شورى بحيث تمارس الأمة حقها فى صنع القرار، وأن يكفل لها نظام الحكم كل حقوقها الاساسية وحرياتها العامة بما يمكنها من أداء دورها وتحمل أمانات سلطتها، فلا يوضع فى طريقها إلى ذلك عقبات ومعوقات تشريعية أو إدارية أو واقعية تحول دونه أو تهمش دورها، أو تشل إرادتها، أو تكبل إمكاناتها، أو تصرفها عن غايتها، مخافة ضرر يحيق بها إن هى فعلت ما ينبغى عليها من فعل، أو

---

(١) المنتقى لابن تيمية ص (٤١٥، ٤١٦).

(٢) السياسة الشرعية لابن تيمية ص(٧٥، ٧٧). انظر الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية للأستاذ محمد المبارك رئيس قسم العقائد والأديان بجامعة دمشق – إصدار دار الكتب ط (١) سنة ١٩٦٧م.

نادت بما تراه من رأى ، بما يكون عادة أثراً لازما لممارسة أنظمة حكم فردية استبدادية ، وسن قوانين مقيدة لحرياتها، بمثل فرض نظام الحكم العرفى لمدة طويلة وبلا مقتضى حقيقى شرعى ، أو ما أشبه بذلك، مما هو مناقض فى الصميم لمفهوم كون الأمة هى الحافظة للشرع وأنها مصدر السلطة فى الإسلام كما فى النظم الديمقراطية البرلمانية، وأنها أمة دعوة ورسالة، وأنها آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، كما أراد لها ربّها، وما إلى ذلك من أسباب الخيرية التى استحقت به وصفها فى قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] وما حكى عنهم القرآن فى قوله: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وعند ابن تيمية أن الولاية من الوكالة، والحكام وكلاء العباد على نفوسهم بمنزلة أحد الشريكين مع الآخر(١)، وهى كذلك نوع من الإجارة على عمل وهو القيام لشئون الولاية العامة، والطرفان فيها الرعية والوالى، كما فى قول أبى مسلم الخولانى إذ دخل على معاوية: "السلام عليك يا أيها الأجير، إنما أنت أجير استأجرك ربّ هذه الغنم، فإن أنت هنأت جرباها – أى دهنتها بالقطران –، وداويت مرضاها، وحبست أولاها على

(١) الدولة ومطامع الحسبة عند ابن تيمية لمحمد المبارك ص ٥١

أخراها، وفاك سيدك أجرك، وإن لم تفعل عاقبك سيدك »[1].

ولعل من تمام الفائدة في هذا السياق أن أورد هنا تلخيصاً لكلام ابن تيمية عن نظام الحكم في الإسلام في الآتي:

١ – أن الدولة الاسلامية مبنية على مفهوم مدني حيث كون الأمة مصدر السلطات ومن حيث العلاقة بين الحاكم والمحكومين، وليست قائمة على مفهوم لاهوتي كالذي عرفته أوروبا في عصور سالفة. ولكن أسس تكوينها ومبادئها العامة مستمدة من الوحي الإلهي، أما التطبيق وتحديد صيغ المراقبة والمسئولية، واختيار الحاكم ، ومحاسبته فيعود إلى البشر.

٢ – وأن ليست الدولة في الإسلام ضابطة أمن فحسب، بل هي جهاز اجتماعي فعال وظيفته تنمية الحياة الإنسانية في الاتجاهات الخيرة التي رسمها الإسلام، والتنسيق بين الفعاليات الفردية – منظمات المجتمع المدني – لتأمين مصلحة الجماعة بالتدخل في توجيهها وضبطها مادياً ومعنوياً.

٣ – دخول العنصر الأخلاقي في جملة العناصر التي تكوّن الدولة وأهدافها.

٤ – للدولة في الإسلام مفهوم مثالي حيوي، قيمي علمي، لتحقيق الارتقاء المادي والقيمي معا، وهو ما ينبغي أن تتجه إليه دولنا الإسلامية المعاصرة في توجهها الأخلاقي والحداثي تحت سقف مرجعيتها العليا الإسلامية .

---

(١) الدولة ومطامع الحسبة عند ابن تيمية لمحمد المبارك ص ٥٢

إن صلاح الأمة فى جملته أولى بالاعتداد فى قضية صلاح الدولة أو إفسادها « سأل أحد المسلمين الخليفة على رضى الله عنه عن سبب ظهور الفتن فى عهده، ولم تكن ظاهرة أيام أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، أجابه: لقد كان أبو بكر وعمر واليين على مثلي، وأنا اليوم والٍ على مثلك». ولذلك شاع فى أدبيات الحكم من قديم مقولتان ، أحداهما «الناس على دين ملوكهم» والأخرى «كما تكونون يولّى عليكم»، وفيهما إشارة إلى وجود علاقة متبادلة بين الحاكم والمحكومين.

ويظل الأصح أن تقول إن فى صلاح الأمة ، ووعيها رسالتها، وحقوقها وواجباتها، وأدائها لما أؤتمنت عليه، خير ضمان لصلاح الدولة وصلاح الحاكم، ولتحقق عزها، وعزة دينها.

وحسبنا أن نذكر هنا قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨]، فقد دلت على أن الغلبة والقوة لله، ولمن أعزه الله وأيده من رسوله، ومن المؤمنين، وهم الأخصاء بذلك، كما أن الذلة والهوان للشيطان وذويه من الكاذبين والمنافقين، والإسلام هو العز الذى لا ذل معه ، والغنى الذى لا فقر معه، ما عمل أهله به وأخذوا بأسبابه، وأخلصوا لله عملهم، فى كل أمرهم، فى سرهم وعلانيتهم. وهو ما عبر عنه ، القرآن وأوجبه على الأمة بالعمل على المكانة بكل الصدق وبالعلم وحسن الفقه، وبالتقوى والصبر، كما فى قوله تعالى فى بيان منهاج العمل الصحيح لبناء الأمة وتقوية الدولة ولمواجهة الأعداء الناشطين فى عداوتهم: ﴿وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢٢]؛ أى اعملوا على حالكم، ومهمتكم التى أنتم عليها من الظلم والبطش

وسياساتكم المعادية لنا، وممارستكم العدوانية بغير حق، فإنا عاملون على مكانتنا التى هى إحقاق الحق وإبطال الباطل، ثابتون عليها، وعلى مصابرتكم، ما سوف تعلمون أينا تكون له العاقبة المحمودة، فإن العاقبة الحسنى لناصر حقه، الثابت على نصرته، المجاهد للعدو على ما يجد من اغترار بعتوه وكثرة جنده، المؤمن بولاية الله للمؤمنين، وكقوله: ﴿ **قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

ومن الواضح والهام فى تقرير هذا المنهاج الربانى الشامل لكل جوانب الحياة أنه مما يتقاسم مسئولية إقامته أفراد الأمة وجماعتها، وحاكمها وحكومته، فلكل دوره، وثغره يقف عليها، وأمانات يؤديها فلا مكان فى الأمة لفرد إمعة سلبى، ولا لمجتمع جهول مهمش الوجود مشلول الإرادة مغيب، ولا لحاكم لا يؤدى أمانات الحكم وتبعاته بكل القوة والأمانة، فهما شرطان واجبان فيه، عملا بما أورده القرآن فى قوله تعالى: ﴿ **قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ** ﴾ [القصص: ٢٦] فالكل فى الدولة الإسلامية حقا، عامل على بصيرة، ساع إلى إحياء الامة، مشارك فى إصلاح ما فسد من أمرها، عاداً ذلك عبادة وأمانة، باذلا فيه النفس والمال عن اقتناع ورضا، ولا تزال أمة الإسلام بخير ما كان أمرها شورى بينها واتقت ربها وطبقت شرعه، وبذلت فى الحق قصاراها، وعن النبى ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك**» (١)، وفى عصمة

---

(١) رواه مسلم.

الشورى للأمة من الضلال قوله ﷺ «**لا تجتمع أمتى على ضلالة**»، «**لا تجتمع أمتى على الخطأ**»، وقوله: «**سألت الله أن لا تجتمع أمتى على الضلالة فأعطانيها**»، «**وما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن**». وهذه الأحاديث رواها الثقات، أما إذا غابت الشورى وتسيد الاستبداد فإن الأمة لا تعود قادرة على تحمل تبعاتها وأداء أماناتها، إلا بحركة إحياء وإصلاح ترد لها عافيتها . ومن أجل عظم هذه المهمة التى ناط الله بها الأمة، أعانها عليها بهداية العقل والفطرة وتمام الهداية بالوحى، وكان وليا لها فى عملها على مكانتها كما أمرها ربها بذلك فى أكثر من آية فى كتابه الكريم، واعدا إياها بالنصر فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [محمد: ٧] ومن ذلك الإعداد الربانى لها أن ألف بين قلوب آحادها بنعمة الأخوة الإيمانية التى تحقق لها الوحدة والمكانة والعزة وذلك قوله تعالى: ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ٦٣] وأوجد بينهم الرحمة: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ** ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله فى وصفهم: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ [الحشر: ٩]، فنفى عنهم قبائح الأنانية

والشح وأبدل بها أخلاق المفلحين، وأوجب على الأمة ولاية بعضهم بعضا لا ولاية غير المؤمنين والمعتدين منهم خاصة ، وذلك في مقابلة ولاية الظالمين بعضهم بعضا، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١] ، وهى في مقابلة قوله في المنافقين [بعضهم من بعض] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٩].

ومن أهم عناصر عمل الأمة على مكانتها الحرص على توحدها وتوقى أسباب الاختلاف والفرقة إضافة إلى وجوب إعداد القوة العسكرية الرادعة للأعداء عن الاعتداء على شعب مسلم والتخطيط لإبادته، كالذى ترتكبه قوات الاحتلال الإسرائيلى ضد الشعب الفلسطينى مدعومة بأمريكا ودول أوروبية والمنظمات الدولية، عسكرياً وسياسياً وإعلامياً، إنها من جانبها تعمل على مكانتها المناهضة للإسلام والمسلمين، بكل الطرق ، ومنها استغلال نقاط الضعف فى الأمة عامة وفى أنظمة الحكم خاصة، وعملها هذا قائم على الكذب والغى، خلافا لعمل أمة الإسلام على مكانتها بالصدق والعدل، فهى ترد عدوانا ظالماً، وتنتصر لحقها الثابت فى صدق، وشتّان بين العملين والمكانتين، ولا يستوى الكذبة الظالمون مع الصادقين

العادلين، ولا الأبرار مع الفجار والله تعالى يقول: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨].

واستكمالاً لبعض عناصر عمل الأمة على مكانتها، نورد بعض النصوص القرآنية فيما ذكرنا منها مثلاً قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقوله تعالى فى وجوب نصرة المؤمنين بعضهم بعضا إذا اعتدى على بعضهم ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وإذا استثنيت الآية النصرة فلم تجزها لميثاق يمنع كمعاهدة صلح، فإن من المقرر نقض الميثاق إذا وجد من الطرف الآخر إخلال به وأضرار تمس أمن الدولة المعاهدة ومصالحها العليا المعتبرة.

كما أن لنصرة الفلسطينيين أبواباً أخرى مثل المقاطعة السياسية فى بعض صورها، والمقاطعة الاقتصادية بأوسع صورها، ولا تزال دول عربية وإسلامية غير مرتبطة بميثاق تملك النصرة بكل ما تملك إن نزلت على حكم الله فى الأمة بإيجاب النصرة. وفى صحيح الحديث عن وجوب تماسك الأمة وتراحمها قوله ﷺ عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما: **«مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له**

سائر الجسد بالسهر والحمى» (١)، وقوله عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: رسول الله ﷺ «**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا. المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا**» ويشير الى صدره ثلاث مرات، «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه**» (٢)، وعنه ﷺ فى النهى عن التعذيب، عن عروة بن الزبير بسنده قال: مرّ بالشام على أناس وقد أقيموا فى الشمس، وصب على رؤوسهم الزيت. فقال: ما هذا؟ قيل: يعذبون فى الخراج، فقال: أما إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا**» (٣)، وعن حرمة دماء الأمة واقتتالها: «**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار**» قلت: يا رسول الله: هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**إنه قد أراد قتل صاحبه**»(٤).

هذه نصوص قرآنية وأحاديث نبوية صحيحة تهدف كلها إلى إيجاب ما فيه تحقيق قوة الأمة والنهى عما فيه إضعاف لها، وفيه دلالة على خطر دور الأمة فى مهمة الإحياء والإصلاح وكونها حافظة للشرع وأماناته، وأنها تأهيل لها لأداء ذلك الدور وتلك المهمة، وهو ما أردنا بيانه فى هذا التقديم وللتأكيد عليه فى توضيح مقاصد الشرع ومفاهيمه الاساسية ذات البعد الحضارى والسياسى والعمرانى، من منطلق شمولية الاسلام لكل جوانب الحياة .

---

(١) رواه مسلم وآخرون.

(٢) رواه مسلم وغيره.

(٣، ٤) رواه مسلم فى صحيحه.

(٦)
خصائص وأصول إسلامية

تحت مبادئ وأصول إسلامية، يتناولها علماء الأمة ومفكروها الإسلاميون فى أحاديثهم وكتاباتهم، وجدت من النافع هنا التعرض لبعضها بمزيد من البيان والتحقيق فى إيجاز لتحريرها وإماطة ما قد يلحق بها من غموض أو ما شابه ذلك. وقد اخترت منها ثلاث مسائل: الشمولية والوسطية والرفق.

شمولية الإسلام

نادى بها السيد جمال الدين الافغانى رائد الدعاة فى القرن العشرين، ومن حملوا لواء الفكرة الإسلامية من بعده، فتلقاها منه الشيخ محمد عبده، والسيد رشيد رضا فتكلموا عن شمول الفكرة الاسلامية لكل شئون الحياة: عسكرية وسياسية واجتماعية وإعلامية وتعليمية، داخلية وخارجية، وتنادوا بها منطلقا للإصلاح ومقاومة للاستعمار، وكذلك دعاة مصلحون فى المغرب العربى مثل عبد الحميد بن باديس فى الجزائر الذى لقى هو وأعضاء جمعيته عنتا وظلما ومطاردة من السلطة الفرنسية، كما قامت فى ليبيا الدعوة السنوسية وكان إمامهم السيد أحمد شريف السنوسى الذى كان الاستعمار البريطانى يعتبره ألد أعدائه، أخذت المنتسبين إليها - وإن كانت فى مظهرها طريقة صوفية - بأسلوب يجمع بين التربية الروحية والتربية العسكرية وأنشأت «زوايا» وهى مساجد صغيرة فى الاماكن النائية وخارج المدن، أقضت مضاجع المستعمرين الإيطاليين الذين كانوا يستظلون فى احتلالهم هذه البلاد بسلطان الرعاية

البريطانية المجاورة لهم فى مصر، وقد ارتكبوا معا أفظع الجرائم الوحشية ضد هؤلاء المجاهدين الذين سجل لهم التاريخ بطولات خارقة، وتحت قيادات أخرى حملت لواء الدعوة الاسلامية خلال القرن العشرين قامت بدور جهادى عظيم فى المغرب وإيران والهند والقارة الإفريقية.

وجاءت دعوة حسن البنا فى مصر متابعة لما سبقها من دعوات إسلامية إصلاحية، وآخذة منها بأحسنها، تميزت بفكرها الدعوى الحركى، ركز جهوده على الاتصال بالجماهير بكافة السبل المتاحة آنذاك، فأنشأ جماعة الإخوان المسلمين، على أساس من شمولية الإسلام ووسطيته واعتداله، والمشاركة فى جميع مسئوليات الأمة ومشاكلها فى مختلف الميادين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من منطلق تحمل الأمة حكاما ومحكومين تبعات الإصلاح والنهوض بها، وأن وحدة الأمة الاسلامية دين وأساس عز الملّة والأمة معا، وأن موالاة المؤمنين بعضهم بعضا دين هى الأخرى، وأنها شرعت فى مواجهة كون الظالمين يوالى بعضهم بعضا، لقوله تعالى: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ [التوبة: ٧١]، ﴿ **إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ [الجاثية: ١٩]، فأنشأ الشُعب فى كل أنحاء القطر، والنوادى الرياضية للشباب، والمشروعات الاقتصادية، والمستوصفات، والمدارس، والمساجد، فكانت تتكاتف كلها فى خدمة الشعب، وتوفير حاجاته، ونجحت جماعة الإخوان منذ نشأتها الاولى فى إعداد جيل جديد يحسن فهم حقائق الاسلام والمعرفة بعصره ومتغيراته.

وأكدت الجماعة بذلك إبراز الاسلام بمعناه الشامل لكل نواحى الحياة

من عبادية واجتماعية واقتصادية وسياسية، وأن الاسلام دين ودولة وعقيدة وحضارة، وكان البنا أول من يعرف في الجماعة أن إبراز الإسلام بمعناه الشامل لن يرضى المستعمر ولا تابعيه من الحكام؛ لأن ذلك سيحد من سلطتهم ويقضى على أطماعهم غير المشروعة.

وقد حققت الجماعة «الأخوة الإيمانية» عبادة وسلوكا، وولّد تياراً إسلامياً واعياً بدينه، عاملاً على الإسهام فى إصلاح الأوضاع من حوله، كل من خلال الثغرة التى يقف عليها فى مجتمعه ، إيجابياً فى تحركه، مؤمناً بأن العاقبة للتقوى، وفق منهج الجماعة وسعيها لتحقيق أهدافها العليا، ابتغاء مرضاة ربه، مستعينا بالصبر والصلاة، فلما شاء الله أن تمتحن الجماعة ليميز الله الخبيث من الطيب وليصلب عودها، وجرت عليها سنة الله فى ابتلاء المؤمنين، من اعتقال وسجن وقتل، ما زادتهم المحن إلا ثباتاً على الحق رغم ما تعرضوا له من تعذيب جاوز الحد علم به القاصى والدانى، وأدانه القضاء فى أحكامه، وأنكره الرأى العام فى الداخل والخارج، ومهما طالت بهم المحنة فإن مدد الله بالصبر لا ينقطع، مرددين قوله تعالى: ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾ [آل عمران: ١٨٦] ﴿ **وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾[إبراهيم: ١٢]، وقوله ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ**

وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد :٧]، ومن ثمرة كفاح الدعوة والجماعة ما تشهده الأمة العربية والإسلامية رغم كل المعوقات ، قديمها وجديدها، ظاهرة الوجود الإسلامى المتنامى فى شتى مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وسطية الإسلام

إن الوسط هو العدل والخيار، وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة والصراط المستقيم، فهو شر ومذموم ، فالخيار هو الوسط بين طرفى الأمر، وإنما عد المسلمون خياراً وعدولاً لأنهم وسط ليسوا من أرباب الغلو فى الدين المفرطين ولا من أرباب التعطيل المفّرطين، فهم كذلك فى العقائد والأخلاق والأعمال والمعاملات، أهل اعتدال وتوسط فى الأمور كلها، يعطون كل ذى حق حقه، يؤدون حقوق الله وحقوق أنفسهم وحقوق ذوى القربى وحقوق سائر الناس، ولهم فى رسول الله أسوة حسنة فى استقامته على صراط الهداية المستقيم، وفى المحافظة على العمل بهديه تحقيق لوصف الوسطية ولزوم الجادة التى أمرت بها الأمة ووصفت به، فهى أمة وسط فى الاعتقاد وفى التفكير والشعور وفى تنظيم أمور الحياة والناس.

وفى العلاقات الداخلية والخارجية، الفرد فيها له كيانه ، وخادم للجماعة، والجماعة كافلة له فى اتساق، بل للأمة وسطيتها الجغرافية والزمانية، تشهد عهد الرشد العقلى للبشرية، وتؤدى أمانة الرسالة لصالح البشرية كافة ، وتقترن بالوسطية والاستقامة على الحق، والسماحة واليسر والإخاء الإنسانى واستباق الخيرات تعاونا على البر والتقوى من أجل عمارة

الأرض التى أمر الله بها خلقه كما فى قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [هود: ٦١]، بمعنى عمارة الأرض من أجل خير العباد والبلاد، وليس هو الاستعمار بمعنى استيلاء الدول القوية على بلاد المستضعفين واستثمارها واستعباد أهلها لمصالحهم، كما وقع فى زماننا وكان أحد أهم أسباب انحطاط عالمنا الاسلامى وتآمر الدول الاستعمارية عليه وعملهم على سقوط الخلافة الاسلامية، واقتسام دولها، وإعاقة تقدمها، وتمكين الصهاينة من فلسطين واغتصاب أرضها وطرد أهلها من دورهم وارتكابهم جرائم حرب محرمة دولياً ضد شعبها الأعزل، مما هو واقع مشهود فى هذا الزمان الأسيف استنفر المجاهدين من أهلها لرد العدوان بكل الوسائل المتاحة وتحركه المقاومة الباسلة، والانتفاضة الشجاعة، كما أمرهم ربهم، وكلفهم شرعهم، ولا يعرفون فى ذلك إلا أحد أمرين النصر أو الشهادة ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

وهذا هو عمل الأمة الاسلامية على مكانتها كما أمرها شرعها فى قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ [هود: ١٢١]، وعملها على عمارة أرضها التى خربها الظلمة المستعمرون، سائلين الله أن يغفر لنا تقصيرنا، تائبين راجعين إليه فيما وقع منا ذنب أو خطأ استوجب عقابنا وما نزل بنا من بلاء بسبب تفريطنا كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١].

إنها وسطية العزة والقوة، وسماحة لا تعرف المداهنة، ولا تقبل الهوان والذل، ولا التفريط في الحق، ولا الاستسلام في دفع الظلم ، ولا تسمية مقاومة المعتدى بكل الطرق المتاحة إرهابا مذموما وإنما تسميه جهاداً مشروعاً وحقاً لا يعرف المساومة.

ومن وسطية الإسلام أن نحب أهل الطاعات وأن نبغض أهل المعاصى الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، وهل الايمان إلا حب في الله وكره فيه، ومن مقتضاه عدم اتخاذ بطانة من دوننا وعدم موالاة الأعداء المعتدين اتقاء الخبال أى الفساد، واتقاء العنت أى شدة الضر والمشقة، فلا يجوز بذل المحبة لأهل البغضاء، كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [آل عمران: ١١٨]، أى لعلكم تعقلون ما بيّن لكم فتعملون به.

وللأسف إن حالنا مع أعدائنا في هذا الزمان دال على عدم عقلنا لما بيّن الله لنا في الآية هذه وغيرها ، ما اتخذنا من العدو بطانة، وكنا لهم موالين، فتمكنوا منا ولحقنا الخبال والعنت، كالذى نجده في محنة فلسطين وكشمير والشيشان وغيرها، إذ ظاهر بعضهم بعضا علينا وأوقعوا بيننا الفتن والخسران. وفي الآية بيان على وجه التعليل للنهى عن اتخاذهم بطانة وموالاتهم. ولقد نعى القرآن علينا حب من يعادوننا ويبغضوننا وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب من المسلمين في حقهم وذلك لقوله

تعـالى فى الآية التـاليـة : ﴿ **هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ [آل عمران : ١١٩]، وفيه دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به بما يرون من قوة الإسلام وعزّ أهله وصلابتهم فى الحق ، أمراً لرسول الله بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم بنصر المؤمنين، وهم لا يرون أشد غيظاً من غيظهم بثبات انتفاضة المجاهدين فى فلسطين فى وجه ترسانة الأسلحة المتطورة، وشراسة جند الاحتلال فى اعتداءاتهم التى جاوزت الحد بكل الموازين.

ما أعظم ما شمل مفهوم الوسطية فى الإسلام، ذلك أن مقصود الشريعة هو تحقيق مصالح العباد وجلب المنافع ودفع الضرر والمفاسد والحرج عنهم، ولذلك نجد العبادات فيها تقوم على اليسر، وأن المعاملات تقوم على السماحة أى الجود ولين الجانب ، وتقوم على التوسعة أى ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه. وعن الرسول ﷺ : «**إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا**» (١)، وعنه أيضاً : «**رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى**» .

ومن الوسطية النهى عن الغلو فى التدين، بمعنى مجاوزة الحد أو النقصان فيه، والغلو قد يكون اعتقادياً، أو سلوكا عملياً، كتحريم ما لم يحرم الله ، والتشدد المخل لقوله ﷺ : «**هلك المتنطعون**» قالها ثلاثا رواية مسلم، وهم المغالون المجاوزون الحدود فى أقوالهم وأفعالهم، وفيه مراعاة

---

(١) أخرجه البخارى.

معالم المنهج الوسطى فى التعامل مع المخالفين من أهل الملّة، فإن تفرق الصف، واختلاف الكلمة يفضى إلى ضياع الدين والدنيا وتسلط الاعداء على الأمة، قال النووى: «العلماء إنما ينكرون ما أجمع عليه الأئمة أما المختلف فيه فلا إنكار فيه»، جمعا للكلمة وتأليفا للقلوب .

والمهم، وفى كلمة للأمة الإسلامية فى المنعطف التاريخى الذى تجوزه فى هذه الحقبة من مطالع القرن الحادى والعشرين، وفى مواجهة تحديات مصيرية على كل المستويات والأصعدة، لعل أخطرها هو الاستعمار الجديد فى ظل العولمة الامريكية الفارضة وتداعياتها، ودعوى محاربة الإرهاب الدولى الذى ربطوه بالإسلام والمسلمين ظلما وتعصبا وعتوا ، والخطر الصهيونى الذى استغل هذا المناخ العدوانى الذى كان قطب العاملين على إيجاده ليعبث فى أرض فلسطين فسادا وحصارا واجتياحاً وتدبيراً واعتقالات واسعة وتصفيات جسدية ومذابح جماعية وجرائم حرب غير مسبوقة، مؤيداً بجيش احتلال غير إنسانى قط، وبانحياز أمريكى كامل، وبإعلام دولى مكثف هدفه تشويه صورة الإسلام والمسلمين والدفاع عن العدوان الصهيونى، ورمى الفلسطينيين العزل أصحاب الأرض بالإرهاب والوحشية، وإمدادات بالمال والسلاح المتطور وحرمان الشعب المجنى عليه من أى حماية دولية قررها مجلس الأمن ، وفشل فى تنفيذها الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة وأعوانه، والحكومات العربية عاجزة عن مناصرة هذا الشعب المسلم فى محنته الضارية ومعاونة انتفاضته بالمال والسلاح والغطاء السياسى الدولى.

أقول فى كلمة مدوية أن الوسطية الاسلامية وتوابعها من فضائل

الاعتدال والسماحة، وما إليهما، وهى التى شرف الله سبحانه الأمة بوصفها بها فى محكم التنزيل، أكرم من أن يقبل تحت مفهومها، أى تهاون بحق، أو تفريط فى أرض ، أو قبول الدنية فى سلم يفرض عليها هو بكل حقائقه استسلام لعدو متغلب دون حق على الأرض والعرض والسكان الأصليين ويصر على إبادة شعب وإذلاله، إن الوسطية ربانية اللحمة والسداة لا يمكن أن تناقض شرع الله الذى أوجب على الأمة دفع الظلم والمعتدين بكل الوسائل، وأوجب عليها الاستمساك القوى بالكتاب وجعل المصلحين فى معنى الذين يمسكون بالكتاب، ويتصلبون فى ذات الله بلا أى مداهنة، وقال فى المعنى الأول ﴿ **وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٧٠]، ومن أجل ذلك نهى أيضاً عن الركون الى الذين ظلموا لقوله عز من قائل : ﴿ **وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ** ﴾ [هود :١١٣]، وقد نهانا الله تعالى عن الركون إلى استدراجات ومحاولات العدو للتخلى عن الحق أو بعضه وهى من جنس محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائماً، محاولة إغرائهم لينحرفوا ولو قليلاً عن استقامة الحق والصلابة فيه ويرضوا بالحلول الوسط التى يغرونهم بها فى مقابل وعود زائفة يبذلونها، وهذا ما وجده الساعون من حكام العرب من الصهاينة والأمريكيين المنحازين لهم وإن ادعوا أنهم دعاة سلام حقيقى عادل وشامل بين اليهود والفلسطينيين من أجل تحقيق الأمن والسلام فى الشرق الاوسط.

أنهم يطلبون تعديلات طفيفة بزعمهم ليلتقى الطرفان فى الوسط أى

فى منتصف الطريق، وما أكثر ما يدخل الشيطان على أصحاب الحق من هذه الثغرة، إذ يمكر بهم عدوهم فيتنازلون عن بعض الحق لكسب البعض الآخر الظاهر الرجحان مثل الوعد بإقامة دولة فلسطينية، ولكن سوء النية يظهر فى رفضهم جدولا زمانيا لإقامتها.

لا وسطية فى إدراك الحق وفى الإيمان به، ولقد حاولت قريش هذه المحاولة مع رسول الله ﷺ فى صور شتى، منها مساومتهم له أن يعبدوا إلهه فى مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم ، ومنها مساومة بعضهم له أن يجعل أرضهم حراماً كالبيت العتيق الذى حرّمه الله، وغير ذلك مما عصم الله منها رسوله، وفى نص الآية ذكر لفضل الله على الرسول فى تثبيته على الحق وعصمته من الفتنة، ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته لركن إليهم واتخذوه خليلا، ولقى عاقبة الركون إلى فتنة المشركين، وهى مضاعفة العذاب فى الحياة والممات دون أن يجد له نصيراً منهم يعصمه من الله، وهى منة من الله على الرسول أن ثبته على الحق، وفى ذلك تنبيه شديد للأمة كافة من الاستدراج المحرم من عدوهم لهم، للتسليم وتقديم التنازلات عن الحق المضيقة له والمانعة من النصر وتأييد الله لهما، وذلك قوله تعالى مخاطباً رسوله وأمته من بعده فى توقى فتنة كبرى: ﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥].

قاعدتا التيسير والرفق

أما عن الرفق والتيسير فقد وردت فيهما نصوص قرآنية كثيرة، وأحاديث نبوية صحيحة. قاطعة كلها بأن الله سبحانه قد أراد في كتابه الكريم أن ييسر على المؤمنين ولا يعسر، وقد نفى عنهم الحرج في الدين، وأمرهم بالحنيفية السمحة التي لا إصر فيها، ومن ذلك ترخيصه إباحة الفطر في السفر والمرض، وغير ذلك من الرخص المسنونة، كما في قوله تعالى: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ [الحج: ٧٨] أي فتح باب التوبة للعصاة، وفسح بأنواع الرخص والكفارات والديات.

وسع الإسلام توسعة ملة إبراهيم، وأمة محمد هي الأمة المرحومة الموسومة بذلك في الكتب المتقدمة، فضلها على الأمم وسماها بهذا الاسم الأكرم، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «**اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به**» (١)، وعن جرير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من يحرم الرفق يُحرم الخير**»(٢).

(١، ٢) رواه مسلم.

عن عائشة رضى الله عنها عن النبى: «**إن الرفق لا يكون فى شئ إلا زانه، ولا ينزع من شئ إلا شأنه**»[1]، والناظر فى قضيتى الرفق والتيسير يجدهما داخلين فى مفهوم الوسطية التى وصف الله تعالى بها الأمة فى كتابه الكريم كما أسلفنا آنفا، ويجدها جميعا فى وفاق مع كون الإيمان حبا وكرها، وتشددا ورحمة، ولكل مقام مقال كما اقتضت حكمة الله فى شرعه، كما فى قوله تعالى: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ** ﴾ [الفتح: ٢٩]، ونحوه﴿ .. **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ** .. ﴾ [المائدة: ٥٤]، ويتضمن الذل معنى الحنو والعطف كأنه قيل - كما فى الكشاف - عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع، خافضين لهم أجنحتهم، ولا تعارض مع ما أثبته الله سبحانه لهم من أنهم صلاب فى دينهم إذا شرعوا فى أمر من أمور الدين: إنكار منكر أو أمر بمعروف مضوا فيه كالمسامير المحماة لا يرعبهم قول قائل ولا اعتراض معترض، ولا لومة لائم، يشق عليه جدهم فى إنكارهم وصلابتهم فى أمرهم، وقوله تعالى فى ختام الآية «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**» إشارة الى ما وصفهم به من المحبة والذلة والعزة والمجاهدة وانتفاء خوف اللومة يوفق له من يعلم أن له لطفا وأن الله كثير الفواضل والألطاف عليهم بمن هو من أهلها.

ومن الصلابة فى الدين التى أمرنا بها قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ**

---

(١) رواه مسلم.

بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف : ١٧٠]، فى الصيغة اللفظية يمسكون دالة على القبض على الكتاب بقوة وجد وصرامة، والجد والقوة والصرامة المأمور بها لا تنافى اليسر والرفق والسعة المأمور بها فى آيات من الكتاب، ولكنها تنافى التعنت والتنطع والتشدد المذموم، وتنافى الاستهتار.

ولا تنافى مراعاة الواقع ولكنها تنافى أن يكون الواقع هو الحكم فى شريعة الله فهو الذى يجب أن يظل محكوماً بشريعة الله وهذه هى الحاكمية فى مفهومها الصحيح، وكونها جعلت المصلحين فى معنى الذين يمسكون بالكتاب فيه إشارة إلى منهج متكامل فى الإصلاح، إذ أقامت الحكم على أساس التمسك بالكتاب، وأقامت القلب على أساس العبادة، وتوافق القلوب مع الكتاب فيه صلاحها، فهى إن صلحت صلحت الحياة كلها، وتوافق الحكم مع الكتاب فيه صلاح الدين والدنيا، من عمل به أفلح وغنم، ومن تركه خاب وخسر، فذلك هو « النهج الربانى » لصلاح الحياة، لا تصلح بغيره وليس التمسك الشديد بالكتاب هنا هو من قبيل الغلو فى الدين المنهى عنه الذى هو غلو بغير حق، فذلك غير الغلو فيه بحق أى بمعنى شدة الحرص عليه والتفحص فى النصوص واستكناه مراد الله منها وعلة الحكم الذى جاءت به، فذلك هو الاستمساك بعروة الكتاب الوثقى، والاعتصام بحبله فى جميع الأحوال والأوقات، ومنه إقامة الصلاة التى هى عماد الدين فى أوقاتها والناهية عن الفحشاء والمنكر، وأداء أمانات الحكم والإصلاح.

وختاماً، هذه إلمامة بمجمل فهمى للإسلام، ومقاصد شريعته، وما

حملنيه ربى من أمانات فى الحياة الدنيا، ومواجب ومنهيات، وما أمدنى من هدايات، ووفقنى فيه إلى عمل صالح يرضاه، أودعتها كلماتى هذه المقدمة لمجموعة من خطب الجمعة التى أذن لى أن أؤديها فى مسجد محمود ابتغاء وجهه ولخير عباده، فى حقبة مضت حيل بعدها بينى وبين مواصلتها لأسباب خارجة عن إرادتى، وسبحان المعطى والمانع، أشكره لما أعطى وأستعيذ به من كل ذنب قد يكون وراء منعى فلا يكون سلبا لعطاء، وأن يرضينى بالقضاء، وأن يتقبل منى ما قدمت، وأن يغفر لى ذنوبى وأن يجزل عما يرضاه مثوبتى، وأن يحسن خاتمتى ويجعل خير أيامى يوم لقائه اللهم آمين.

وقد رأيت أن أضع بين يدى القارئ الكريم هذه الإلمامة التى صدر عنها محتوى الكتاب، لعله أن يجد فيها خيراً بإذن الله، كأن توضح ما غمض من كلمات هذا الخطاب الدينى، أو تكمل ما نقص منها، أو تستجلب لى منه دعوة صالحة أجدنى فقيراً إليها، ولن يحرم بإذن الله أجرها. وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر وهو سبحانه الولى الحميد.

محمد فريد عبد الخالق

[١]

مراجعات فى واقعنا

المسلمون أمة تدبُّر وتفكُّر، وتحمُّل لمسئولية كبيرة لا يصلح لها إلا الإيمان والفكر والنظر. والذى يتدبر فى أمر المجتمعات البشرية سيجد أن الله – تبارك وتعالى– قد وضع لعباده قواعد وسننا عامة ينصلح حالهم إن التزموها، وإن انحرفوا عنها ضل سعيهم فى الدنيا والاخرة؛ ذلك أن الله – تبارك وتعالى – ربط بين الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة وبين العمل الصالح، وجعل العمل الصالح هو الأساس الذى يبلغ به المرء خير الدنيا والآخرة، بشرط أن يكون هذا العمل صادراً من نفس مؤمنة.

يقول الله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النحل: ٩٧] ويقول سبحانه: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا**﴾ [النساء: ١٢٤].

ارتباط النجاح بالإيمان سنة إلهية

فظهر أن ارتباط النجاح والفلاح والحياة الطيبة بالإيمان والعمل الصالح قاعدة وسنة من سنن الله فى خلقه.

وفى المقابل نقرأ قوله تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ [النحل: ١١٢].

والأمة - حتى يستقيم أمرها، وتعمر حياتها بالخير - لابد أن تسير وفق القواعد والسنن الإلهية، فإن هى أعرضت عن سنة الله ودينه ضل سعيها، وضاعت منها النعمة، وتحولت الى نقمة.

وإذا كان العمل الصالح قد يلحقه قصور، فقد وضع الله لخلقه منهج التصويب والتوبة، وأمرهم بالاستغفار، وأمرهم به الأنبياء، وهذا شيخ الأنبياء نوح عليه السلام يقول - كما سجل القرآن -: ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا** ﴾ [نوح: ١٠-١٢]، وكل هذا الفضل وتلك النعم لا تترتب شرعاً على الاستغفار اللسانى فقط، فهذا الاستغفار لا يكفى لينجاب به الهم، وتُحل المشكلات، وتتغير الحال الى الأفضل، وإنما هو الاستغفار الذى تتأكد به العقيدة فى نفس المؤمن، ويتحقق به العمل.

... إن الاستغفار تغيير، وعودة عن المعاصى الى طريق الله ودينه وشرعه، وقد ربط الإسلام بين هذا التغيير وبين صلاح الحال يقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١].

والناس مع القرآن (منهج العمل) ينقسمون فريقين نشهدهما فى واقع حياتنا:

- فمنهم من تغلبه هموم الدنيا وفتنها ومشاغلها وزينتها، فيتنكب سبيل القرآن، وينشغل عن أمر الآخرة، أولئك الذين أرادوا «العاجلة»، فسار بهم القانون الإلهى إلى أن ينالوا نصيبهم من دنياهم، ولا يُحرموا

منه، وإن كانت الخيبة مرتبطة بهم فى الدنيا و الآخرة . . يقول الله تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا** ﴾ [الإسراء: ١٨].

– وأما الفريق الثانى، فيسعى فى الدنيا لعمارة الأرض وعبادة الخالق، ملتزماً منهج العبودية لله تعالى فى كل ذلك . . يقول تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا** ﴾ [الإسراء: ١٩].

إن التغيير الى الحسن والأحسن هو الهدف المنشود من تطبيق الشرع، سواء فى دائرة الفرد أو المجتمع والدولة، ومعنى ذلك هو أن الطريق إلى الجنة يمر عبر العمل وفق شرع الله تعالى، والسعى فوق الأرض للإصلاح.

والسعى إلى تغيير النفس يفتح العين على دائرة من التغيير أوسع، وهو التغيير فى محيط المجتمع، ويختصر فى فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ومعنى ذلك أن خيريتنا مرتبطة بالعمل على الإصلاح، ونشر الفضائل والتشجيع عليها، وكبت المنكرات ومحوها.

فإذا أدينا ما أوجب الله علينا من الأمر بالمعروف، وأقمنا الحق فى الأرض، ودافعنا عنه، وبذلنا وضحينا، كانت النتيجة الحتمية هى موالاة الله ونصره لنا، يقول تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ** ﴾ [محمد: ١١].

وهذه الحقيقة - وكثير من الحقائق الأخرى - غفل عنها المسلمون، وانشغلوا بالمعانى الصغيرة عن المعانى الكبيرة، وبالفروع عن الأصول، وبالشكل عن المضمون، وبالقضايا المحدودة عن الموضوعات الجادة. وتلك علامة على بؤس حالنا، وأننا نسير إلى الوراء ولا ينفعنا حينئذ أننا أصحاب رسالة خالدة، أو أصحاب حضارة عظيمة - ما دمنا لا نعمل بهما.

نعم، تشغل أمة المسلمين موضع الشهادة على الناس، لكن بماذا ينفعنا هذا إن تنكبنا الطريق، وسرنا على غير هدى إسلامنا؟

نحن مطالبون شرعا بدراسة أحوال الأمة، والتعرف على العلل، وعلى أسباب التخلف، ومواضع النقص فى أنفسنا وفى بيوتنا وفى شوارعنا وفى مؤسساتنا، وفى كل مقام يكون موضعا للتغيير والإصلاح، حتى لا نتوه وسط فروع وتشعبات تخرج بنا عن قضايانا الأساسية.

إن هدفى هنا أن أركز على «المراجعة» وكشف الحساب لأنفسنا وأمتنا، لندرك مواقعنا جيداً، ونمر من المأزق القائم، ونعبر العقبات المعترضة. والمراجعة المطلوبة لابد أن تكون وفق كتاب ربنا وحسب تعاليم ديننا، وأخشى إن خالفنا عن هذا الطريق أن تنطبق علينا هذه الصورة القاسية التى صور بها القرآن بعض الناس فقال: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾ [الاعراف: ١٧٩].

هذا وصف القرآن للإنسان حين يتخلى عن المكانة الرفيعة التى رشحه الله لها، وأنزل لأجلها الكتب وأرسل الرسل: كالأنعام بل هم أضل، وهناك فريق من الناس حاله الآن هى هذه التى وصفها القرآن.

وهناك من لم يكتف الشيطان بإضلاله، بل عبّده للضلالة وأهلها المسوٌقين لها، ومنهم هؤلاء المسمون بـ«عبدة الشيطان»، الذين هم ثمرة للفساد والانحلال والضياع، ونتيجة طبيعية لمخططات اختراق القلوب والعقول وإفساد الذمم وتخريب الضمائر وإضعاف كيان الأسرة.

وهناك من الناس فى هذا الزمان أيضاً من هم يلهثون وراء زخرف الدنيا ومطامعها وفتنها. وهذه الصورة الزاعقة المؤلمة يضعها القرآن أمام المسلم ينبهه كى لا يقع فيها. يقول الله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث**﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

وعند المراجعة أيضاً سنجد أن أعداءنا قد استدرجوا شبابنا -وهم أمل الأمة- فصرفوه عن العمل الجاد وعظائم الأمور، وشغلوه بأشياء هامشية تؤخر - فى الغالب - ولا تقدم؛ لأنها تصرف الجهد فى غير موضعه، وتبدد الطاقات فى غير أماكنها.

وعند التفكير فى أحوالنا كذلك سنجد أننا نستجدى أعداءنا، وهم فى الأصل الذين دبروا أكثر مآسينا، فمن أسلم فلسطين لليهود؟ أسلمها الإنجليز، ثم قام الأمريكيون من بعدهم على رعاية الدولة الصهيونية، حتى

أصبح أمن إسرائيل جزءاً لا يتجزأ من الاستراتيجية الأمريكية الثابتة.

وفى الحقيقة: المراجعة المطلوبة نوع من التدبر الذى دعانا الإسلام إليه، وحثنا عليه، فالله تعالى لم يدع الناس حيارى، وإنما وضع لهم القواعد، وعليهم أن يتدبروا، وأشياء كثيرة فينا تعين على هذا التدبر، مثل: العقل، وكثرة آيات الله فى الكون، والقرآن الكريم.

ومجالات التدبر هى: الأنفس، الآفاق، والقرآن. والتدبر الحقيقى فيها، وتطويره إلى عمل يؤديان الى تغير الحال وتبدل الأوضاع، وتجعل منا قوة قادرة على مواجهة الصعاب، وإعادة الأمور إلى نصابها، ولا يستطيع مستبد أن يضع عقبات فى طريق أمتنا .

وربما قال الناس: إن هذا التدبر وتلك المراجعة لا يأتيان بفائدة ما دامت القوى العظمى تقف فى طريقنا!!

ولكننا نقول: إن الأيدى المؤمنة، والعزائم الصادقة لا يقف أمامها حائل، لا القوى العظمى ولا غيرها.. الدول العظمى ماذا تكون أمام عظمة الله الذى بيده ناصية الأمور؟ وهذه الدول إن كانت عظمى اليوم فلن تظل عظمى أبد الدهر!! ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران: ٢٦].

يوم تتحقق هذه المعانى فى قلوبنا، فتصح العقيدة، وتقوى همم الرجال وعزائمهم لن يقف أمام المسلمين شىء. بل إن العالم فى انتظار اليد البيضاء التى تنقذه مما هو فيه. إنه فى خبال من أمره، مهدد فى كل شىء.

الصحف ووسائل الإعلام تطالعنا كل يوم بالصيحات العالية الشاكية، ومثال ذلك ما دعاه سكرتير منظمة الأمم المتحدة «طاعون العصر» المخدرات، وهى بحق هكذا، فقد استعصى على الولايات المتحدة بكل قوتها أن تقاومها وتقف أمامها؛ لأنها كلما اكتشفت أسلوباً للتهريب فإن مافيا المخدرات تجدد وسيلة أحدث لنشر هذا الطاعون الذى يمثل أحد أكثر أنواع التجارة رواجاً.

إن الإصلاح لا يكون من الخارج، وإنما يكون من الداخل، وهو القانون الذى وضعه الله تعالى، فقال فى كتابه العزيز: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١]، وقال سبحانه: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأنفال: ٥٣].

الكفران يجلب الخسران.. سنة كونية

وأحب أن أقف على الفارق بين الآيتين الكريمتين، أما الأولى فتعنى أن الله لا يزيل نعمة، ولا يرفع نقمة إلا حين يغير صاحبها ما بنفسه، فأما صاحب النعمة فيفسد، وأما صاحب النقمة فينصلح. وأما الآية الثانية فمقتصرة على النعمة وزوالها فى حال الكفر والمعصية؛ ومثلها قوله تعالى: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [النحل: ١١٢].

وهذا ما يشكو منه عالم اليوم، تصحر متزايد، وأزمات غذاء، وجفاف وقنابل نووية تكفى لتدمير العالم مائة مرة، وإنقاذ هذا العالم رهن بصحوة

المسلمين، وتحملهم دورهم فى الحياة، وهذه الويلات التى تحيط بالعالم لا خلاص منها إلا يوم يطلع عليهم فجر الإسلام واضحاً قوياً ندياً، يحمله المسلمون واعين بدينهم، يتحقق نص القرآن والسنة فى عملهم، ويكونون قدوة لغيرهم، إذا رآهم الناس عرفوا الإسلام، لا بشعار يرفع، ولا بضجيج يسمع، ولا بكلام يُدعى، ولكن بالوفاء بالعهد وصون الأمانات، والصدق فى القول، وبالإخلاص فى السر والعلن.

والغريب أننا بدلاً من السعى للقيام بهذا الدور، إذا بفريق منا يلهث خلف الحيارى، ويعرض الإسلام كخيار يمكن أن يقع عليه الاختيار ويمكن ألا يقع !! فهناك اشتراكية ورأسمالية وإسلام، وكل واحد منها خيار يمكن أن يفضل على غيره!!

وهذا خروج على الدين وأسسه الجبلّية، فالله – تعالى – ارتضى لنا من قديم هذا الدين، فلا محل للاختيار بينه وبين غيره: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا**﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾ [الروم: ٣٠]. وهذا أمر راسخ قوى وواضح ثابت يجب أن نربى عليه أطفالنا ونعوّد عليه نساءنا، وننادى به فى كل مكان.

وإذا كان هذا مفهوماً مشهوراً، فيجب ألا نسمح للمهازيل من أصحاب الأقلام الغافلة بأن يتدخلوا فيما لا يعلمون من قضايا، وما لا

يحسنونه من الموضوعات، خاصة أولئك الذين يطرحون قضية الدين وكأنه نافلة يجوز العمل بها، ويجوز تركها!!

وفى هذا السياق نتذكر الشريعة التى أنعم الله علينا بها، وأنزلها تامة كاملة، بعد أن كانت شرائع الأمم السابقة تنزل كمرحلة فى تاريخ البشرية، كيف ننبذ هذه الشريعة؟ أو نضعها موضع الهوان حين نجعلها مجرد اختيار من اختيارات عدة؟

الشريعة منّة ونعمة: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الجاثية: ١٨].

هذه الشريعة ينبغى أن نتلقاها عن أهلها العالمين بها، لا عن المشككين وأصحاب الأهواء. وقد قال محمد بن سيرين - رحمه الله - : «إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم». فالذى يتعرض للتوجيه ينبغى أن يكون أهلا له، فقيها فى الدين، متبعاً للصراط المستقيم، عاملا بما يوجه الناس إليه، حتى تكون أصول الإسلام ومبادئه هى محل انتمائه.

* * *

[٢]

يقظة المسلمين مصلحة للبشرية

المرحلة الحالية من تاريخ البشرية مرحلة صعبة، ليس بالنسبة لنا كمسلمين فقط، ولكن بالنسبة لإنسان هذا العصر عموماً، فالحضارة القائمة أغرقت الناس فى المادية، فصاروا دنيويين ، والآخرة عند الغالبية العظمى قليلة الاعتبار أو منعدمة..

سادت المادية وطغت على الوسائل والأهداف والأمانى والخطط والترتيبات، فرسم إنسان هذا العصر أهدافه، وحدد وسائله، وخطط لمستقبله بصورة مادية بحتة، وكأنه يعيش فى الدنيا أبداً. وفى مثل هؤلاء قال القرآن: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم:٧].

وليس هذا كلاماً نظرياً بغير أثر ملموس، بل هو الذى يرسم السياسات القائمة فى العالم المعاصر، والظلم الذى نزل وينزل بالمسلمين فى هذه الأيام وفى العقود الماضية يأتى أثراً عملياً لها، ومثال ذلك ما فعله الصرب بالمسلمين فى البوسنة والهرسك وكوسوفا، والروس فى الشيشان، وما يفعله الصهاينة فى حق فلسطين.

والبأس الذى نزل بالمسلمين عامٌّ لم يكتف بالأطراف، وإنما أصاب القلب فى أحيان كثيرة، وهذا يحتاج منا إلى اهتمام وتدبر، قبل أن تأخذنا الأيادى الآثمة ونحن غارقون فى الغفلة !!

إن إهتمام كل فرد بقضايا أمته واجب حتمى، وإن لم تمسه هذه القضايا مباشرة، ويجب أن ينعكس أثر هذا الاهتمام على سلوك المسلم، ويعيش هموم غيره من المسلمين، وإن تباعدت الديار، واتسعت المسافات.. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢].

فإذا انتصرنا للحق، انفتح الطريق أمام المسلمين لإنقاذ العالم من أزمته المادية الطاحنة؛ بالعقيدة والفكر والخلق والتخطيط النابع من الاسلام.

التفوق المادى ليس دليل سعادة

إن الجزء المتفوق فى المادة من العالم المعاصر يعيش إنسانه الآن حياة شقية، برغم ترفه المادى؛ فالروح مريضة، والقلب معتل، والحياة مختلة، ويفتقد فيها التوازن داخل الكينونة البشرية. والدين الوحيد الذى جمع الروح والجسد جمعا متناغما هو الإسلام، فهو المنقذ المنتظر للبشرية كلها، وهذا بالطبع يضع المسلمين موضع المسئولية الثقيلة.

أمامنا فرصة لإنقاذ أنفسنا وإنقاذ غيرنا من الغرق الذى يقترب من البشرية شيئاً فشيئاً، بشرط أن نظهر محاسن الإسلام، ونكون لغيرنا قدوة حسنة، حتى يروا حقائق ديننا فى سمو الأخلاق، وتماسك بنيان الأمة، ووضوح خطاها.

إن التهديد يوجه إلى أمتنا فى كينونتها ووجودها من أمم عاتية، نسيت أن الله له الأمر وإليه العاقبة. نعم نحن فتحنا الطريق أمام أعدائنا حتى داسوا على جثثنا، وخاضوا فى دمائنا – وحرب الخليج الأولى والثانية

مثال على ذلك – ولكن التصحيح ضرورى ولازم، وخير من الانسياق حتى نذوب تماماً.

إن ضعفنا يشغل عدونا بنا، بدلا من أن ننشغل نحن بدعوته إلى الإسلام، فهو يرانا متفرقين مختلفين، فأغراه ذلك بنا، حتى استخف بشأننا، والكيان الصهيونى هو المثال القريب، تتبدل الحكومات فيها ويتغير الحزب الحاكم من العمل إلى الليكود، ومن الليكود إلى العمل، لكن الاستخفاف بقيمتنا وقدراتنا سمت عام للجميع، فلا اعتراف بحقوقنا الثابتة، ولا احترام للاتفاقات المبرمة، على الرغم من أنها تعطيهم بعض حقوقنا.

إننا نسمع برامجهم الانتخابية فى إسرائيل، فلا يعطوننا إلا اللاءات المقيتة البغيضة ، لا للقدس، لا للأرض مقابل السلام، لا للدولة الفلسطينية، لا لعودة اللاجئين.. يقولون هذا علانية، مع أنهم قديماً كانوا ﴿ **يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [التوبة: ٨] فاستكثروا علينا فى هذا الزمن حتى أن يرضونا بأفواههم.

التعويل على أعدائنا عقيم ولا فائدة منه، والحل فى يد المسلمين بالرجوع إلى الله، وبتوظيف الطاقات الهائلة التى لدى أمتنا وتوجيهها الوجهة الحسنة.

ونحن نعلم هذا من عدونا جيداً، وطبيعى أن يكون عدونا على هذه الصورة، لكن الأهم هو حالنا، فحل مشكلاتنا بأيدينا، ولا يصلح أن نلتمسه عند غيرنا، والحل يكون بحسن الصلة بخالق هذا الكون الذى

نعبـده، ويدبر أمر كل كبير وصغير فى هذا الوجود، وبهذا نكون أهلاً لعونه وتوفيقه ونصره.

هذا العقل الجديد والتفكير الأصيل ينبغى أن يسودا أبناء الأمة حكاما ومحكومين، والشعوب مستعدة لأن تعمل شيئاً لو أن ولاة الأمر وظفوها توظيفاً سليما، وسايروها فيما تتوق إليه من وحدة أمتهم، وضمان الحرية والشورى واستقلال الإرادة الوطنية، وحماية الرعية من الظلم، والوقوف ضد الطغيان.

نحن نملك من أسباب القوة ما لا يملكه غيرنا، ولكن العبرة بتوظيف ما نملك، فقد يكون لدى بعضنا مال، ولكنه لا يحسن توظيفه، فيفقد المال عنده قيمته الحقيقية، وقد يكون عند بعضنا الآخر قدرة على العمل والإنتاج، ولكنه يملك القليل من المال، فتتكامل الجهود وتتواصل الإمكانات لنقوم بالأعمال على خير صورها.

ومهما يكن حجم ما نملكه، فلن تكون له قيمة إذا كنا لا ندرك أهميته وأثره، ومثلنا فى ذلك كشخص ثرى عنده ثروة كبيرة، ورثها عن أبيه، وهى موضوعة فى صندوق، والوارث جاهل لا يدرى كيف يستفيد من ثروته، بل أكثر من ذلك يشحذ ويسأل الآخرين أن يعطوه، فيمر عليه الناس فمنهم من يضحك هازئاً منه، ومنهم من يستغل غفلته، ليسلبه ما لديه..

نحن نريد يقظة روحية وعقلية كاملة؛ لنعرف حقيقة موقفنا وموقف أعدائنا، ونعرف السبيل إلى علو شأننا، والعقبات الداخلية والخارجية التى تقف فى طريقنا.

وإذا تحرك فى قلب مؤمن الخوف من موازين القوى المادية فى هذا العالم، والتى ليست فى صالحه إطلاقاً - كما يبدو - إذا تحرك هذا الخوف فليقرأ مثلا القسم الإلهى فى سورة الفجر، يقول الله تعالى: ﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ [الفجر: ١-٥] . . إنه قسم بأشياء عظيمة؛ الفجر الذى معه ينفجر الضياء، ويحمل الليل متاعه، ليحل النهار مكانه، وبليالٍ عشر، هى العشر الأواخر من رمضان، أو العشر الأوائل من ذى الحجة - إشارة إلى الصيام والحج - وبالشفع والوتر، ربما كانت الصلاة، أو يوم عرفة (التاسع من ذى الحجة) ويوم النحر (العاشر من ذى الحجة)، أو كل فرد وزوج، وهى الأشياء التى خلقها الله كلها . .

﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ الحجر هو العقل؛ يقول الفخر الرازى فى تفسيره « المعنى أن من كان ذا لُب علم أن ما أقسم الله تعالى به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية، فهو حقيق (جدير) أن يُقسم به لدلالته على خالقه » .

ولكن ، على ماذا أقسم الله تعالى فى هذه الآيات؟

يقول صاحب الظلال - رحمه الله : « أما المقسَم عليه بذلك القسم، فقد طواه السياق، ليفسره ما بعده، فهو موضوع الطغيان والفساد، وأخذ ربك لأهل الطغيان والفساد، فهو حق واقع يقسم عليه بذلك القسم فى تلميح يناسب لمسات السورة الخفيفة على وجه الإجمال » .

هذا يذكّر بما فعله المجرمون من الأمم الباطشة بالمسلمين، وقد اغتر

المجرمون بقوتهم، وأن المجتمع الدولى عاجز عن كفهم ومنعهم من الظلم، وظنت الدول الكبرى أنها تستطيع أن تقود المجتمع الدولى كله وراءها دائماً فى الظلم والبغى، بلا محاسب ولا رقيب . . والقرآن يقصّ فى سورة الفجر، ما يمنع من أن تصاب نفوس المؤمنين باليأس والاستهزاء والضعف، فالطغيان وأهله إلى بوار وزوال:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر:٦-١٤].

الأمور تجرى بمقادير، والله هو الذى يعز ويذل حسب سننه فى الأرض، من اتبعها رفع شأنه ومن خالفها هبط مقداره .

إن العالم المتسلط يعيش الآن على حساب غفلتنا وسذاجتنا، فالحروب التى تقع بين فريق من المسلمين وآخر مثله، كثيراً ما يثيرها الأعداء من الخارج، ثم يطمعون الفريقين بترسانات من السلاح المدمر، يموت به المسلمون، وتخرب ديارهم، ويدفعون أيضاً «فاتورة الحساب» باهظة التكاليف، لتقع فى جيوب من أثار الحرب أولاً !!

فالمهم هو حالنا نحن ، والتزامنا بالسنن الإلهية فى كونه وخلقه . والمؤمنون عندما يعيشون هذه المعانى حقيقة، تحرك عقولهم وضمائرهم، وتدفعهم نحو العلم ما دامت لهم عزائم تميل إلى حب الخير، وترغب فى نشره .

إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ رسالة تهديد للطغاة، وهى فى نفس الوقت رسالة تطمين للمؤمنين، تهز المشاعر والقلوب، لأن الطغاة ظنوا أنهم استغنوا عن الله، وإنما خدعهم الشيطان وأوهمهم بذلك، فأذلوا العباد، وبطشوا بالناس، وأفسدوا فى الأرض - وهذه الأفعال قد تخيف المؤمنين وترهبهم ، فيطمئنهم الله إلى أن مصير المفسدين يقضى هو فيه بنفسه.

هذا المضمون تحمله الآيات الكريمة لنا فى هذا الزمن الصعب، ونحن فى مفترق طرق، فهناك عالم ظالم يجتمع علينا فى الشرق والغرب، وهنا أمة تريد أن تفيق وتجمع كلمتها، وتدافع عن الحق وتحقق السلام فى الأرض.

إننا نريد أن نحرك الشعور بالمسئولية لدى قومنا، خاصة شبابنا ، فينبغى أن يكون لكل واحد فينا قضية كبيرة يعيش لها، حتى لا يظل هَمَلاً وسط الخلق، وليس هنالك أكبر ولا أعظم من قضية الدين يعيش الإنسان لأجلها.

محورية دور الإنسان فى الكون:

إن الغرب والصهيونية يهمهم أن يحطم شبابنا ويبقى بلا هوية، منصرفاً عن قضايا أمته إلى اللعب واللهو والفساد. والغرب لن نبخسه حقه، فإن صنع شيئاً نافعاً استحسناه، وإن أتى بفضل قدرناه، ولكن هذا لا يبرر ظلمه ولا عداوته لنا، ولا تصديره الشرور والمفاسد إلينا لهدم الإنسان عندنا.

وإذا واصلنا المسير مع سورة الفجر، التى تشعر بالأمل، سنجد أنها تلمس بعض أدواء النفس البشرية وأمراضها، فانتقلت السورة من الحديث عن الطغاة والمتجبرين إلى الإنسان. والأمم التى تعدل أو تظلم أساسها الإنسان، فإذا كانت حياة الإنسان فى شعبه وأمته تقوم على العدالة والرحمة والشورى ورعاية الحق، استعصى وجود الحاكم الظالم. والأمة الجائرة لا يتحمل حاكمها المسئولية وحده، بل تحملها هى معه، وقد قال الله فى فرعون وقومه ﴿ **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ** ﴾ [الزخرف: ٥٤]؛ وبالمثل الأمة تتحمل مع حاكمها مسئولية الانهيار والتخلف، وهذه مسئولية لا يمكن أن يتحلل منها أحد، بل يجب أن نستوعبه ونعمل على مقتضاه بما يتغير معه الحال بإذن الله تعالى.

الآيات فى سورة الفجر بعد ذلك تقول: ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** ﴾ [الفجر: ١٥-٢٠].

نحن مطالبون بفهم معانى هذه الآيات الرائعة، خاصة فى هذا الزمن، فى ظل الحضارة المادية التى غلبت فيها حظوظ الدنيا على حظ الآخرة، وأصبح المال والغنى والثراء والجاه والسلطان هى معايير المفاضلة بين الناس.

الناس فى ظلال الحياة المادية يعدون الكرامة من الله بما يعطيهم من المال

والمتاع، والهوان بما يحرمهم منه من المال والمتاع ﴿ فَأَمَّا الإنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ وهذا ربط خاطئ، فإكرام الله للعبد وإهانته إياه لا تقاس بما يعطيه من المال، ولا بما يحرم منه من المتع الدنيوية، وإنما المقياس هو الدين والتقوى، فبقدر إيمان العبد، والتزامه طريق العمل الصالح - يكون إكرامه، وبقدر معاصيه وبعده عن الاستقامة يكون هوانه.

لقد رد الله على الناس مقياسهم المادى الذى نصبوه للمفاضلة بين شخص وآخر، وربما بين أمة وأخرى، وهو مقياس يطبقه العالم «المتقدم» فى هذا الزمان، فالدول إما صناعية متقدمة ثرية، وإما نامية ساعية لتلحق بمصاف الدول الصناعية، وإما أنها «عالم ثالث» متخلف، لن يخرج من تخلفه إلا إذا سعى مثل الدول النامية للحاق بالعالم الثرى.

ويدلل القرآن على خطأ مقياس الناس هذا بقول الله تعالى: ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾.

فلو كان النعيم الدنيوى علامة على إكرام الله لعبده، لكان هذا النعيم دائماً فاتحا لباب الخير أمام صاحبه، فيعمل بما يؤدى به إلى جنة النعيم فى الآخرة، من إكرام اليتيم، والحض على طعام المسكين .. لكن الحاصل أن الإنعام على العبد بالمال كثيراً ما يدفعه إلى الشر، ومنع الحق عن أهله. وهذه الاعمال الخيرة التى اختارتها الآيات إنما هى نماذج من أعمال الخير، وتدل على غيرها، فاليتيم مثلا يقول الله عنه فى موضع آخر: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ

فَلا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩] فالمنهى عنه فى الآية هو قهر اليتيم، فهل الإسلام يكره ويمنع قهر اليتيم فحسب؟ لا، ولكن الآية أتت بأوضح صورة للقهر، وهو قهر الإنسان وهو فى أضعف حالاته (اليتم)، فمنعت من قهره، وبالأولى يحرم كل قهر يقع من إنسان لآخر، أو من أمة لغيرها.

فقوله تعالى: ﴿بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ أثار قضية الحرية بكمال معناها، ورفض الاستبداد والقهر والظلم كله. ﴿وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أثارت هذه الكلمات قضية الخبز، التى قامت دولة؛ بل إمبراطورية كبرى فى القرن العشرين من أجلها، وهى الاتحاد السوفيتى البائد، لكنه سلب من الناس الخبز والحرية. وقاد الغرب الرأسمالى قضية الحرية، وتدخل قليلاً فى اقتصاد الناس (لقمة عيشهم)، لكنه سرق اقتصاد الدول الفقيرة، وحقق الرفاهية بثمن باهظ دفعته شعوب ما يسمى «العالم الثالث».

وفى بقية سورة الفجر أحالت الآيات الخلق كلهم - حكاماً ومحكومين، طغاة وعادلين، فسقة ومخلصين - إلى محكمة العدل الإلهية يوم القيامة.. ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢١-٢٤].

وآيات الآخرة دائماً دعوة لإصلاح العبد قلبه ونفسه فى الدنيا؛ بالتوبة إلى الله والتزام منهجه، حتى لا تأتى الساعة عليه مقصراً، فيندم مثل هذا

الذى يقول: يا ليتنى قدمت لحياتى فلا ينفعه ندمه؛ لأنه جاء بعد فوات الأوان.

سيكتشف الناس فى الآخرة، أن ما آلوا إليه بعد أن أحياهم الله ثانية هو الحياة الحقيقية ؛ لأنها حياة بلا موت ، وسيكتشفون أن ما كانوا فيه في الدنيا – يختلفون عليه، ويتقاتلون من أجله – كل هذا ظلٌ زائل، وعارية رجعت الى الله خالقها.

وفى ختام السورة يقول تعالى: ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)** ﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

* * *

[٣]

المحرمات

(١)

للأشهر الحرم حقوق وأحكام قد يظن البعض أنها خاصة بزمن الرسول ﷺ ولكنها في الحقيقة، أحكام باقية، فقد حُرمت فيها الدماء في الإسلام والجاهلية، حتى إن العربي الجاهلي - وهو معروف بما فيه من سُعار للثأر وضراوة إلى سفك الدماء - كان إذا لقي قاتل أبيه أو أخيه لا يتحرك فيه شئ للثأر والقتل، إكباراً لحرمة الشهر الحرام. ويقول الله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ** ﴾ [البقرة: ٢١٧].

لكن إذا اعتُدى على المؤمنين في هذه الأشهر جاز لهم المنازلة دفاعاً عن الأعراض والدين والحرمات، فالفتنة التي يواجهها المؤمنون عند الاعتداء عليهم أكبر عند الله من القتال في الأشهر الحرم.

وفي بقية الآية المذكورة من سورة البقرة، يقول الله تعالى: ﴿ **وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ** ﴾ .. وفي الحق هذا استثناء من الأصل لا يبطل حرمة الأشهر الحرم.

وقد ذكرت الأشهر الحرم في كتاب الله تعالى، وتحدد عددها في بعض آياته الكريمة، يقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا**

فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

إن حرمة الأشهر الحرم ثابتة فى كتاب الله، وآدابها من مقتضى الدين، فالإسلام وشرائع الله التى جاءت على ألسنة أنبيائه كلها تحرم سفك الدماء، وتدعو الناس إلى السلام، وترغبهم فى أن تقوم علاقاتهم على التحابب والتعاطف والتراحم. نعم، الأصل فى الإسلام، إيثار السلام والسعى إليه والحرص عليه، ولكننا - فى الوقت نفسه - لا نرضى الدنّية فى ديننا، ولا نسكت أمام الخطر يهددنا من عدونا، فعندئذ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] . . عندئذ يتداعى المسلمون لحماية الأعراض والدماء ورد العدوان وحفظ الدين وكيان الأمة.

الأصل فى الأشياء الإباحة:

وبمناسبة الحديث عن الحرمة والأمور المحرمة، فقد استوقفنى فى كتاب الله تعالى حديثه عن المحرمات، وما يقابلها مما تستقيم به حياة البشرية، فوجدت أن التنبيه على المحرمات قد نال اهتماماً كبيراً وبصور متعددة، ذلك أن الاصل فى الأشياء هو الحل والإباحة، وحرم الله بعض الأشياء لما يتعلق بها من المفاسد والمضار المؤكدة، وليس لأحد غير الله سبحانه - لا فقيه ولا حاكم - أن يُحل أو يحرم من عند نفسه.

ومن أمثلة السور القرآنية التى تعرضت لموضوع المحرمات: الأنعام والأعراف والإسراء، يقول الله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا

حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١، ١٥٢].

إن المؤمن لا يكتمل إيمانه ولا تستقيم حياته ، ولا يصلح أمر دينه ودنياه، إلا إذا وقف على ما حرم الله تعالى فالتزم نهيه، كما يقف على ما أوجب الله وفرض فيلتزم أمره.

وهذه قضية كبيرة، يتعلق بها الصلاح الخاص والصلاح العام، ولها صلة بالعقيدة من ناحية أنها تترجم عنها، وهذا يدفعنا إلى دراستها لمعرفتها والفقه بها.

الأصل في الأشياء - كما سبق - هو الإباحة، وقد كان المشركون قبل البعثة يُحرّمون ويحلّون تبعًا لأهوائهم وتراث آبائهم، فقال لهم الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢] وقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩] فرفع الحظر الذي وضعه الناس بغير حق، لأنهم استحلوا ما ليس لهم، فشرعوا من عند أنفسهم ما يرضي أهواءهم، فأحلوا وحرموا.

وإذا رجعنا إلى آيتى سورة الأنعام سنجد تعبيراً عن المحرم بلفظ نهى صريح «لا تقتلوا» «لاتقربوا»، أو بذكر الأصل ليعلم أن ما يقابله حرام، مثل **«وبالوالدين إحسانا»**، فالأصل هو الإحسان إليهما، وهو يتضمن حرمة عقوقهما، ولكن لا يكفى أن تترك عقوقهما، ولا يصلح أن تكون حيادياً فى تعاملك معهما، بل يجب أن تلتزم الإحسان. وكذلك «وأوفوا الكيل» يتضمن حرمة الغش فى المكاييل والموازين واحتياطاً تجاوز، وزدْ - ولو قليلاً - على الكيل أو الوزن المحدد.

وبناء على هذا سنجد الآية الأولى منهما قد تضمنت خمس محرمات، ناطها الله تعالى بالعقل فقال: «ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون»، وأما الآية الثانية فقد ناطها بالتقوى، وقال: «لعلكم تتقون»، وضمنها أصول الالتزام بالطريق الصحيح، وتجنب الطريق المعوجّ.

وأول المحرمات وأكبرها على الإطلاق هو الشرك بالله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [لقمان:١٣]، وهو القضية الأولى، فدعانا الإسلام إلى التوحيد الخالص، وألا نجعل له نداً ولا شريكاً ولا ولداً، بل أمرنا ألا نبتغى بعملنا إلا إياه؛ لأن العمل لغير الله مردود على عامله، وإن كان يقول: لا إله إلا الله. فهذا التحريم ينبغى أن يهز القلب من اعماقه، ويحرك الضمير ليعترف للخالق بفضله ونعمه وينتبه إلى اللقاء اللازم بهذا الإله العظيم الواحد.

بر الوالدين:

جاء بعد هذا أمر قد هان على كثير من الناس، وهو عظيم عند الله تعالى: **«وبالوالدين إحسانا»**.. فقد وضع الإسلام الوالدين فى منزلة عليا

يحسدنا عليها المتحضرون ومدّعو التمدين في كل مكان، فليس هناك دين ولا نظام اجتماعي يعرف - كالإسلام - ويركز مثله على الصلة بالوالدين، أو إن صح : الصلة بالجذور، وحسن الارتباط بين أعضاء الأسرة الواحدة.

لقد بلغت مكانة الوالدين أن أعلى الله منزلتهما، حتى ثنَّى بالوصية بهما، بعد أن نهى عن الشرك بالله وأمر بالتوحيد : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ [الإسراء:٢٣]. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ : يقول: «**الوالد أوسط أبواب الجنة**»[١]، فما بالنا بالأم؟ والمسلم إن أطاع والديه ولم يعقهما، وأحسن إليهما، وتجنب الإساءة إليهما، أدخلاه الجنة، لعلو قدرهما عند الله تعالى.

والعلاقة بالوالدين هي العلاقة الأولى والأساس بين أفراد المجتمع، فإذا أحاطها المسلمون بالرعاية والعناية، كانت قوة للفرد والجماعة. وقد أمرنا أن نقيم العدل في الناس، ونرعى الحرمات، ولا يصلح هذا إلا بأن نعدل - نحن أولاً - في علاقتنا بوالدينا، نرعى حرمتهما. كذلك نحن أصحاب رسالة وحَملة دعوة وأمانة ورثناها عن رسول الله ﷺ ولا نصلح لشئ من ذلك إلا مع سلامة الصلة بجذورنا وآبائنا وأمهاتنا.

وكما أمر الله الأبناء ببر الوالدين، ونهاهم عن عقوقهما، أمر الوالدين بصيانة حياة أولادهما، وعدم الاندفاع تحت ضغط الفقر، أو بسبب الخوف من فقر متوقع - إلى إزهاق أرواحهم، وفي الإسراء: ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ**

(١) رواه ابن ماجه والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسـراء: ٣١] يقـول ابن كـثيـر - رحـمـه الله: «لما أوصى تعـالى بالوالدين والأجـداد، عطف على ذلك الإحسـان إلى الأبناء والأحـفـاد، فـقـال تعـالى: (**ولا تقـتلوا أولادكم من إملاق**)، وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم، كما سولت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يئدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار».

ونحن اليوم نستغرب هذا السلوك: كيف يدفن الإنسان ابنته وفلذة كبده؟ وكيف تطاوعه نفسه وقلبه على قتل ولده؟! لقد كان القوم فى ضلال وظلام، ولحق بفساد عقائدهم - وهى الأساس - فساد أعمالهم، فكانوا يخافون مما يخبئه الغيب، ويخشون مع مجئ الذرية أن يصابوا بالعار أو الفقر، فيقتل ابنته أو ابنه، ويقول: الله أحق به، ويرى أن لحاق هذه الضحية الضعيفة بالله أولى من بقائها معه هو فى دنيا الناس!! فنهى الله تعالى عن هذا السفه، بل هذا الإجرام، وطمأن الناس على أرزاقهم، وأن رزق الكبار والصغار يكفله ويضمنه الله تعالى.

وهذه الصورة البشعة من الإجرام فى حق الذرية، لا ينبغى أن تنسينا صوراً أخرى لقتلهم ووأدهم يرتكبها كثير منا فى هذا الزمن، وذلك حين لا نرعى حقهم فى التربية والتنشئة السليمة، وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم، حين لا نزرع فيهم التقوى وحب الفضائل وحب العمل بها، ولا نكون قدوة صالحة أمامهم. نريد أن نخرج جيلاً مومناً، عنده حضور قلب وعقل، يعرف حقائق دينه وتاريخه الإسلامى، وتحيا فى نفسه أمثلة القدوة من الصحابة الأجلاء الذين بذلوا المال والدماء فى سبيل دينهم، وأحيوا العدل بين الناس.

نريد أن ننشئ جيلاً جديداً قادراً على رد المساءات ودفع المكاره، وتغيير تاريخ الأمة، والسير بها فى الطريق الذى يعيد اليها عزتها ومكانتها.

ونعود إلى الآية فنجد أن النهى عن قتل الأولاد يتعلق بقضية الرزق، وهى القضية التى تُتعب الناس، وتشغلهم أكثر من اللازم، فهم يلهثون وراء المال لهثا، حتى نسوا أشياء كثيرة، وفرطوا فى واجبات عديدة من العبادات والمعاملات، وصارت المادة حاكمة، والمال مسيطراً...

وهذه طريقة عيش وفلسفة حياة انتقلت عدواها إلينا من الغرب، وصرنا ننتقى منه سيئاته لنأخذ بها، دون حسناته ومميزاته.

فالله نبهنا إلى أن قضية الرزق هو وحده المتصرف فيها، حتى نقبل على السعى ابتغاء فضله فى حكمة واطمئنان، كى لا تضطرب موازين حياتنا.

ثم يقول الله فى آية سورة الأنعام: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾؛ والفواحش هى القبائح التى ينكرها الشرع، وينفر منها العقل الصحيح، وتشمل كل المنكرات. والنهى هنا عن الفحشاء: «ما ظهر منها وما بطن»؛ أى ما ظهر للخلق منها وما خفى عنهم.

والفاحشة الباطنة تفسد القلب، والقلب هو زمام الإنسان، والمضغة التى ينعقد عليها الصلاح والفساد: «**ألا وإن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب**» [1].

(١) رواه البخارى ومسلم.

وإذا صلحت مضغ الأفراد؛ أى قلوبهم، صلح حال الأمة وأمر الملة، وإذا فسدت كان العكس، فالحرص على سلامة الصدور والقلوب، وبُرئها من العلل والأسقام، ومن كل ما يفسد علينا أمر الدين والدنيا - كل هذا نحن مطالبون به، وسعينا إلى الطاعة والعبادة هدفه تحقيق السلامة لقلوبنا.

ثم تقول الآية الكريمة من سورة الأنعام: ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ** ﴾، دم المسلم أشد حرمة عند الله تعالى من الكعبة، وقتل نفس واحدة بغير حق كقتل الناس جميعاً؛ لأن من يتعدى على نفس بغير حق لا يكون هناك أحد فى أمان من غدره ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ [المائدة:٣٢]، الذى يستحل دم برئ بغير حق، تكون فيه ضراوة تفتح شهيته للمزيد من الإفساد فى الأرض، ولذلك عظمت حرمة الدم، والنبى ﷺ يقول: « **لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى، والقاتل للنفس، والمبدل لدينه المفارق للجماعة** »[١].

وفى الآية الثانية من آيتى سورة الأنعام يقول تعالى: ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ** ﴾. اليتيم تحتاج نفسه وماله إلى عناية ورعاية من المجتمع المسلم ممثلاً فى وكيل اليتيم، فيقوم على تربيته

---

(١) رواه الترمذى، وقال: حسن صحيح.

وتنشئته ورعاية ماله. وقوله «ولا تقربوا» أبلغ فى المنع من قول «ولا تأخذوا» «ولا تسرقوا» وغيرهما، حتى لا نقرب مال اليتيم لاقتناص ماله ونهبه بأى حيلة أو طريقة.

العدل والوفاء فى الإسلام لكل البشر:

ثم خرج من الحديث عن مال اليتيم إلى تعميم حرمة أخذ أموال الناس بغير الطرق المستقيمة المشروعة عند الكيل أو الوزن لهم ﴿ **وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾، وقد كان الغش فى المكاييل والموازين مصيبة قوم أهلكهم الله بسببها، مع خطايا أخرى لهم، وهم قوم نبى الله شعيب عليه السلام، وبدون إيفاء المكاييل والموازين تختل أحوال الناس وتضطرب معايشهم.

وليس الوفاء فى الاسلام مقصوراً على الكيل والميزان، بل هو خلق عام لكل الحقوق والمجالات، حتى فى السياسة والعلاقات الدولية، فلا يكال فيها بمكيالين، ولا يوزن بميزانين، كما نجد السياسة الأمريكية التى تستخدم دائماً حق الفيتو لمنع أى إدانة — مجرد إدانة— للأعمال الوحشية الكثيرة التى يرتكبها الكيان الصهيونى المغتصب ضد إخوتنا فى فلسطين ولبنان وغيرهما.. ثم يقول تعالى: ﴿ **وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا** ﴾.

فالعدل فى الإسلام مطلق، لا يعرف محاباة ولا مجاملة، بل ينطبق علىّ وعلى خصمى وعلى قرابتى ووالدىّ، وفى الحرب والسلم، وفى الأمن

والخوف.. وصدق النبيﷺ الذى يقول : «**لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[1].

ثم يقول سبحانه : ﴿**وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا**﴾، وعهد الله تعالى هو تكاليفه الشرعية، التى تضمن إيمان المؤمن بربه أن يرعاها. يقول ابن جرير الطبرى فى تفسير الآية : «وبوصية الله التى أوصاكم بها فأوفوا ، وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله».

وأما قوله تعالى : ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ...**﴾، فقد روى الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : خط لنا رسول اللهﷺ يوما خطا، ثم قال : «**هذا سبيل الله**»، ثم خط خطوطا عن يمينه وخطوطا عن يساره، ثم قال : «**هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها**»، ثم قرأ هذه الآية. وأخرجه ابن ماجه فى سننه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : كنا عند النبى ﷺ فخط خطا، وخط خطين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده فى الخط الأوسط فقال : «هذا سبيل الله – ثم تلا هذه الآية : ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾.

وبعد ، فإن هذه الأوامر وتلك النواهى القرآنية، إنما نتلوها ونتدارسها ونبينها ليراجع كل منا نفسه – قبل أن يلقى ربه – فيما قصر وما فرط، وحتى يصحح ما أخطأ فيه، ويكمل ما نقص ويقوّم ما اعوجّ.

* * *

---

(١) رواه الترمذى، وقال : حسن صحيح.

[٤]

المحرمات

(٢)

اقتضت حكمة الله تعالى أن يبين لنا أصول المحرمات ويحصرها، ليكون ما دونها حلالاً مباحاً للخلق أن يفعلوه، وكلما حرم الشرع الإسلامى شيئاً أباح ضده ومقابله، وربما أوجبه، فحين حرم الظلم ومنعه، أوجب العدل وفرضه، ففى الحديث القدسى «**يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا**»(١)، وفى الكتاب العزيز يقول تعالى: ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ**﴾ [ابراهيم: ٤٢، ٤٣]. وفى مقابل ذلك يقول تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾ [النحل: ٩٠].

وعندما ينهى سبحانه عن عقوق الوالدين يوجب برهما والإحسان إليهما، ففى الحديث الصحيح: قال رسول الله ﷺ: «**أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وقتل النفس، عقوق الوالدين، وشهادة الزور**»(٢)، وأوجب الله على الذرية برهما فى آيات كثيرة من كتابه، مثل سبحانه: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ [الإسراء: ٢٣].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخارى.

حتى حينما حرم الله الشرك - والإلحاد بالأولى - أوجب على عبادة التوحيد وإفراده سبحانه بالألوهية والربوبية، فالشرك أعظم المحرمات التى يضيع بها الإيمان، ويختل بها ميزان حياة الأفراد والأمم، والتوحيد الحقيقى الخالص هو أساس الصلاح والإصلاح.

وهذه المحرمات هى موضع اختبار للبشر، يتقى الإنسان بتجنبها الضرر المادى والمعنوى، ويلزم عن الوقوع فيها حتماً منكرات وقبائح تضر بدين الإنسان وعقله ومسالك عيشه.

وعلى مستوى الأمم يضر شيوع الوقوع فى المحرمات بها إضراراً بالغاً، فتنتكس إن كانت قد علت، وتذل إن كانت عزيزة، ويذل شأنها، ويضيع بأسها، وتصير فريسة فى فم أعدائها. و«إن كانت الحضارات تتحلل على مَهل» - كما يقول وِل ديورانت - فإن اقتراف المحرمات هو السوس الذى ينخر فى بدن الحضارات.

وحين نجد أن التحريم فى شريعة الإسلام الخاتمة قد انصب على أشياء محصورة محددة، نعلم أن هذا هو الحكم الذى جاءت به جميع الشرائع السماوية السابقة، والقرآن يقول فى سورة الأنعام: ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٥١].

آثار الذنوب والمعاصى:

والمحرمات آثام لا تتصل بما ترتكبه الجوارح الظاهرة فقط، بل يتعدى

ذلك إلى القلب، فربما أثم أو أذنب، وفى مثل ذلك يقول الله تعالى: ﴿ **وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة:٢٨٣]، فالقلوب يلحقها من فساد الفعل مثل الذى يلحق بالأبدان والأعضاء من الفواحش والذنوب، بل علل القلوب أشد خطراً من علل الجوارح، والقلب يتلقى كل الضربات الناتجة عن آثام الجوارح، فإتيان المعاصى والذنوب يرتد أثره على القلوب فيفسدها، وقد حدث هذا مع الفجار: ﴿ **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [المطففين:١٤]؛ أى أن هناك علاقة تبادلية بين قلب الإنسان وما تصنعه جوارحه، إن حسنت أعمال الجوارح استقام القلب واستنار، وإن ساءت امتلأ القلب بالحسد والبغضاء والغل لمن يشعر أنه ينافسه على الدنيا.

ولا ينافى هذا تأثير القلب فى الجوارح كما قال ﷺ : «**ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب**».

وما يحرمه الله علينا يجب أن نأخذه مأخذاً عقائدياً عملياً، فنلتزم ناحية اجتنابه؛ لأن الذى حرمه علينا هو الله الذى نفرده بالعبادة والتوجه إليه وحده.

والقرآن حين يتعرض للمحرمات ربما كرر النهى عن الإثم والمعصية الواحدة بعدة طرق، تأكيداً وتحذيراً للناس منها، فجريمة الزنى مثلاً يأتى تحريمها أحياناً بصورة نهى مباشر، كما فى قوله تعالى ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا** ﴾ [الإسراء:٣٢]، ومرة فى سياق الحديث عن

عباد الرحمن ينفى أن يكون صفة لهؤلاء المحبوبين من الله فيقول تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وقد يتكرر الحديث عن تحريم الشئ الواحد بنفس الألفاظ، تنبيهاً إلى أهمية البعد والتنزه عنه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ولا ينفى هذا أن تحريم أكل مال اليتيم سلك القرآن إلى تأكيده سبلا أخرى كثيرة، مثلما نجد فى سورة النساء، فيقول تعالى: ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٢] وحوبا؛ أى إثماً وذنباً. وأشد من ذلك قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠].

وهناك فى كتاب الله تعالى آيات أمهات فى موضوع التحريم، مثل هذه الآية الكريمة التى حددت الأمور العامة والكلية التى يدور حولها التحريم، وهى قوله سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

* * *

أصناف المحرمات

فهنا صُنفت المحرمات خمسة أصناف كما يلي:

الأول: الفواحش، وهي ما تناهى في القبح من الاعمال، وصدم الطبع السليم وآذاه.

الثاني: الإثم، وهو الذنوب والمعاصي التي قد لا تبدو مستقبحة في ظاهرها، لكن الناظر الى أثرها على القلوب والأبدان والمجتمعات يعلم قبحها، مثل القمار - وهو من الكبائر - إضافة الى الصغائر التي يقع فيها الإنسان.

الثالث: والبغي بغير الحق، وهو أن يتعدى على شئ لغيره، من نفس أو مال أو عِرض.

الرابع: وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، فالشرك وما التبس به من أعمال الجاهلية من رءوس المحرمات وأصولها.

الخامس: وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون، وذلك حين ينسب الإنسان إلى ربه شيئاً لم يرد في كتاب ولا سنة، جهلا منه وجراءة على الله تعالى. وتتصل بهذا النوع الخامس آية أخرى في كتاب الله تعالى، وهي أيضاً من الآيات الأمهات في موضوع التحريم، وهي قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ**﴾ [النحل:١١٦] فبعض

الناس يقولون في الدين برأيهم الذى لا يسنده علم. نعم، هناك اجتهاد بالرأى، لكنه فيما ليس فيه نص شرعى، والذين يتكلمون عن حرية الرأى وإباحة كل شئ، لا بد أن يعرفوا أن هذا تحلل من التشريع، وأن هناك حدوداً لكل شئ ،فالأمور فى الإسلام ليست متروكة للأهواء، بل وضع الله تعالى لها حدوداً.

وقد كان سلف هذه الأمة إذا اجتهدوا أكدوا أن ذلك هو مبلغ علمهم، فإن كان توفيق فهو من الله، وإن كان خطأ فمن الشيطان ومن أنفسهم.

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يقل عنه أحد الصحابة عند موته: «ذهب تسعة أعشار العلم» من فراغ، فذات مرة دوّن له صحابى حكما فى قضية أعجبه، فكتب بعده: «هذا أمر الله وأمر عمر»، فنهره عمر وقال: بئس ما قلت، بل «هذا رأى عمر»، وهو اجتهاد بشر يخطئ ويصيب، أما قول الله تعالى فهو دين الله تعالى الملزم وشرعه المكتوب، ففرق بين ما هو فقه وما هو شرع الله ورسوله.

ومن الآيات الأمهات فى التحريم أيضاً، قوله تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ** ﴾ [يونس: ٥٩]. فالتحليل والتحريم من حق الله وحده، فليس لمفتٍ ولا لعالم ولا غيرها أن يحرّم أو يُحل من عند نفسه، ومن تجرأ على ذلك فقد افترى على الله.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النحل: ٩٠]،

فتتجلى المقابلة بين ما يامر الله به وبين ما ينهى عنه، فالعدل والإحسان هما عنوان ما يأمر به، والفحشاء والمنكر والبغى هى سمات ما ينهى عنه.

ويمكن النظر إلى التكاليف الشرعية عموماً على أنها عهد بين العبد المؤمن وربه، فعقد الإيمان الذى عقده المؤمن مع مولاه يتضمن تعهداً باتباع شريعة الله - عز وجل - باجتناب النواهى وفعل الأوامر، والله يقول فى كتابه: ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وإذا كان الله تعالى قد قال فى أول سورة المائدة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١]، معبراً عن نوع من الوفاء، وهو الوفاء بما نتعاقد عليه - فإن قوله سبحانه: ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ عام وشامل ليفى المسلم فى كل شئ.

ونلاحظ أنه قال: **وبعهد الله أوفوا**، ولم يقل: وأوفوا بعهد الله، اهتماماً بالمتقدم وتعظيماً له، فهو عهد منسوب إلى الله،ينبغى أن يعرف المسلم قدره جيداً، حتى إذا كلف بالوفاء به وفَّى . وعهد الله عام يشمل كل ما شرع لخلقه، وكل ما التزمه الناس مما أمر الله به عباده، والمعصية عدم وفاء بعهد الله، والتقصير وفاء ناقص لا يصلح، والتنطع والتشديد وفاء على غير سنة النبى ﷺ ولا يصلح أيضاً.

والسياق القرآنى الذى ورد فيه الحديث عن الوفاء بعهد الله - كما سبق - هو سياق الوصية من الله تعالى، فينهى الله عن الشرك وقتل النفس وإتيان الفواحش وغير ذلك، ثم يقول: ﴿ **ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون** ﴾ [الأنعام: ١٥٢] فربط ذلك بالعقل؛ لأنها محرمات تحتاج إلى نظر وفهم وإدراك للعواقب التى تنتج عنها.

ثم ينهى الله تعالى عن أكل مال اليتيم ظلماً، ويأمر بإيفاء الكيل والميزان، والعدل فى الشهادة والقول، ويذيّل ذلك بقوله سبحانه: ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾؛ أى تتذكرون رقابة الله عليكم، وأنكم مسئولون يوم القيامة عما تعملون، وبهذا تحصل المراجعة، ويحصل التسديد بعون الله.

معالم الصراط المستقيم:

ثم يأتى فى أعقاب ذلك وصية واحدة تنفرد وحدها فى آية كريمة، فيقول سبحانه: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، و الصراط هنا منسوب إلى الله تعالى، وهو دينه وشرعه، والهداية إلى هذا الصراط هى دعوة كل مؤمن فى صلاته حين يقول داعياً ربه: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦].

وقد يملك الدعاة أن يدلوك على الصراط المستقيم ببيان معالمه وترغيبك فيه، ولكن الله وحده هو الذى يهديك، ويريح قلبك ونفسك على عتبات هذا الصراط المستقيم. وكل إنسان لا تكفيه هداية الدلالة، كما تهدى واحداً إلى الطريق؛ أى تدله عليه؛ إذ يحتاج إلى نوع خاص من الهداية، وهى الرعاية والتوفيق والأخذ بيده إلى الصراط المستقيم. فالصراط المستقيم هو الذى لا يضل سالكه، ولا يفلح تاركه.

وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾؛ أى تتجنبون الضرر الذى يحيق بكم أفراداً وجماعات إذا أنتم حدتم عن هذا الصراط.

والشيطان والهوى وأحوال الدنيا احمال ثقيلة، تحاول أن تحيد بالإنسان عن الصراط المستقيم، ليفسد دينه ودنياه، ويحيق به عذاب الله ونكاله، ولذلك تحذرنا الآية من اتباع السبل الأخرى التى تقف عليها الشياطين كما جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه خطّ خطًّا بيده، ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيما**»، وخط عن يمينه وشماله، ثم قال: «**هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾(١).

وعن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال: «**ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعن جنبى الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً، ولا تفرقوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله، والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم**»(٢).

فإذا استقمنا على أمر الله تعالى، واتبعنا الصراط المستقيم صلح به شأننا. وقد ضيّع الأمة وسط أقدام الأمم فى هذا العصر أنها لم تهتد حق الهداية بما أمر الله به فى مثل هذه الآية، أفراداً وجماعات، حكاماً ومحكومين.

---

(١) رواه أحمد والنسائى والحاكم.

(٢) رواه أحمد – كتاب مسند الشاميين.

نحن فى حاجة إلى مثل هذا الحديث، خاصة فى هذا الزمن الصعب الذى انخرمت فيه سفينة الالتزام بالشريعة، وعصفت فيه ريح الجهالة، وتصاعدت أمواج الغواية، وضل الكثير عن حقائق الإسلام.

نحن نعانى من سفاهة العقول، والغيبة عن حقيقة الدين، ولا بد من اتقاء أسباب الوهن والضعف، بالاستمساك بديننا ووحدتنا، وإحلال الثقة بيننا محل البأس والتقاتل وتحالف بعضنا ضد بعض، فإذا فعلنا ذلك فتح الله علينا ونصرنا، وكتب لنا الغلبة على أعدائنا، والعاقبة للمتقين.

* * *

[٥]

الأمانة والطاعة

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء : ٥٩] .

الأمانة التى ذكرها القرآن فى سياقات مختلفة فريضة عامة على كل أحد وفى كل شئ، فالأمانة مكتوبة على افراد الأمة جميعاً حكاماً ومحكومين ، فالحاكم مؤتمن وفى عنقه أمانة ثقيلة، والعالم فى عنقه أمانة ان يبين للناس أمر الدين، ولا يكتم منه شيئاً، والأب والأم فى الأسرة عليهما أمانة تربية النشء تربية صالحة فى مجتمع استعفاف وإحصان، لا يعرف المسافحة ولا اتخاذ الأخدان . .

الأمانة أساس العمران :

إن العبد المسلم يؤدى الأمانة، كل أمانة إلى أهلها، فأمانة العبد مع ربه أن يأتى ما أمره وينتهى عما نهاه، وأمانته مع الناس أن يصون حقوقهم ولا يتعدى على شئ منها . وكل المعاصى – سواء تعلقت بحقوق الله أو حقوق الخلق – تضييع للأمانة وخيانة لله ولرسوله؛ لأن الله – تبارك وتعالى – يخاطبنا فى محكم التنزيل بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٧] .

والأمانة فى المعاملات بين البشر هى عماد العمران وسر تقدمه، وأساس المجتمع الصالح والحياة الكريمة، فإذا ضُيعت الأمانة اختلت الدنيا، وساءت الأوضاع، وشاعت الفوضى والفساد.

وإذا كان الله تعالى قد أمر الأمة عامة، والحكام خاصة بأداء الأمانات إلى أهلها والعدل بين الناس: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾ [النساء:٥٨] - فقد خاطب فى الآية التالية مباشرة المكلفين عامة والرعية خاصة بقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾، فالأمر بطاعة الله يأتى فى المقدمة؛ لأن الأمة إذا وعت دينها وعملت به صادقة، تكون متماسكة قوية لا يقدر عليها عدو، ولا تهدم من داخلها، بل تفرز خيراً، والأمة التى تحسن فهم دينها وتعمل به تكون كالأرض الطيبة: ﴿ **وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا..** ﴾ [الأعراف: ٥٨] وأى مجتمع لا يعمل بالدين، ويضيّع الأمانات مجتمع خبيث ﴿ **لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا** ﴾ ثم يأتى الأمر بطاعة رسول الله ﷺ تالياً، وهى طاعة مطلقة لا يصح إسلام المسلم بدونها، لا يجوز فيها الانتقاء، بمعنى أن أطيع بعض ما فيها وأخالف فى الباقى.

وأما طاعة أولى الأمر - سواء أكان المقصود بهم الحكام أو العلماء أو هما معا - فهى طاعة مقيدة بالتزام الشرع الشريف، فما دام ولى الأمر يأمر بالخير أو ينهى عن منكر فإن طاعته تكون واجبة، وإذا أمر بمعصية فـ « **لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق** »[1]، وإذا حدث خلاف فى أمر ما ﴿ **فَإِن**

---

(١) رواه أحمد والحاكم وابو داود والنسائى.

تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ ، أى نستفتى الكتاب والسنة، ونأخذ بما ورد فيهما، حسما للخلاف وجمعا للكلمة.

وكل فرد فى نفسه مسئول عن نفسه، ماذا يفعل الحاكم إذا كان آحاد الأمة لا يحسنون العمل بدينهم؟ سوف يعز عليه الإصلاح. ولذلك فإن أكبر سند للحكام فى مواقف الشدة هو مجتمع يفهم ويعى دينه ويعتز ويعمل به، وأمة راشدة يقوى بها ظهر الحاكم. وهذا معنى القول المشهور: «كما تكونون يولّى عليكم» (ومن أقوال الحسن البصرى على الراجح)، أى لو أُطلقت الأيدى فى المال العام ولم ترع الحقوق والأمانات، فسدت الرأس مع الأطراف والأعضاء. ونجد فى المقابل، المثل الصينى يقول: «إنما تفسد السمكة أول ما تفسد من رأسها»، وهو يشبه، نوعا ما، قولنا :«الناس على دين ملوكهم» (من أقوال عمر بن الخطاب على الراجح). وهذا كله يعنى أن الأمة جسد واحد يتواصل الخير فيه بين الرأس والأطراف ، كما يُتبادل المرض والانحراف بينهما. والمجتمع القوى الذى يعرف حقه، ويؤدى واجبه، ويعتز بدينه هو قاعدة أساسية للقوة، ومنطلق ضرورى للتحضر.

وفى الآية التى افتتحت بها هذه السطور أمر مهم تُنبه إليه الأمة؛ حتى تُسد الذرائع على الفُرقة والخلاف والتنازع الذى يقضى على وحدتها ويذهب بريحها، وهو الرجوع إلى حكم الله ورسوله عند الاختلاف: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾. إن عدم استيعاب المسلمين لهذا المبدأ القرآنى جعل حياتهم مملوءة بالنزاعات المفضية إلى الهلاك، على مستوى الأفراد، كما

نعاين فى حياتنا كل لحظة، وعلى مستوى الدول، كما شاهدنا فى الحربين الخليجيتين الأولى والثانية، والخلاف بين تركيا وسوريا الذى كاد يثير الحرب بينهما. والأمة إذ انقسمت على نفسها هكذا، وتقاتلت فيما بينها اختُرقت، ووصل الطامع إلى مطمعه منها.

لم يعِ المسلمون فى هذا الزمن قول النبى ﷺ «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[1]، وتقاتُل الأمة هذا حذرنا منه رسول الله ﷺ فى حجة الوداع حين قال: «**لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**»[2].

ويحملنا القرآن أمانة فض التنازع برد الأمر إلى الكتاب والسنة « **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** »؛ أى الكتاب والسنة وما فيهما من أحكام ومبادئ وقواعد، إذا رجعنا إليها واهتدينا بها ينحسم الخلاف وتذهب الفتنة وتتحقق الوحدة..

﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾، وجعل ذلك شرط الإيمان ﴿ **إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾؛ أى أننا لو لم نفعل ذلك نكون قد انسلخنا عن الإيمان بالله واليوم الآخر.. ﴿ **ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾؛ أى خير فى نفسه وأحسن عاقبة لكم.

فالله نبهنا فى محكم الكتاب كيف نصنع إذا حدث التنازع، فما لنا نحن نخوض فى أمور حساسة تنقسم فيها الأمة، ويضيع فيها وجه الحقيقة

---

(١) رواه أحمد والنسائى والترمذى بسند صحيح.

(٢) رواه البخارى.

وضررها أكبر من نفعها؟ ولذلك جاءت الآية: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء:٨٣] فالله نهانا فى الآية عن إذاعة أو نشر مسائل الأمن والخوف؛ لما يحدثه ذلك من فتنة.

والحمد لله عندما نتحرك نحن ننجح، كما تحركت مصر لتقريب الشُقة بين تركيا وسوريا، تركيا دولة إسلامية وإن كان حكامها وجيشها فشت فيهما العلمانية، فهذا شئ عارض سيزول يوماً ما - إن شاء الله -، فهى محسوبة على الإسلام رضينا أم كرهنا.

تركيا وسوريا كانتا على وشك الحرب، لكن بهذا السعى والتحرك وقانا الله شروراً كثيرة. والله سبحانه وتعالى قدم لنا فى هذا المعنى آية أوجب الله فيها على الأمة أن تسعى فى إزالة الشقاق والخلاف إذا نبت بين المؤمنين، ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات:٩] أى أصرت ولم ترد الصلح فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله. لا نريد من الناتو أن يتدخل، ينبغى أن تكون عندنا محكمة عدل دولية إسلامية ولو أصر الباغى الظالم على إهدار دم الأمة وتفتيت وحدتها، يقاتَل بنص الآية: ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ ﴾ أى رشدت وعادت الى ما ينبغى أن تعود إليه من قبول السلم ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾، وجاء

بعده ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠]، أخوان نسعى ونقرب بين وجهات نظرهما إن اختلفا، فما بالك إذا كانوا شعبين وأكثر؟ هم أولى بالطبع..

وإن تحدث الناس عن مكائد تدبر لنا، فقد أورد لنا القرآن الشرطين اللذين إذا عملنا بهما لن تضرنا المكائد والخطط التي يدبرها لنا الأعداء: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٠] طمأننا وأمننا، نصبر على مشقة مواجهة العدو، وعلى مشقة التكاليف التي أمرنا الله بها، وتحتاج إلى صبر وجلد، ولا نستعجل، ونتقي الله بالاستقامة على دينه..

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ هذا كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكل هذا الجيش المخيف الرهيب المدجج بالترسانات النووية، وبالتهديدات وبالتحالفات ضدنا، كل هذا حكم الله لنا فيه حكماً مبرماً أنه: ﴿ لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ محيط إحاطة علم، ومحيط إحاطة قدرة ومنع، ولو أرادوا السوء سيحبطه: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١١١]، فالله أمننا ونحن إذا عملنا بحقائق ديننا، والتزمنا في أنفسنا، وعمل كل منا ما في وسعه، واستقمنا على أمر الله حكاماً ومحكومين، واجتمعت كلمة الأمة تحت راية دينها، سَلمت واندحر عدوها.

[٦]

محكمة عدل إسلامية

المقصود من تلاوة كتاب الله تعالى هو التدرب والتذكر، ومعرفة أحكام الدين وما أوصانا به الشرع الحكيم، ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]، وقد يحتاج التدبر فى آيات القرآن إلى وقفات طويلة ومتكررة أمام الآية الواحدة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨].

فقد أمر الله الأمة عامة وولاة الأمر خاصة بأمرين عظيمين:

أولهما: أداء الأمانات وردها إلى أصحابها، بالمعنى الواسع للأمانة، حيث تشمل مجالات الاقتصاد والسياسة والإعلام والتربية.. إلخ، فالأمانات كلها تؤدَّى، يؤديها الحاكم كما يؤديها كل مسلم فيما استرعاه الله. ائتمن الله عليها عباده وعاهدهم عليها، وذلك قوله تعالى: ﴿ .. وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ [الأحزاب: ١٥]، ﴿ ..وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وثانيهما: الوارد فى الآية الكريمة؛ وهو العدل فى الحكم، والذى به وبأداء الأمانات إلى أهلها تقوم الأمة الصالحة، الفائزة فى أمور دنياها وأخراها.

ونلاحظ أن الآية قدمت الأمر بأداء الأمانات على العدل فى الحكم؛ لأن الناس إذا أدوا الأمانات إلى أهلها على كل المستويات ما احتاجوا إلى محاكم تفصل فى الخصومات بينهم، ولكن إذا ساءت الأحوال، وفسد أهل الزمان، فلا أمانات تؤدى، ولا عدل يقام ، فإنْ سقط ميزان العدل هلك الناس – والعياذ بالله . ﴿**إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ**﴾؛ أى هذا الذى تقدم من أمر الأمانات والعدل فى الحكم هو نعم ما يعظ الله به خلقه، فيه صلاح أمرهم فى الدنيا والآخرة.

والمسلمون، حين يطالبون بأداء الأمانات فى أقوالهم وأفعالهم، ينبغى أن يستشعروا رقابة الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً**﴾، فهو سبحانه يسمع ويرى، ولا تخفى عليه خافية من قول أو فعل، ولو كان فى نية مضمرة فى صدر صاحبها، لقوله تعالى: ﴿**وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**﴾ [طه: ٧]، ومعنى هذا أن أداء الأمانات والحكم بالعدل ليسا بالأمور السهلة، فقد يدخل فيها الهوى، وتضيع الأمانات ويسقط العدل، فنبهتنا الآية إلى أن الله رقيب علينا، وهذا من أوليات الإيمان التى ينبغى استصحابها فى قلب المؤمن دائماً فى كل متقلبه.

الطاعة فى المعروف:

ولكى يكون منهج أداء الأمانات وإقامة العدل قويمًا واضحًا، وضّحت الآية التالية الأصول التى يقوم عليها هذا المنهج، فالطاعة المطلقة لا تعطى إلا لله ورسوله، ولكى ينضبط أمر المجتمع لابد من طاعة ولى الأمر، وأيضاً لكى لا يضيع الشرع فإن طاعة ولى الأمر مشروطة بطاعته لله ورسوله، وإذا نشب خلاف بين ولى الأمر ورعيته حول قضية ما، فإن المرجعية التى يؤمن

بها الجميع هى كتاب الله وسنة رسوله يرجعون إليها غير مخيرّين. يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ [النساء: ٥٩]. فطاعة الله والرسول مطلقة، وطاعة أولى الأمر مرهونة بالتزام الشرع وعدم مخالفته؛ إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وقد ورد فى سبب نزول الآية أن رسول الله ﷺ بعث سرية، واستعمل عليها رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وجد الرجل عليهم (أى غضب منهم) فى شىء، فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلي، قال: فاجمعوا لى حطبًا، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها! فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها. فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: «**لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة فى المعروف**»[1].

وفى مواضع عديدة من كتاب الله تعالى يتبين لنا مدى الخطر الكامن وراء الانسياق فى الطاعة فى المعصية، فاليهود والنصارى: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ..**﴾ [التوبة: ٣١] وكانت هذه العبادة هى: طاعتهم فيما أحلوا وحرموا من عند أنفسهم. والمثال الأوضح من ذلك فرعون وقومه، الذين قال فيهم القرآن: ﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾ [الزخرف: ٥٤]، وكانت النتيجة الطبيعية هلاك الجميع (المطيع والمطاع)؛ لأنهم أطاعوه فى معصية الله ومحاربته،

---

(١) رواه احمد والشيخان.

ففسقهم القرآن وأهلكهم ربهم بفسقهم. إذن، شرع الله له ميزان ومرجعية عليا، يُرجَع إليها فى الصغير والكبير، حتى لا تختلط على الأمة الأمور. ولكن، مادمنا فى السياق، فما المقصود بأولى الأمر؟ قد كثر كلام أهل العلم فى ذلك، ونختصر كلامهم فى رأيين، نصوغهما بلغة أهل عصرنا:

أ - فأولو الأمر هم الذين يحكمون؛ أى السلطة التى تقود البلاد.

ب- أوهم ممثلوا الشعب، والمعبرون عن إرادته (مجلس الشعب ونوابه مثلاً)، ومن تثق فيهم الأمة، وتختارهم بحرية كى يتحدثوا باسمها، ويدافعوا عن مصالحها، وهم فى الغالب علماء الأمة وخبراؤها فى المجالات المختلفة. وهذا الفريق الثانى هم أنفسهم أهل الحل والعقد، تلك المجموعة المتميزة من أبناء الأمة الذين يقوم سلوكهم كله على مبدأ الشورى، وهم أهل هذه الشورى، يقررون أحكامًا، ويشرعون قوانين من روح الشرع أو نصوصه، ترعى مصالح العباد، وليس لهم أن يدخلوا فى غير اختصاصهم، بمعنى أن ما تقرر فى أمور العقائد والعبادات والحلال والحرام، ليس لهم أن يتدخلوا فيه، إلا بالتوضيح والبيان، فهذه الأمور لله ورسوله فقط، ولا دخل لأحد فيها، وليس لأهل الحل والعقد أنفسهم أن يسنوا قوانين أو تشريعات تخالف ما ثبت عن الله تعالى ورسوله ﷺ. فإذا اتفق أهل الحل والعقد بعد ذلك على أمر من المصالح العامة، كانت كلمتهم واجبة الطاعة؛ لأنها صدرت عن إجماع وبعدَ تشاور، وتوخوا مصلحة أمتهم التى تثق فيهم علمًا وورعًا.. وليست طاعتهم واجبة على الأمة وحدها، بل واجبة على ولى الأمر (الحاكم) أيضًا، فالشورى عندنا ملزمة. ولذلك تكون الأمة على قلب رجل واحد؛ حكامًا ومحكومين. ولكن قد يقع

النزاع والخلاف بين إنسان وآخر، أو بين فئة وأخرى أو بين الرعية والراعى، فإن وقع شئ من ذلك لم يتركنا القرآن حيارى إزاء وضع كهذا، محتمل الوقوع كثيراً، فحل لنا المشكلة؛ لأن غرض التشريع هو تحقيق التعاون على الخير بين أفراد المجتمع وقطاعاته. وحسم مادة الخلاف والتفرق، طريقنا لوحدة الأمة التى هى مناط عزها وعز دينها. يقول الله تعالى: ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** ﴾ [النساء: ٥٩] فالإسلام واقعى؛ إذ لابد أن يقع الخلاف والتنازع بين الناس، لاختلاف المصالح والطبائع والميول والملكات والمواهب، ولابد حينئذ من أصل يرجع إليه.

وقد عرفت الأمة الإسلامية – مثل كل الأمم – فى القديم والحديث صوراً من التنازع والاختلاف، فإذا رُد النزاع إلى ما فى الكتاب والسنة من أحكام عامة وقواعد كلية وقيم عليا وهَدى ربانى – فلن يسع المؤمن حينئذ إلا أن يقدم حكم الله ورسوله على كل حكم، وبذلك يحسم النزاع، وتنتهى الفتنة فى مهدها. ولأهمية هذا الأمر ومركزيته فى الإسلام، جعلته الآية الكريمة نتيجة طبيعية للإيمان بالله واليوم الآخر، بمعنى أن من لم يلجأ فى حال التنازع – سواء أكان محليا أم دوليًا – إلى قواعد الكتاب والسنة يحتكم إليها، فهو غير مؤمن بالله واليوم الآخر إيمانًا حقيقيًا يعتد به. كما دلّ على ذلك الآية الكريمة.

ومن الأهمية بمكان فى الإسلام أن تعيش أمة المسلمين واحدة غير ممزقة، ليس بينها فرقة أو خصام أو إهدار للدماء وضياع للتفوق، وتمكين للأعداء من اختراقها وإهدار سلطانها، ولو طبقنا مبدأ الرجوع عند النزاع

إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ لنجونا من كثير من الويلات التى اصابتنا فى العصر الحديث، مثل الذى أصاب الأمة فى الحربين الخليجيتين الأولى والثانية، ولو أن هناك محكمة عدل إسلامية يرجع إليها وتحترم كلمتها، وتفصل فى النزاع بالعدل فصلاً مرعيًا نافذًا على كل الأطراف عن قناعة ورضا بأن ذلك مما قضى الله به ورسوله فى محكم التنزيل لصالح الأمة والملة – ما امتد الخلاف الدامى والمأساة العصيبة التى عاشها مسلمو أفغانستان، بسبب التنازع بين طوائف متخالفة الميول والأهواء، بعد أن خاضوا حرب الاستقلال ضد الروس ودفع الشعب ثمنًا باهظًا للحصول على حريته واستقلاله، وقُل مثل ذلك عن حمامات دم الجزائر الذبيح.

لابد إذن من وجود جهة عليا تفصل فى النزاعات، ترجع إليها الأمة عند الخلاف، حتى تظل الكلمة موحدة، ولا تحل النزاعات اعتماداً على أهواء الناس، أو اعتماداً على رأى الجانب الأقوى، فالكل يسلم لحكم الله ورسوله، راضيًا به كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ..** ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وفى موضع آخر من القرآن نجد ما يؤكد ويوجب على الأمة أن تسعى فى إزالة الشقاق والخلاف إذا نشب بين طرفين فيها، وهذا واجب وليس تطوعًا. يقول الله تعالى فى بيان شرعته ومنهاجه: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الحجرات: ٩].

نحن لدينا جيوش إسلامية متفرقة ولابد من نظام دفاع مشترك يوحد بينها لصالح الأمة الإسلامية، دون تعارض مع مصالح أوطانها، بل تكون لها عضداً وحماية، وينبغى أن تكون لدينا محكمة عدل إسلامية كذلك، تحكم بين المتنازعين بالعدل والقسط، وإذا أصر الباغى على إهدار دم الأمة وتفتيت وحدتها يقاتل حتى يرتدع.

إننا يوم لم نطبق هذا الشرع ومنهاجه، وغاب عنا العقل، وانتكس العمل بدين الله - سبحانه وتعالى - يوم فعلنا هذا بدأنا بداية سوء، وصنعنا فى جسد أمتنا ثقوباً كبيرة دخل منها أعداؤنا، وغزونا فى أخص خصوصياتنا، وظهرت من جديد قوات أجنبية ترابط فى أرضنا، وتتحكم فى مواضع حساسة من أوطاننا. إنه لمخالفة لأصول شريعتنا، وخطأ قاتل أن نذهب عن التنازع إلى طرف أجنبى ليحكم بيننا فيما يخص مصالحنا، بغير أحكام ديننا كاللجوء إلى محكمة العدل الدولية - دون بخس لها - أو اللجوء فى النزاعات كالتى بين الفلسطينيين والصهاينة وأمثالها إلى دولة عظمى مثل الولايات المتحدة الأمريكية، لها مصالحها وإمكانات تعبئة الدول من ورائها. ولها انحيازاتها المطلقة لعدونا على حساب ثوابت حقوقنا، أو اللجوء إلى مجلس الأمن، حيث تملك الدول الخمس الكبرى حق استخدام حق الاعتراض ضد قراراته لفرض مصالحها. لماذا نذهب إلى غيرنا والآية الكريمة نزلت تخاطبنا، وتحملنا أمانة فض النزاع، والسعى بين الطرفين بما يزيل الخلاف من أساسه، ويسد الذرائع أمام الفتن، ويصون وحدة الأمة؟!

إن مقاصد الشرع الحكيم هى أن يحفظ على الأمة وأفرادها حقوقهم

الإنسانية كاملة؛ سياسية ومدنية واقتصادية.. إلخ، وذلك بحفظ الدين والنفس والعقل والمال والعرض.

لقد جاء الدين فى أصله لحسم الفرقة والنهى عنها، وإحلال الأمن والسلام بين أبناء البشرية، وتوحيدهم على كلمة سواء، ولو لم يستطع أهل الإسلام تعميم هذا الأصل فى العالم كله، فلا أقل من إحلال الأمن والأمان فى ربوعهم هم، وبين أبناء شعوبهم وبلادهم. وفض نزاعاتهم، وتجنب الاختلاف والفرقة التى حذرنا الله منها ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ** ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

إن أوروبا - ذات النزعات والتوجهات والمذاهب والأعراق المتعددة، بل المختلفة - ، رغم ما بين بعض شعوبها والبعض الآخر من عداوات تاريخية وخلافات دينية، استطاعت تجاوز كل العقبات، وتجمعت فى «الاتحاد الأوروبى» حول مصالحها، وأى أوروبى اليوم لا يحتاج إلى جواز سفر لكى يعبر من بلد إلى آخر داخل القارة البيضاء.. ونحن الأمة الأقرب اتفاقًا لا يستطيع أحدهم أن يسافر من بلد عربى إسلامى إلى مثله إلا وتقف أمامه ما لا حصر له من المشكلات.. إن الأوروبيين عندهم ألف سبب وسبب للقطيعة والخلاف، ولكنهم تجاوزوها بالعقل وأدركوا أن المصلحة فى التوحد برغم كل الفوارق، لاسيما فى زمن التكتلات العملاقة فى السياسة والاقتصاد.

إن نشر الأمن والأمان وحفظ ضرورات الإنسان - كما سبق القول -

هى قصد الشرع وهدفه، والمصلحة العليا التى ينبغى ألا تغيب عن المسلمين، فإنها إن غابت غبنا عن القرآن، وغبنا عن أنفسنا ومصالحنا.

إن قوتنا لن تكتمل أبداً إلا إذا قويت فينا حقائقنا كأصحاب رسالة وأصحاب حضارة، وكأمة تريد أن تحفظ على أبنائها حقوقهم الشرعية، وتحفظ على البشرية معالم الخير التى أرادها الله وأمرنا بحفظها فى كتابنا. فما أحوج أمتنا لا سيما فى هذا الزمان المشحون بالتحديات من كل جنس، وبالأخطار المحدقة بنا من كل جانب، حالة ومستهدفة، إلى إعادة وعى بحقائق الإسلام واستمساك بها وعمل بمقتضاها. وإن من حقائق ديننا ضرورة الوعى بسنن الله فى نظام الحياة، وتقدم الأمم وتخلفها، وقيام الحضارات وزوالها.

ونحن إن فعلنا ذلك صح لنا فهمنا للإسلام ونهضنا من كبوتنا، وسلم لنا ديننا، وهديت الأمة إلى صراط ربها المستقيم.

* * *

[٧]

الشدائد

جرت قوانين الله تعالى فى الحياة الدنيا على أن يمر بالبشر فيها – أفراداً وجماعات – أوقاتٌ عصيبة ومحن شديدة؛ حتى ليظن المرء – أو الجماعة – أن الهلاك واقعٌ لا محالة، وأن النجاة لا رجاء فيها!! وهناك شيء فطرى يقع فى مثل هذه الظروف؛ إذ يلجأ الإنسان فى ضعفه إلى من هو أقوى منه، إلى الذى يحضر كل مشهد، ولا يخرج عن نطاق قدرته شيء (وهو الله سبحانه وتعالى)، وذلك بالدعاء رجاء النجاة..

وقد استوقفنى الفارق بين الكافر والمؤمن فى استجابة الدعاء، فعرفت أن البشر جميعًا مغروسة فى فطرتهم عقيدة التوحيد، فإذا وقعت الضرورة، وجاءت ساعة الفزع – استُحضرت الفطرة، واستُحضر التوحيد، فيكون شأن المؤمن والكافر هنا واحد، وكثيراً ما يستجيب الله تعالى للجميع. وهذا المعنى يحسه الإنسان فى حياته حين يحل به البلاء، أو تحيط به المخاطر، فتراه لاجئًا إلى الله يدعوه مخلصًا له الدين، ويتعهد ويقسم: ﴿ ... لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢]، وبعد أن تأتى النجاة، ويفرّج الله الكرب، يختلف رد فعل الناس؛ فمنهم (وهم كثيرون) من ينكر النعمة، وربما أسند نجاته إلى بطولته الشخصية!! ومنهم من يشكر المنعم، ويحفظ العهد مع الله، فيكون حاله بعد النجاة وذهاب الشدة من نوع حاله عندما لجأ إلى الله طالبًا النجاة.. وهذا مثال

للفريقين: عن أبى هُريرة رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بنى إسرائيل - أبرص وأقرع وأعمى - أراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكًا. فأتى الأبرصَ فقال: أى شىء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذى قد قذرنى الناس. فمسحه فذهب عنه قذره، وأعطى لونًا حسنًا وجلداً حسنًا. قال: فأى المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو قال البقر. (شك الراوى) فأعطى ناقة عشراء، فقال: بارك الله لك فيها.

فأتى الأقرع فقال: أى شىء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عنى هذا الذى قذرنى الناس. فمسحه فذهب عنه، وأعطى شعراً حسنًا. قال: فأى المال أحب إليك؟ قال: البقر، فأعطى بقرة حاملاً، قال: بارك الله لك فيها.

فأتى الأعمى فقال: أى شىء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله بصرى فأبصر الناس. فمسحه فرد الله إليه بصره. قال: فأى المال أحب إليك؟ قال: الغنم. فأعطى شاة والداً. فأنتج هذان، وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

ثم إنه (أى الملك) أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال: رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلّغ به فى سفرى. فقال: الحقوق كثيرة!! فقال: كأنى أعرفك: ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر. فقال: إن كنت كاذبًا فصيّرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع فى صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا، وردّ عليه مثل

ما رد هذا. فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله كما كنت.

وأتى الأعمى في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري. فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري. فقال: قد كنتُ أعمى فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله - عزَّ وجلَّ. فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك»[1].

اللجوء إلى الله فطرة:

وقد تحدث المفسرون عن ميثاق أخذه الله على خلقه يؤكد أنهم مفطورون على الإيمان، وذلك عند تفسير الآية الكريمة: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٧٢].

أخرج عبدُ بن حُمَيْد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: خلق الله آدم، وأخذ ميثاقه أنه ربه، وكتب أجله ورزقه ومصيبته، ثم أخرج ولده من ظهره كهيئة الذر (أي النمل)، فأخذ مواثيقهم أنه ربهم، وكتب آجالهم وأرزاقهم، ومصائبهم.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم واللالكائي في السنة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ**﴾ [الأعراف: ١٧٢] .. الآية. قال: إن الله خلق آدم ثم أخرج ذريته من صُلبه مثل الذر، فقال لهم:

---

(١) متفق عليه.

من ربكم؟ فقالوا: الله ربنا. ثم أعادهم في صلبه حتى يولد كل من أخذ ميثاقه لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم إلى أن تقوم الساعة. ومهما يكن من أمر هذا التفسير، فإن من الثابت أن فطرة الإنسان تعمل عملها في أوقات خاصة، وإن كان صاحبها على ضلالة. وهذه رحمة من الله، فهو رب الجميع مؤمنهم وكافرهم، وهو أولى بهم. وقضاء الله في خلقه كله رحمة وعدل، وإن بدا لبعض الناس في أحيان أنه ليس كذلك؛ فالعقوبة علاج أو تذكير للنفس البشرية، تعينها على الرشاد، وتردها عن الغي. وتدبر قوله تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران: ٢٦]، فذكر الخير دون الشر؟!

قال صاحب الكشاف: لأن الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين وهو الذي أنكرته الكفرة، فقال: بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك، ولأن كل أفعال الله معان من نافع وضار وصادر عن الحكمة والمصلحة، فهو خير كله.

حين تهتز النفوس:

ونقف بتفصيل أكثر مع الجو النفسي للإنسان حين يقع في شدة تعجز أمامها قوى البشر، وتضيع فيها الثقة في قدرات الخلق واستطاعاتهم، ومع رد الفعل الذي ينم كثيراً عن نفس وضيعة بعد النجاة والإفلات من الكرب.. يقول الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ**

مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣]. فشعور الإنسان بالضعف عند الضائقة والمصيبة، وأنه لا ينفعه حينها إلا مالك القدرة – سبحانه – شعور إيجابى ينبغى أن يستثمره صاحبه، فيزداد من الله قربًا وبه صلة، فهذا عكرمة بن أبى جهل رضى الله عنه ركب البحر هربًا من النبى ﷺ، بعد فتح مكة، فأصابهم عاصف، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا إلى آلهتكم لا تغنى عنكم ههنا شيئًا، فقال عكرمة: والله لئن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص لا ينجينى فى البر غيره، اللهم إنّ لك علىّ عهداً إن عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمداً حتى أضع يدى فى يده، فلا أجدنّه إلا عفواً كريمًا، فجاء فأسلم، وحسن إسلامه، وجاهد فى سبيل الله حتى مات شهيداً فى فتوح الشام.

وفى مقابل هذا التطور الإيجابى للحظة الشدة نجد من يُتبع النجاة بالبغى والاستطالة، وهو ما أشارت إليه آيتا «سورة يونس» السابقتان، وحذر القرآن مَن يفعل ذلك تحذيراً شديداً: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾**. والبغى هو الظلم والتعدى بشتى صوره، وهو كذلك تطور عكسى للحظة الخوف والعجز والرهبة التى تسيطر على الإنسان عند إحاطة الخطر به.

وفى الحديث: «**اثنتان يعجل الله عقوبتهما فى الدنيا: البغى وعقوق الوالدين**»[1].

---

(١) رواه البخارى فى التاريخ والطبرانى.

وقال الشاعر الحكيم:

لا يأمن الدهر ذو بغي ولو ملكا جنوده ضاق عنها السهل والجبل

وهذا ينطبق على الدول كما ينطبق على الأفراد، فروسيا التى بغت، فطبقت الإلحاد، وفرضته على الخلق، ودرّسته فى مدارسها وجامعاتها – سقطت بظلمها وبغيها، كأن لم تكن شيئًا !! وهذا قانون الله السارى على كل دولة تبغي وتستكبر على غيرها بغير حق، ومنها هذه الدول التى أسكرها ضعفنا، وغرتها قوتها، واستكبرت فى الأرض بغير حق، فاقتطعت من أرض المسلمين الكثير، وقتلت الآلاف من الأبرياء.

إن أمة الإسلام حين قامت أزالت عن الدنيا البغي والظلم، وأدهشت العالم مما أرته من التسامح والعدل. وهذا من خيرية الأمة، وخصوصيتها العقدية والحضارية، تأثم إن لم تقم به، لقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾ [الحج: ٤١]، فالغاية فى الدولة الإسلامية غيرها فى الدولة العلمانية، وهى ركن أساسى فى نظامها وشرط لشرعية حكومتها وطاعتها، وتتلخص فى إقامة الدين وتحقيق مصالح المحكومين من مسلمين وغير مسلمين، ودفع العدوان عنها، فهى خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا. علما بأن أى طريق استخرج بها العدل هى من الدين ليست مخالفة له ما لم تصادم فيه أصلاً ثابتًا.

البلاء سنة:

وقد يشعر الإنسان المبتلى – شعوراً خفيًا أو معلنًا – بأن الأقدار

تضطهده، وهذا عيب في الفهم، وانحراف في توجيه العواطف، يقول النبي ﷺ: **«أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسبَ دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابُتلى على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»**(١).

إن الله تعالى ليس بيننا وبينه ثأر ينتقم له بصب البلاء على رؤوسنا، بل هو أرحم بنا من أمهاتنا، ويرزقنا خير الأجر على الصبر على البلاء.

وفي سنن أبي داود: حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق قال: حدثني رجل من أهل الشام يقال له أبو منظور، عن عمه قال: حدثني عمي، عن عامر الرام.. قال: إن لببلادنا إذ رُفعت لنا رايات وألوية. فقالت: ما هذا؟ قالوا: هذا لواء رسول الله ﷺ فأتيته وهو [جالس] تحت شجرة، قد بُسط له كساء وهو جالس عليه، وقد اجتمع إليه أصحابه، فجلست إليهم، فذكر رسول الله ﷺ الأسقام فقال: **«إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه، وموعظةً له فيما يستقبل، وإنَّ المنافق إذا مرض ثم أعفى كان كالبعير عقله أهله ثم أرسلوه، فلم يدر لم عقلوه ولم يدر لم أرسلوه»**..

فبينما نحن عنده إذ أقبل رجل عليه كساء وفي يده شيء قد التفَّ عليه، فقال: يا رسول الله، إني لما رأيتك أقبلتُ إليك، فمررت بغيضة شجر (شجر ملتف) فسمعت فيها أصوات فراخ طائر، فأخذتهن فوضعتهن في كسائي، فجاءت أمُّهنَّ فاستدارت على رأسي، فكشفت لها عنهن،

---

(١) رواه الترمذي.

فوقعت عليهنَّ معهنَّ، فلففتهن بكسائى فهنَّ أولاء معى، قال: «**ضعهنَّ عنك**» فوضعتهنَّ، وأبت أمُّهنَّ إلا لزومهنَّ، فقال رسول الله ﷺ: «**أتعجبون لرحمة أمِّ الأفراخ فراخها؟**» قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «**فوالذى بعثنى بالحقِّ لله أرحم بعباده من أمِّ الأفراخ بفراخها، ارجع بهنَّ حتَّى تضعهنَّ من حيث أخذتهنَّ وأمهنَّ معهنَّ**» فرجع بهنَّ.

فابتلاء الله لنا سنة لا تنفى أن الله رحيم بنا، ولا يخلو أو يفر منها أحد، وإنما يتمايز الناس فى تعاملهم مع ما يُبتلون به: أيصبرون ويمكثون على الطاعة والتسليم، أم ينتكسون على رءوسهم؟ فالذى ينبغى أن يشغلنا هو الانتفاع بهذه الصحوة التى تحدث، لا الاعتراض على الشدائد والأقدار التى تصحبها، وأن نكون كالصالحين من عباد الله؛ صبراً على الشدة، وشكراً على النعمة، ونعلم يقيناً أن النعمة التى أسداها الله، والشدة التى أجراها تأتى من حكمة واحدة: ﴿ .. **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الملك: ٢].

ثم إن للابتلاء حكما جليلة؛ كالتمحيص والاختبار والتربية والإعداد، وهذا خير تأتى به الشدائد. ولذلك ينبغى أن نربى أولادنا على المجاهدة والتحمل؛ لأن الدنيا ليست مضمونة الإقبال دائمًا. وشر ما يفسد الصغار فى هذا السبيل: الاستجابة لكل ما يرغبون فيه، وتعويدهم الميوعة واللهو. وليس من يتربى فى الزينة والنعمة وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراة الرجال كان غير مبين ولا يأتى ببرهان يحتج به على من يخاصمه، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ **أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ**

غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]، وفيه أن جعل النشء فى الزينة والنعومة من المعايب والمذام، والواجب أن يربأ المؤمن بنفسه وولده عن ذلك، ويعيش كما قال عمر – رضى الله عنه –: «اخشوشنوا واخشوشبوا..». وإن أراد أن يزين نفسه زينّها من الباطن بلباس التقوى، ولا يعارض ذلك حل الزينة والطيبات من الرزق ما تجنب السرف والمخيلة والمغالاة، قال تعالى: **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: ٣٢]. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: «كُلْ ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة» وهذا من وسطية الإسلام التى تميزه فى كل أمر.

إننا فى حاجة إلى تجلية مثل هذه المعانى، خاصة فى هذا الزمن الذى عصفت فيه ريح الجهالة، وتلاطمت فيه أمواج الضلالة، وبعدت الأمة عن الحق، وصعب على العارفين الأمر بالمعروف، ووجدت العوائق فى طريق النهى عن المنكر، وأدركنا التغريب فى الفكر والسلوك.

إننا ما زلنا نكرر أخطاءنا، فننكر فضل الله بعد أن يكشف عنا الغمة، ومثال ذلك تلك النازلة الكبرى التى وقعت لنا فى حرب الخامس من يونيه عام ١٩٦٧م، فقد لجأنا بعدها إلى الله أن يكشف الضر ويزيح الغمة، ولم تمض ست سنوات حتى جاء نصر العاشر من رمضان، الذى خضنا معركته وشعارنا فيه: إما النصر وإما الشهادة، وعلت حناجرنا تترجم عن خفيات قلوبنا قائلة: الله أكبر، الله أكبر..

فما هو حالنا بعد النصر؟ هل أبطرتنا النعمة، أم مضينا في شكر الله عليها، فاستعددنا للعدو وجمعنا صفوفنا؟ والإجابة عن هذا التساؤل جدّ مؤسفة كما هو معلوم للكافة، مما كلف الأمة الكثير من الويلات كما شهدت به العقود التالية، وماتفعله إسرائيل بمقدساتنا الإسلامية وجرائمها في حق الشعب الفلسطيني مدعومة بالهيمنة الأمريكية بغير حساب وبالمساندة الأوروبية وبالتخاذل العربي والدولي..

لقد دلنا الله في سورة النصر على ما يجب علينا عند تحقق النصر، حيث أمرنا أن نحمده ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، والتسبيح والحمد على ما أولى المؤمنين من منّة، وبأن جعلهم حراسًا عليها، وأمرنا بالاستغفار في لحظة الانتصار من التقصير في حمده وشكره، ومن الزهو الذي قد يساور النفس والغرور للتجرد من حظ النفس.. هذه الربانية التي أمرنا الله بها هي ارتفاع بالمؤمنين إلى معرفة فضل الله عليهم فيما أولاهم من نصر، حتى لا تسكرهم فرحة النصر بعد طول كفاح وتذهلهم عن تبعاته، وعن الاستعداد لما قد ينتظرهم من معركة تالية، يبيتها لهم عدوهم بمكره في السر والعلن.

* * *

[٨]

الحياة الطيبة والمعيشة الضنك

كل إنسان، أيًا كان دينه ووطنه، يبحث عن الحياة الطيبة، ويفر من شقاء العيش، فهذه طبيعة فى البشر، وقد بصّرنا الله تعالى فى القرآن الكريم بالطريق إلى الحياة الطيبة، وكشف لنا عما يؤدى إلى الشقاء الحقيقى فى الدنيا والآخرة.. يقول الله تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]. وهذا ينطبق على أفراد الناس كما ينطبق على الأمم والشعوب، فالإيمان والعمل الصالح شرطان يضمنان طيب الحياة، وما طيب الحياة إلا أن تعيش لأجل غاية سامية وأهداف رفيعة، ومبادئ عليا، تستظل بظلها، وتعيش فى كنفها، وتضحى من أجلها، وتتوفر لها ضرورات الحياة وعلى رأسها الأمان والحرية والعدل والمساواة والشورى لا القهر والاستبداد، وتلك حقوق الله.

وكذلك الإعراض عن الدين تضيق معه الحياة، ولو كثر المال والذرية، واتسع الترف، وعلت المكانة والجاه، فمع عمى البصيرة لا تصبح لأى شىء قيمة، ومع خراب الباطن لا يكون لعمران الظاهر أى جدوى.. ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٥، ١٢٦]، فمشكلة هؤلاء

المعرضين هى نسيان الآيات القاطعة بصحة الدين، بمعنى إهمالها وعدم إعطائها قدرها الجليل، والله يقول للمؤمنين: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

والمعصية من المؤمن تشبُّه بالكافر فى بعض فعله، فإن تاب المؤمن رجع إلى حاله من النقاء، وإن نسى بقى على قلبه أثر المعصية فاتحًا له الطريق إلى معصية أخرى. والنسيان هنا ربما كان بمعنى ضياع حقيقة الفعل، فقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ [الفرقان: ٣٠] لا يعنى فقط أنهم لم يقرأوا آياته، بل ربما قرأوها ورددوها، ومع ذلك نسوها فى عملهم، فحِفْظ القرآن أصلاً يكون بالعمل به، والتحقق به: فى القول والفعل والسلوك، فى السر والعلن، فى الأمور الخاصة والعامة، ومن لم يفعل ذلك انطبق عليه المثل الذى ضربه القرآن للكافرين من بنى إسرائيل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]، فخصوص سبب نزول الآية لا يمنع من عمومها، حتى من حملوا القرآن الكريم فهو يكون حجة لنا، كما يكون إن عصينا حجة علينا.

شروط الحياة الطيبة:

إن للحياة الطيبة فى مفهوم الإسلام شروطًا كما سبق، وكذلك المعيشة الضنك الضيقة لها مقدمات. والحياة الطيبة فى الإسلام ربما كان فيها شىء من البلاء لاختبار ثبات العباد على دينهم وتربية لهم، كما أن

المعيشة غير الطيبة قد يكون فيها شيء من نعيم الدنيا، استدراجًا للعصاة والكافرين. ومن إعجاز القرآن في معانيه وألفاظه تفرقته بين الحياة الطيبة وبين الأخرى التي أسماها معيشة، فأن تحيا بكلك غير أن تعيش لجسدك ومتعه. فالحياة غير مجرد المعيشة.

وقد يأتي البلاء للمؤمن تنبيهًا له، ليخرج من غفلته، ويصحح مسيرته، وليس حبًا من الله في أن يؤذي خلقه ويعذبهم. يقول الله تعالى: ﴿**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا**﴾ [النساء: ١٤٧] وفي معناها يقول صاحب مفاتيح الغيب: «أيعذبكم لأجل التشفي، أم لطلب النفع، أم لدفع الضرر؟ كل ذلك محال في حقه؛ لأنه – تعالى – غني لذاته عن الحاجات، منزّه عن جلب المنافع ودفع المضار. وإنما المقصود منه حمل المكلّفين على فعل الحَسَن والاحتراز عن القبيح، فإذا أتيتم بالحسن، وتركتم القبيح، فكيف يليق بكرمه أن يعذبكم». وقد نزلت الآية في بعض أسرى المسلمين، فكانوا يجدون عذاب الأسر، فنزلت الآية تطيّب خاطرهم، وتبصّرهم أن الله لا يرضى لعباده العذاب، وإنما يريد لهم الخير الذي قد يوجد في صورة بلاء وشدة، وكأنه يقول لهم: إن الله إنما يريد بما سلط عليكم من عذاب الأسر أن يرقى بكم إلى مقام الصبر مع ما سبق منكم من الشكر. فيبدلكم بالشدة عافية. كما في قوله تعالى: ﴿**إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ..**﴾ [الزمر: ٧].

إن ما ينزل بالأمة الآن من المحن، وإن كان بادي الشدة، فإن الخير هو المطوي في أحشائه – إن شاء الله – فالمأمول أن تتعلم الأمة مما يجري لها،

وتستكمل ما نقص من معالم طريقها الواضح، لتمر مرحلة الضعف، وتستعيد مكانتها الرفيعة التى بها خليقة دينا وتاريخا. فالخطوب التى تنزل بنا، إنما يريد الله بها أن يوقظنا من غفلتنا، وأن نصحح مسارنا، ونجمع شملنا الممزق.

إن ضياع وحدة المسلمين هو سبب شقائهم، والجالب الأول للشرور إليهم، فهذه الوحدة هى مناط الخير، والسبيل إلى الوقوف فى وجه المعادين، ودحر تيارات الانحراف فى الداخل. والأخطار الهائلة المُحْدقة بالأمة الإسلامية توجب أن نسعى بجِد إلى جمع الشمل، وتوحيد القُوَى واتباع هدى ديننا فى كل أمرنا وأحوالنا. وها هى إسرائيل رابضة على حدود العديد من دولنا، فوق قطعة عزيزة من أرضنا الإسلامية، تستعرض عضلاتها فى وجوه الملايين من المسلمين، وترتكب من جرائم الحرب أفظعها، ولا رادع لها.. وكأنهم قد راهنوا على أننا لن نعود إلى رشدنا، ولن يجتمع شملنا، ولن يعود للجهاد فى سبيل الله صوت صادق بيننا، وهذا صحيح إن ظلت الصفوف المسلمة ممزقة الشمل. ولكن فىء الأمة إلى الحق يكذب ظنهم.. إن أى عمل فيه مبشرات الوحدة والتجمع فوق بقعة إسلامية مما نراه الآن، يجزم بإمكانية، بل سهولة عودة أمة المسلمين إلى مكانها الحقيقى بين الأمم، فالانتفاضة الفلسطينية التى هبت فى وجه دولة بنى صهيون، هزأت بسلاحهم النووى، وقواتهم المدربة، ومعداتهم المدمِّرة، وأثبتت أن جسد العالم الإسلامى حىّ، لكنه فقط فى أزمة. وأثبتت وجودها وهى بإذن الله آتية ثمارها ولو بعد حين.

إن الله تعالى قضى بأن أى مجتمع بشرى لا يبقى على حاله واحدة من القوة والضعف، بل لابد من أن يبدل مرور الأيام من حاله، ويغير كرُّ

السنين من قوته، لذلك حدد القرآن لأمتنا الطريق الثابت الذى يمكن أن ترجع إليه إن دخل عليها الوهن، فضعفت بعد قوة، وتفككت بعد وحدة، وضلت بعد هداية، فنبهنا القرآن إلى أن الحياة القويمة التى نرجوها معقودة أصولها بالعودة إلى هَدى القرآن. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وأكثر تفصيلاً من هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ..﴾ [الأنفال: ٢٤] والاستجابة لله وللرسول هى تدبر القرآن، والعمل بأحكام الدين، وأن لا يفتقده حيث أمره، وألا يراه حيث نهاه، ذلك أن وصف الله دعوة الإسلام بأنها دعوة إحياء، تقود الإنسان إلى الحياة الطيبة فى دنياه وأخراه.

وحين أركز الضوء على ما يجرى فى فلسطين من انتفاضة فى وجه الاحتلال، فإنه لإبراز عملية الإحياء التى هى مقصود القرآن فى هذه الآية، ولنعلم أن البلاء ينطوى على خير، لو عاش معه المؤمن بوعيه الحقيقى، وتلقاه بإيمان الواثق بربه. فقد ظن أعداؤنا أن بين شعوب العالم الإسلامى وحكامه وقيعة لا صلاح لها، وأنهما - الشعوب والحكام فى العالم الإسلامى - طرفان لا يلتقيان أبداً، لكن ما شهدته الأرض المحتلة وحّد الجميع. وإن لم يكن ذلك على الصورة المثلى والمأمولة، فإنها بداية ينبغى أن يستغلها ولاة الأمر فى العالم الإسلامى لمصالحة شعوبهم، والوقوف فى وجه الصلف والغرور الصهيونى.

وعلى الدعاة أن يجعلوا من أهم أهدافهم إزالة الجفوة والفجوة اللتين تمثلان عقبة فى طريق وحدة الأمة حكامًا ومحكومين، مهما اقتضى ذلك من صبر وكلف من حكمة وبعد نظر.

قلنا جميعًا: نحن نرفض ما يعرّض الأمة للخطر، ونرفض أن تمس حقوق أى فئة أو جماعة أو شعب مسلم بانتقاص أو اغتصاب، وفى اجتماع كلمة الشعوب والحكومات فى العالم الإسلامى على ذلك نقلة نوعية فى كفاح الأمة واستباق الخيرات.

وينبغى أن نقول: إن الأمة ستكون بخير، ولن يطمع فيها طامع ما دام فيها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يحترمهما الجميع، ويلتقون عليهما. وليس هناك مسلم - مهما كان شأنه - إلا ويغار على دينه، ولا يرضى لأمته الهلاك أو المضرة، ويخشى سوء الحساب.

إن الذى يجرى على أرض فلسطين منذ بدايات القرن العشرين، وفى حلقات متصاعدة الحدة، فيه شر بادٍ - كما ترى أعيننا - ولكن قضت حكمة الله فى الناس ألا يكون الشر للمؤمن إلا ومعه خير، فهذه الصحوة الإسلامية هى من نتاج الأزمة التى نعيشها منذ عقود مضت، ونأمل من هذه الصحوة أن تكسر الأغلال، وتعيد للأمة وحدتها، وتخلصها من الفرقة الكريهة التى استبدت بنا، وكادت تحجب عنا شمس الأمل، وتسد أمامنا طريق الحياة. إن أمامنا طريقًا طويلاً من الكفاح علينا أن نخوضه، يهدينا فى ذلك منهج واضح، وميزان عدل نعامل به أنفسنا والناس. يقول تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ..** ﴾ [الشورى: ١٧]،

ويقول سبحانه: ﴿ .. لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. ﴾ [المائدة: ٤٨] فالمنهاج إلى جانب الشريعة، والميزان فى صحبة الكتاب.

إن السبب فى هذا الفساد المتفشى فى عالمنا المعاصر بكل صوره ومختلف مجالاته يرجع أساسًا إلى أن الناس لم يقوموا بالقسط، ولم يحققوا معنى التوازن فى التعامل مع الحياة وإمكاناتها، والله تعالى يقول: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. ﴾ [الحديد: ٢٥]. فمع إنزال كتبه الهادية، أنزل ميزان العدل، ليستمتع كل إنسان بكل حق شرعى له فى الحياة، وتكتمل له فرص الإنتاج والعمل الجاد، لينهض بأمته فى تنمية حقيقية شاملة، حتى تكون صورة الواقع على مستوى يناسب هدى كتبه وعظمة الإسلام.. ولنعلم أن أعداءنا يشوّهون صورة الإسلام، اعتماداً - فى أحيان كثيرة - على أفعالنا الشائهة وواقعنا الحضارى المتخلف..، حتى أضحت جماهير من أمتنا من جراء ذلك تشكل عقبة فى طريق نشر الدين فى الناس، وعند من اقتربوا منه، فإذا تحمس بعض الشباب، وسار خلف سوء فهمه، اتهموا الإسلام والمسلمين بالأصولية، وجعلوا الإسلام مرادفًا للإرهاب، وهم يعلمون أن الإسلام هو دين السماحة والاعتدال والرفق، ويبرأ من التشدد والإكراه، ويحرم الاعتداء على الأعراض والدماء إلا بحقها. ومعلوم فى الإسلام إن أى عمل يؤدى إلى الخوض المحرم فى الأموال أو الأعراض أو الدماء، مهما كان الشعار أو الراية التى وضع تحتها محرم فى الإسلام؛ لأن ما أدى إلى الحرام فهو حرام. وأساس التشريع الإسلامى يستهدف حفظ الضرورات

الخمس لكل إنسان، وهى : الدين والعرض والعقل والمال والنفس.. والحرية منها.

ومن قواعد الأمر بالمعروف أن المسلم غير مأذون له - لإحقاق الحق - بأن يعتدى على الأبرياء تحت أى شعار، وليس عليه إلا أن يفعل ما بوسعه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقرار الخير والحق، ولا يجوز له فى سبيل ذلك أن يزيل منكر أصحاب المنكر، فيؤدى بهم إلى منكر أكبر، وليس من حقه أن يفرض على الناس وصايته وهو يأمرهم بالمعروف أو ينهاهم عن المنكر، فتكون النتيجة أسوأ مما هو قائم من منكر يراد تغييره.

هذه معالم بينة من الإسلام لا تضطرب معها الأحوال، ولا تلتبس بها السبل، ولا يختلط الأمر. والأمة الإسلامية فى أمسّ الحاجة إلى استيعاب مثل هذه الأحكام وفهمها، وتمثلها فى حياتها، فذلكم حبل النجاة، فذلكم حبل النجاة.

* * *

[٩]

في الانْسِلاخ عن الدين ضياع المسلمين

يمر المسلمون في هذا العصر بمنعطف خطير في تاريخهم، ويتعرضون في مواطن شتى من العالم لمحن وبلايا، وهم في حال من العجز والضعف أطمع فيهم الأعداء، فاستغلوها فرصة مواتية للإفساد ونهب الحقوق، للوصول بنا إلى مزيد من العجز والتخلف وبأنفسهم إلى مزيد من هيمنة القوة الطاغية على حساب ما يسمونه الدول النامية التي لا يرون فيها إلا أسواقًا لسلعهم، ومناطق نفوذ يتسابقون لكسبها، وموارد وثروات يستنزفونها، واتخاذ قواعد عسكرية في مختلف أنحائها، ويظاهرون علينا أعداءنا كما تفعل بنا الولايات المتحدة الأمريكية من انحياز مطلق لإسرائيل في حربها الإجرامية ضد الشعب الفلسطيني بكل المقاييس، ومن معونات تقدمها لبعض دولنا فتأخذ منها أكثر مما تعطيها من دينها ومصالحها ووحدتها.

نحن كأمة نعاني من مشكلات وأزمات عميقة، فقد تخلفنا عن ركب الحضارة، وتملك أعداؤنا أسباب القوة، وحرمونا منها عن عمد، واستغلوا ثروات المسلمين لتزيد من حضارتهم قوة وتقدمًا، وتزيدنا تخلفًا وضعفًا. إنها أزمة يعيشها عالم المسلمين، بل أزمات مستحكمة، سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية واجتماعية، وهذا يعني أن هناك أزمة في الإنسان نفسه، أزمة تتعمق الذات البشرية وتمسخها، وتحوِّلها عن طريقها

إلى سبل شتى يتفرق الناس عليها، وعلى كل سبيل منها شيطان، بل شياطين يدعون إليها. وقد تلفتنا ظاهرة التغريب المدمرة إلى حد التبعية للغرب فى علمانيته التى أقصت الدين عن واقع الحياة فى كل شئونها، وفى استراتيجياته الرامية إلى تفتيت وحدتنا وتفريق كلمتنا، وتغييب خصوصيتنا العقدية والثقافية، ومحو فكرتنا التاريخية والحضارية، وعلى ما يخططون له من تغيير خريطة المنطقة العربية والإسلامية لحساب مصالحهم.

ونحن لا خيرة لنا فى أن نقيس حالنا، ونعرف مكاننا وموضعنا، تبعًا لمكان القرآن والسنة وموضعهما فى حياتنا، لأن عزتنا من عزة الإسلام الذى هو إحياء للأمة، وشرعته مصلحة وعدل كلها، فهل نحترم أحكامهما ونطبق تشريعاتهما؟ وهل نؤمن بالآيات ونساير السنن والقوانين الإلهية فى كونه وخلقه؟ كما أمرنا ديننا، أم انسلخنا عنها، وعصينا شرع ربنا، فاستحققنا عقوبته تعالى؟!، وهنا مزلة أقدام يقتضى حسن فهم حقائق الإسلام، ومن ذلك قوله ﷺ: «**ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل**» متفق عليه، فهو يؤكد على العمل وأهميته فى الدلالة على ما فى القلب، فإذا أُديت الأمانات وحُكم بالعدل وتحققت حقوق الإنسان والحريات، وانتفى القهر والإكراه، وتحققت الشورى وانتفى الاستبداد وحكم الفرد، وتحققت المساواة بين الناس، وقام العدل وانتفى الظلم تبين لنا مدى صلتنا بالقرآن.

فضعف المسلمين وقوتهم لا ينفكان عن مدى صلتهم بآيات الله تعالى وأحكام دينه وقرآنه العظيم. وقد عبر القرآن عن الارتباط بالدين ثم

الانفصال عنه بأنه (انسلاخ) منه، فقال الله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحديد: ١٧٥]، والغفلة عن العمل بالإسلام والاتعاظ بما أورد القرآن ابتعاد عن الهدى، وانسلاخ غفلة من الدين، وهو ضد الاستمساك به والثبات عليه.

ولفظة (الانسلاخ) هنا لها من عميق الإيحاء ما لها، خاصة بالنسبة لقوم يعلمون دقة لغة القرآن، فالحية أو الثعبان ينسلخ من جلده؛ أى يخرج منه، بعد أن كان هذا الجلد يحميه، ولكن انسلاخ هذه الزاحفة من جلدها شيء طبيعى، إذ يجدد لها خالقها جلداً غيره، ويبقى المصدر واحداً من الله تعالى، وأما المنسلخ من دينه، فإما أن يبقى بلا دين، أو يتسول لنفسه دينا من هنا أو من هناك، وفى كلا الحالين تفقد الذات المؤمنة خصوصياتها، وتصبح هملا مع الهمل، وتذوب مع من ذاب، أو تتحول إلى شيطان يقف على طريق من طرق الضلال يدعو إليها، ويشجع المقبلين عليها.

هذه قضية محورية ومفهوم أساسى يجب أن نستوعبه جيداً فى هذا العصر ودائمًا، لنضع أيدينا على موضع الداء، ونضع أقدامنا على الطريق الصحيح الذى تسترد الأمة المسلمة فيه عافيتها دينا ودنيا، وترد غزو الأعداء، وتظهر وسط الإنسانية بالصورة التى تليق بها وبدينها العظيم الذى هو هداية للبشرية جمعاء ونجاة لهم من خسران الدنيا والآخرة، وأوجب الله على أمة الإسلام الدعوة إليه ابتغاء مرضاته تعالى وخير الناس: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

إن الإنسان قد يعيش فى الحياة وكأنه لا يعيش؛ لأنه لا قيمة له ولا تأثير، والإسلام يكره هذا ويريد أن تكون الفاعلية والايجابية عناصر أساسية فى شخصية المسلم، فاعلية بالخير وتأثير بالمعروف، وهذا ما قاله النبى ﷺ فى حديثه: «**لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا**، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»(١).

وقال ﷺ كما ورد فى الصحيح: «**ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته؛ الرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهى مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**»(٢).

فالشعور بالمسئولية نحو النفس والغير أصل فى الدين. غابت هذه المعانى عن حياتنا، فالغالبية من المسلمين ترضى لنفسها أن تعيش حياة هامشية، لا تحمل أمانة رسالة، ولا تبعة دعوة، ولا تشترك فى تغيير الحال السيئ إلى الأفضل، ونسى الكثير منا المسئولية بين يدى الله تعالى يوم القيامة عما ائتمن عليه من الملكات والقدرات والنعم والمواهب، التى تمكنه من أن يكون فاعلاً مؤثراً. وقد أقسم الله تعالى بالعصر وقال: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾ جواباً لقسمه، أى فى خسران من تجارته وحياته الخاصة والعامة، ما لم يستوف شرطين فى العمل بهما النجاة فى دينه

---

(١) رواه الترمذى.

(٢) رواه البخارى.

ودنيـــاه من الخســـران، وذلك قـولـه تعـالى: ﴿ وَالْعَصْـــرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَـمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ – ٣]. فأول الشرطين؛ حسن الإيمان وأداء الفرائض والعبادات وتحرى الحلال وترك الحرام وعمل الصالحات فى خاصة شأنه، وأما الشرط الثانى المكمل له فهو أداء ما أوجبه الله عليه من إسهام فى نفع الناس والأمة جمعاء وهو شق العمل العام وذلك بإقامة الحق والعمل على إزهاق الباطل، وبالصبر على تكاليف ذلك الواجب وتلك الأمانة.

مخاطر الانسلاخ

هذا الانسلاخ عبر عنه القرآن تعبيراً يهز الضمائر الحية، ويوقظ العقول من رقادها، ويدفعها إلى النأى بذاتها عن هذه الهاوية، فقال الله سبحانه بعد آية الأعراف السالفة: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وهذا مثل يضربه القرآن ليتفكر الناس، ونحن – بحق – فى حاجة إلى عقل نعمله، وإلى تفكير نؤصله؛ لأن القضايا الكبيرة التى تشغل الأمة لا تكفى فيها العواطف، ولا يكفى فيها الحزن على الحال، والبكاء على الأطلال!! بل لابد من عقول تفهم، وقلوب تعى، ورجال ونساء يحملون المسئولية، وخطة عمل تلتزم، وتوكل على الله فى الأمر، وهذا العمل على المكانة التى أوصانا بها فى مقابلة عمل أعدائنا على مكانتهم كما فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ

تَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٣٩] أى أعملوا على حالكم التى أنتم عليها وجهتكم من العداوة التى تمكنتم منها، فإنى عامل على مكانتى، تضعنا آية الأعراف - أفرادا وأمة - أمام طريقين، إما استمساك بالقرآن وشريعته، وإما انسلاخ عنه وتكذيب بآياته، إما الطريق المرضى ففيه خير فى دنيانا وآخرتنا، وإما الآخر المذموم فهو المؤدى إلى الغواية وسقوط اعتبار الأفراد والأمم وتردى أحوالهم، نجده فى سوء كسب الناس، وإفسادهم فى الأرض وفسادهم، بإخلادهم إلى الأرض واتباع أهوائهم وإيثارهم الدنيا على الآخرة، جاء وصفهم فى قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾** [الأعراف: ١٧٩]، وذلك مثل القوم الذين كذبوا بآيات ربهم، من الجاحدين المستكبرين وأهل الأهواء الذين حرمهم سوء اختيارهم الانتفاع بها إلى سوء العاقبة فى أمرهم، ولم يتدبروا فى الآيات، وانسلخوا منها، فمثلهم القرآن بالكلب اللاهث، وكالأنعام بل هم أضل منها، لأن هذه لا تجنى على أنفسها بتجاوز سنن الفطرة وحدود الحاجة الطبيعية فى أكلها وشربها وحاجاتها الغريزية، وأما عبيد الشهوات من الناس فهم بانسلاخهم عن آيات الله يسرفون فى كل أمرهم فيجنون على أنفسهم وعلى الناس، وعلى الأخلاق والآداب وعلى مصالح الأمة، وخطر هذا الانسلاخ فى السياسات وأثره فى الشعوب والدول والأمة جمعاء أشد وأفدح أثراً وأوسع دائرة.

وهل محنة الحربين الخليجيتين بتداعياتهما وسوء أثرهما على صعيد الدول المعنية، وعلى صعيد الأمة العربية بل والإسلامية، ما نال من وحدة

الأمة فى الوقت الذى يسعى إليه قادتها ومصححوها إلى جبر الخلل، ولم الشمل، وتوحيد الصف، للوقوف فى مواجهة أعدائها المتربصين بها فى الشرق والغرب، لاسيما ما تفعله إسرائيل فى فلسطين من جرائم حرب ضد أهلها وضد مقدساتها، لا يفهم معها دعوة مصالحة أو حل سلمى للنزاع، وما تفعله الولايات المتحدة من انحياز مطلق لإسرائيل فى سياساتها العدوانية، وفى استخدام الأسلحة الأمريكية المتطورة ضد المدنيين والأرض بما يعد صورة مجرمة للإرهاب الحكومى والدولى، كالذى تفعله أمريكا فى أفغانستان تحت راية وشعار محاربة الإرهاب.

وما يجرى من مذابح أهلية وحكومية فى الجزائر، وفى أفغانستان، وفى غيرهما مما هو حرب أهلية يقاتل المسلمون فيها المسلمين، فيكون القاتل والمقتول مفارقا عن دينه والحديث النبوى صريح فى قوله ﷺ: **«سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»**(١).

ما أرى ذلك السوء كله إلا عقابًا من الله سبحانه على انسلاخنا من آيات الله، وتركنا أمره ونواهيه، وقد أمرنا فى آية التنازع إذا وقع بين المسلمين، كيف نتصدى له بما يحسمه ويحول دون استغلال العدو له ويحفظ على الأمة أمنها ووحدتها ويؤهلها للتوبة عما فرط منها والتعديل على عدم الوقوع فيه مرة أخرى، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ [النساء: ٥٩]. فإن اختلفتم أنتم وأولو الأمر منكم فى شىء من

(١) رواه مسلم.

أموركم فردوه إلى الله ورسوله أى ارجعوا إلى الكتاب والسنة بعد أن أمرنا - أفراداً وحكاماً - بأداء الأمانات، وبالعدل فى الحكم وأمرهم آخراً بالرجوع إلى الكتاب والسنة فيما أشكل وعدم اتباع الأهواء، حتى لا يكون الحاكم وأولو الأمر منسلخين عما أوجبه عليهم من واجبات.

وأمرنا فى الحجرات بما يتبع إن وقع خلاف أو اقتتال بين طائفتين من المؤمنين أو شعبين أو حكومتين فى أمة الإسلام، كالذى حدث فى الحربين الخليجيتين، أو فى أفغانستان، أو فى الجزائر أو فى الصومال أو غيرها، أن يبادر أولو الأمر فى الآية، قل منظمة البرلمانيين، أو منظمة المؤتمر الإسلامى، أو جامعة الدولة العربية، أو منهم جميعاً أو من محكمة العدل الإسلامية الواجب تطبيقها شرعًا لإعمال آية الحجرات وتطبيق أحكامها فى شأن اقتتال طائفتين من المؤمنين، لإصلاح ذات البين وقتال الفئة الباغية عند المقتضى لقوله تعالى: **﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾** [الحجرات: ٩]، وذلك بإجراء الصلح بينهما، فإن استطالت إحداهما فبغت وأبت الصلح، تعين على الحكومات قتال الفئة الباغية حتى ترجع وتفئ إلى أمر الله، فإن فاءت أصلح بينهما بالعدل وحكم بينهما بالقسط. وحكم الفئة الباغية وجوب قتالها ما قاتلت، فإذا قبضت على الحرب أيديها تركت، وإذا توقفت عمل بما روى عن النبى ﷺ أنه قال: **«يا ابن أم عبد، هل تدرى كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟** قال: الله ورسوله أعلم. قال: **لا يجهز على جريحها، ولا يقتل أسيرها، ولا يطلب هاربها، ولا يقسم**

فيؤها» أخرجه الحاكم في المستدرك والبزار والحارث. ولا تخلو الفئتان من المسلمين في اقتتالهما: إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعًا، فالواجب في ذلك أن يمشي بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة، فإن لم تتحاجزا ولم تصطلحا وأقامتا على البغي، صير إلى مقاتلتهما، وأما أن يلتحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما، وكلتاهما عند نفسها محقة، فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة واطلاعهما على مراشد الحق. فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا من اتباع الحق بعد وضوحه لهما، فقد لحقت بالفئتين الباغيتين. وإما تكون أحدهما الباغية على الأولى، فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينهما وبين المبغي عليها بالقسط والعدل. وفي ذلك تفاضل كما في الكشاف: إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا منعة لها: ضمنت بعد الفيئة ما جنت، وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة، لم تضمن إلا عند محمد بن الحسن رحمه الله فإنه كان يفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت، ونرى صحة فتواه. وإما قبل التجمع والتجند أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها، فما جنته ضمنته عند الجميع، فمحمل الإصلاح بالعدل في قوله تعالى: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ على مذهب محمد بن الحسن واضح منطبق على لفظ التنزيل، وعلى قول غيره: وجهه أن يحمل على كون الفئة قليلة العدد، والذين ذكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات: ليس ينسى الطباق للمأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط. فإن قلت: لم قرن الإصلاح الثاني بالعدل دون الأول؟ قلت: لأن المراد بالاقتتال في أول الآية أن يقتتلا باغيتين معًا أو راكبتي شبهة،

وأيتهما كانت، فالذى يجب على المسلمين أن يأخذوا به فى شأنهما: إصلاح ذات البين وتسكين الدهماء (أى الجماعة) بإراءة الحق والمواعظ الشافية، ونفى الشبهة، إلا إذا أصرتا، فحينئذ تجب المقاتلة. وأما الضمان فلا يتجه، وليس كذلك إذا بغت إحداهما، فإن الضمان متجه على الوجهين المذكورين وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ أمر باستعمال القسط على طريق العموم، بعد ما أمر به فى إصلاح ذات البين، والقول فيه مثله فى الأمر باتقاء الله على عقب النهى عن التقديم بين يديه.

وأعقب هذا تقرير لما ألزمه من تولى الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقة من المؤمنين وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، والمعنى: ليس المؤمنون إلا أخوة، وإنهم خلص لذلك متحصنون، قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية، وأبى لطف حالهم فى التمازج والاتحاد أن تقدموا على ما يتولد منه التقاطع، فبادروا قطع ما يقع من ذلك إن وقع واحسموه، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنكم إن فعلتم لم تحملكم التقوى إلا على التواصل والائتلاف، والمسارعة إلى إماطة ما يفرط منه، وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم واشتمال رأفته عليكم حقيق بأن تعقدوا به رجاءكم.

إن نقلة الأمة من الانسلاخ عن آيات الله التى فيها عز الملة والأمة والنصر على عدونا، إلى الاستمساك بها هى قرار الأمة جمعاء وسبيل خلاصها قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، وفيه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي

أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف : ٤٣]، فكن مستمسكًا بما أوحينا إليك، وبالعمل به فإنه الصراط المستقيم الذى لا يحيد عنه ولا ينسلخ عن حكمه إلا ضال شقى، وزد كل يوم صلابة فى المحاماة على دين الله، ولا يخرجك شدة شكيمة الأعداء فى معاداة المؤمنين ولا الضيق بأمرهم إلى شيء من الرخاوة فى أمرك أو الانسلاخ عن بعض أمر الله ونهيه، ولكن كن كما يفعل الثابت الذى لا ينشطه تعجيل ظفر ولا يثبطه تأخيره.

رزق الله أمة الإسلام الاستمساك بدينها ووقاها شر الانسلاخ من آيات كتابها، بنبذه وراء ظهورهم فيتبعها الشيطان ويسوقها إلى الضلال وسوء الحال والمآل فى كل أمرها، فإن فى الاستمساك بدينها وكتابها عزها وقوتها، كما فى الانسلاخ منه والإخلاد إلى الأرض وإيثار العاجلة على الآجلة شقاؤها فى الدنيا والآخرة.

التحديات كثيرة وفى كل المجالات، العالم يجرى ويسبقنا بمسافات تزداد مع الوقت اتساعًا، ولابد من النهوض العام الذى يبدأ من النفس البشرية، ويتسع ليشمل كل المجالات، فتكون لنا سياسة لها نظرة بعيدة، وبدائل وحلول لمواجهة ما يتوقّع حتى لا نفاجأ بأحداث لم تكن فى الحسبان، فننشغل بالتفكير فى حلها، بدلاً من المسارعة بالعمل، لابد أن تعد الجيوش والشعوب، ونكون فى حال يقظة دائمة، فلا نفاجأ بغدر عدو ولا بمكر مبغض.

إننا نملك ما لا يملكه غيرنا، وهو الدين الصحيح والعقيدة السليمة، فالرقى والتحضر أكثر ملاءمة وتناسقًا مع ديننا وهويتنا، ومع ذلك نرى دولة كاليابان، التى لا تعرف إيمانًا ولا إسلاما، تعمل فى دنياها بمقتضى

الإيمان والإسلام أكثر من المسلمين، فالسبق إلى العلم يحث عليه الدين. هم لجأوا إلى العقل، وعرفوا فطرة الله وسنته فى خلقه، وأن العلم يرفع أصحابه، فاستفادوا من ذلك كله.

فى اليابان الأمية ليست - كما هى عندنا - الجهل بالقراءة والكتابة، ولكنها فى هذا العالم، الذى يلهث وراء المعرفة ويعيش عصر انفجار المعلومات، هى عدم إجادة التعامل مع الحاسوب (الكمبيوتر). نحن فى أيام الملكية نقول: نريد مشروعًا لمحو الأمية. والأمية كما هى، بل تزداد، ومثل ذلك نرى سباقًا بين الروس والأمريكان للسيطرة على الفضاء وعلومه وغزو المريخ، ونحن فوق الأرض لا نستطيع حماية مصالحنا، ولا دفع العدوان عن أنفسنا ولا عن إخواننا فى الدين. إنه لا يليق بصاحب دعوة عظيمة - هى دعوة الإسلام - أن يعيش عالة على غيره، ونحن نعيش عالة على هذا الغير فى العلم ومنتجاته، وفى اللباس والغذاء وغير ذلك..

أين إذن نحن؟ نحن نحتاج إلى عقل جديد وتغيير كبير وعميق لنواكب ديننا، ونفهم هذا العصر الذى يحتاج إنسانه إلى الإسلام أكثر مما مضى، لابد من صحوة عقل وخلق وضمير للعودة إلى الدين، فما دام الإنسان منسلخًا من الاستعصام بالدين، فمن السهل أن يغزوه الشيطان، ويجره إلى الانحلال والضياع وإلى سفاسف الأمور، فيصبح غارقًا فى مستنقع الحياة، لا يستطيع الإفلات من براثنه. والآية التى أوردناها أخيراً جاء فيها: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، فنجاته فى التمسك بالهدى الربانى، ولكنه أخلد إلى الأرض واختار الدونية، وبدلاً من أن يرتفع، ويكون قدوة وقائداً إلى الخير والسلام، فى

العلم والعمل - ارتبط بالأرض والتصق بماديتها، وجرى وراء أهوائه وشهواته والأشياء التافهة الصغيرة..

﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، أى يعيدون النظر فيما هم عليه، فيغيرون ما بأنفسهم، ليمتلكوا أسباب النصر والقوة والتغيير فى واقع الحياة. ثم تقول السورة الكريمة: ﴿ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٧]، نعم، هم ظلموا أنفسهم لأنهم حرموها حقها من نور الهدى وضياء الحق وسكينة القلب، وهذا من أشنع أنواع الظلم. ثم يقول سبحانه: ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٨، ١٧٩] فجعل الله القلب والعين والسمع أدوات يتعامل بها مع الكون والخلق، والتوجه الإرادى بهذه الملكات هو الذى يغير الأمم والأفراد.

إن بلاء الغفلة الذى نحن فيه فى حاجة إلى علاج، وكل مسلم مسئول بحجم موضعه فى مجتمعه، ومكانته بين الناس.. وصدق الله الذى يقول: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥٠] فمن فر إلى الله امتنع من غيره، ومن فر إلى غير الله لم يمتنع منه، فقوة الأمة بأن تجمع شملها وتوحد صفها، وتتوجه إلى ربها، مصححة إيمانها وفاهمة لدينها وعاملة بمقتضاه مستمسكة بآيات كتابها، محاذرة الانسلاخ عنها.. فإن فعلنا ذهبنا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة..

[١٠]

المسلمون بين الكيد والتقصير

يقـول الله تعـالى: ﴿ إن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، حال الأمة الإسلامية - في مجمله - سيئ؛ إذ تواجهه أزمات طاحنة في الداخل والخارج، والأعداء لايتوانون في إضعافها، وغزو إنسانها من داخله، حتى لا يكون فاعلا في الحياة، والآية الكريمة المذكورة هنا تطمئننا: ﴿ وَإن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾، ونلاحظ أنها طمأنة مشروطة بشرط هو ملازمة الصبر والتقوى، فالصبر يمنع صاحبه من الاستسلام، والتقوى تدفعه الى تحمل تبعة المواجهة والتغيير، ولا يصلح التقى أن يكون بغير رسالة عليا يؤديها، ويسعى من خلالها الى الإصلاح ما استطاع. هذه الرسالة لازمة للمسلم في كل زمان، وخاصة حين يحيط الخطر بالأمة الإسلامية، وتنزف جراحها هنا وهناك، فهذه الأمة واحدة، ليس بمقتضى السياسة فحسب، ولكن وحدتها دين، ويجب السعي لتحقيق ذلك إن غاب، لأن وحدتها مناط قوتها وعز دينها. وإن أعداء هذه الأمة يعتمدون ثلاثة أساليب في حربهم إياها:

الأولى: الكيد للإسلام والمسلمين، وأقصد به التخطيط للإضرار بهم، والتحريض ضدهم.

الثانية: البغى والتعدى على حقوقهم علانية وبلا خجل. كما يكون ذلك مضمرا فى زخرف القول ومعسوله.

الثالثة: نصرة من يعاديهم، سواء أكان أحداً يثير فتنة فى الداخل، أم عدواً يأتى من الخارج، كما جرى فى حرب الأوجادين بين إثيوبيا والصومال. كل ذلك يحدث على حساب ما يسمى «الأعراف الدولية» و«الحقوق الإنسانية»، ثم يزعمون أنهم حماة الحقوق، والمدافعون عن الديمقراطية ورعاة الحرية، وهم أكبر مخالفيها إذا تعارضت مع مصالحهم، وقد يذهبون فى مخالفتها الى حد إنزال العقوبات الاقتصادية والعسكرية بالدول التى ينبذونها من منظور مصالحهم واستراتيجياتهم، وإلصاق تهمة الإرهاب بها، التى طالما اتخذوها ذريعة ومبرراً لتحقيق أطماعهم ومصالحهم، فأنزلوا بها ما تراءى لهم من عقوبات، وعلى الشعوب المعاقبة أن تدفع الثمن من دماء الأبرياء واستقلال بلادهم. ونجد مصداق ذلك فى تعامل الولايات المتحدة الأمريكية مع أكثر دول المنطقة العربية والبلاد الإسلامية.

سنن كونية ثابتة:

ذكر ابن كثير فى التفسير أن رسول الله ﷺ قال: «**إياك ومكر السيئ، فإنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، ولهم من الله طالب**» (رواه ابن أبى حاتم)، وذكر الفخر الرازى فى تفسيره أن رسول الله ﷺ قال: «**أعجل الشر عقابا البغى، واليمين الفاجرة**»، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «لو بغى جبل على جبل لاندك الباغى»!! هكذا تبدو المسألة، وهى فى القرآن أجلى وأوضح، فالذى يمكر السوء، والذى يبغى ويتعدى، لا

يترك أى منهم بدون عقاب.. يقول تعالى: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠]، ويقول ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٨١].

هذه قواعد ثابتة وسنن إلهية حكم الله بها حركة الحياة، فهذا الكون له صاحب وخالق، يرعى أمره، ولا يرضى الظلم من نفسه، ولا يرضاه من أحد من خلقه، وإن بدا أن المفسد والظالم والباغى ممكَّن وقوى، فهذا ظاهر خادع، ولو تنبه المؤمنون لحقيقته، وراعوا سنن الله تعالى، لوجدوا الظالم والمفسد والباغى ظلالا باهتة لبشر وقوى آيلة للزوال.

إن ما يقع للمسلمين من ضوائق ومصائب وأزمات، نبهنا الله تعالى إلى أنها ستزول ما سلكنا الطريق الصحيح، الذى بيّن الدين لنا معالمه، ووضحت الشريعة الإسلامية قسماته.. يقول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ١٥٣].

والاتقاء (التقوى) هو المنهج الذى يرسم طريق النجاة، ويعنى التجنب والاحتماء من شئ ضار، مما يعنى أيضاً ضرورة التزام النافع والاحتماء به.. وتستلزم هذه التقوى تفاعلا متكاملا معها من صاحبها، بمعنى أن تتفاعل الكينونة البشرية كلها معها، فيعيش الإنسان منهج التقوى بعقله وقلبه ووجدانه وجوارحه. ولكن كيف يعيش التقوى بعقله؟ فالتقوى تعاش بالقلب والوجدان، وتترجم الجوارح أثرها، إن العقل يعيش معنى التقوى حين يزن الأفعال التى يأتيها صاحبه، ولا يتسرع ولا يتهور فى اختيار

فعله، ويحجم دور العاطفة التى إذا انطلقت وحدها فربما أضرت أكثر مما نفعت.

إن المتربصين ببلادنا يريدون الوصول بها الى وضع مهلهل وعجز عن إثبات وجودهم ونصرة حقوقهم ومواجهة ما يدبر لهم من مكايد وأضرار، فهم المستفيدون من ذلك، ولهذا تعمل الأصابع المشبوهة عملها فى مجتمعنا منذ زمن طويل، وهم يوقنون بأن أجيالنا الجديدة إذا ربيت تربية إسلامية صحيحة، ووعت حقائق العصر مع حقائق الدين؛ فإن الموازين ستتغير، لذلك يبذلون قصارى جهدهم للحيلولة دون ذلك.

ولكى يقوى فى نفوسنا الأمل ، علينا أن نقرأ ونفهم التغير العجيب الذى أحدثه الإسلام فى حياة العرب، ونقلهم به من الجاهلية إلى رحاب الدين الحنيف، لقد كانوا فى ضلالة كأشد ما تكون الضلالة، وفى ظلام عقلى وروحى ووجدانى كأشد ما يكون الظلام!! ثم جاء الإسلام وتغيرت حساباتهم ومنطلقاتهم وأهدافهم؛ تغيرت الأسس والجذور، وتهذبت الفروع، فخرج إنسان الجاهلية إلى حياة جديدة، فبهر الدنيا وأدهشها بأعماله الرائعة.

هذا الإسلام الذى أخرج العرب من ظلمة الجاهلية إلى نور الإيمان هو الوحيد القادر على إخراجهم اليوم من نكبتهم وحيرتهم.. وصدق من قال: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» . ولا غرو فهو دين إحياء للأفراد والأمة. كما نبهنا إلى ذلك قوله تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٢٤]، كما بين لنا القرآن ذلك فقال تعالى: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ**

اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فقد كانوا فى ضلال بجهلهم للحقيقة، وظلم بعضهم لبعض، وبغى بعضهم على بعض، وفساد كثير منهم وإفسادهم، فهذب الإسلام تلك النفوس، وعلمها الكتاب والحكمة، وزكاها ورباها ، فأصلحت بعد إفساد، وعدلت بعد ظلم.

التوازن فى حياة المسلم:

وليس فى الإسلام طريقان أحدهما ننال به الدنيا والثانى للآخرة، بل هو طريق واحد، علاماته الكبرى : الإيمان والعمل الصالح، وهذا واضح فى الكثير من آيات القرآن، فمثلا يقول الله تعالى : **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [النحل: ٩٧]، ويقول سبحانه : **﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** [غافر: ٤٠] فالآيتان تضمنتا الإيمان والعمل الصالح كطريق واحد تنال به الحياة الطيبة فى الدنيا والجنة فى الآخرة. وهذا هو التوازن الذى نريده، لا التناقض ولا التنافر الذى يجعل للدنيا منهجاً شيطانياً وللآخرة منهجاً ربانياً، فلا ينال الإنسان هذه ولا يفوز بتلك. . هو توازن فى البناء، وتوازن فى التعاطى مع الأشياء، وتوازن فى العيش بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة. . ودعاء المؤمنين الذى سجله القرآن فى سورة البقرة يجلى لنا هذا التوازن : **﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي**

الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠١-٢٠٢].

فلنراجع أنفسنا فى كل ما نعمل ونقول، فى سرنا وعلننا، فى أمورنا الخاصة والعامة لنستوثق من صحة وعينا بالقرآن الكريم وسنن الله فى الخلق، ونظام الحياة، وفى تحصيل ما أمرنا ديننا الحنيف من أسباب القوة والمنعة وما فيه خيرا الدنيا والآخرة، فإن وجدنا من أنفسنا خيراً وحسن اتباع للحق حمدنا الله تعالى وسألناه المزيد، وإن وجدنا غير ذلك استغفرنا غافر الذنب وقابل التوب، وعولنا على تصويب أخطائنا، وتصحيح مسارنا، وإخلاص نوايانا، متواصين بالحق والصبر على مشاقه، يطيب عيشنا وتصلح لنا آخرتنا...

* * *

[١١]

من معالم رحلة الدنيا

يقول الله تعالى فى سورة الملك: ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك:٢] اقتضت حكمته - سبحانه - أن يخلق الناس ويبتليهم؛ أى يختبرهم ويمتحنهم ، بالشر والخير، ليعلم من يسير مع الامتحان فى طريق الفلاح والنجاح، ومن يسير معه فى سبيل الفشل والضياع، والآية تشعر بأن هذا الاختبار من أجله خلق الله الإنسان، مما يعنى أن الله خلق الناس واختبرهم بالنعماء والضراء، ليعلم من يعبده ممن لا يعبده - سبحانه - تربية لهم وتهيئة لإحسان عمارة الأرض، والفوز بجنته. والآية تقول: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، فلم تذكر الآخرين الذين لم يحسنوا عملاً، وهذا لطف من الله تعالى بخلقه، وترغيب فى الأصل الذى خلق عليه آدم - عليه السلام - وهو إحسان العمل، أما إساءة العمل فهى انحراف عن طريق الأب الأول - عليه السلام.

وفى تفسير القرطبى: قال ابن عمر - رضى الله عنهما - : تلا النبى ﷺ «**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**» - حتى بلغ: **أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** فقال: «**أورع عن محارم الله، وأسرع فى طاعة الله**».

فالرسول ﷺ يفسر هنا: ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ بالورع عن محارم الله، والمسارعة فى طاعته - سبحانه - ومن أجل هذا خلق الله الموت والحياة،

أو خلق الإنسان وأعطاه الحياة وسلبها منه، إلى بعث لا ريب فيه، اختباراً في الأولى وحساباً في الآخرة.

وهذا «الورع» وتلك المسارعة هما سلاح المؤمن على مستوى الفرد والبيت والأمة، بهما يحتمي من الزلل، ويدفع شر كل ذي شر، وينجز في الحياة علماً وعملاً صالحاً، والحياة الدنيا قد تبدو رحلة قصيرة، فهي في الغالب بضع عشرات من السنين، لكن طريقها ليس مفروشاً بالورد، لا أمام المؤمن ولا أمام الكافر، ففي طريق الحياة ابتلاءات واختبارات؛ بالنعم مرة وبالضرر مرة لقوله تعالى: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾ [الأنبياء:٣٣] أي يختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم. والإنسان تدعوه نوازع نفسه وأهواؤها ليذوق من هذه المتع ومن تلك، وتميز المسلم هنا هو أنه ليس منفلتاً من القيود، يأخذ ما يشاء وكيف يشاء، بل هو مقيد بشرعه ودينه، يتحرى الحلال وبالاستقامة في عقيدته وعبادته وعمله ومعاملاته.

وأما الكَبَد والمشقة التي يعيشها الإنسان في الحياة الأولى ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ** ﴾ [البلد:٤] فهذا قضاء قضاه الله تعالى، حتى تقل رغبتهم في العمل للدنيا وحدها، فهي ممر لا دار مقر، وحتى يتميز الخبيث من الطيب.. وإن لم تكن لدى الإنسان مجاهدة لنفسه، ليسير بها على مقتضى الشرع، ليكبح جماح أهوائها، فكيف ينال مكافأة الآخرة؟ أبغير تعب؟!

إن العمل الصالح هو الثمرة الطيبة التي يجدها المؤمن، ويجب أن يحيطها بالعناية والرعاية؛ خوفا عليها من أن يضيعها الهوى أو الشيطان

فيحبطها، فمثلا يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فالتصدق عمل خير رغب فيه الدين، ولكن يجب أن أحيط هذا العمل بالإخلاص لله تعالى، وترك إيذاء من أحسن الله إليهم على يدى، حتى لا يبطل هذا العمل، وتضيع ثمرته علىّ؛ ولأن الله تعالى يعلم أن الإنسان بطبعه لا يسير على حال واحدة من الطاعة والإيمان، بل قد يخطئ فى بعض الطريق، فقد فتح له سبحانه باب التوبة والمغفرة، وقد قرن القرآن ذلك فى بعض مواضعه بالحديث عن خلق الإنسان أو تكليفه بإعمار هذه الأرض، يقول الله تعالى على لسان نبيه صالح ـ عليه السلام: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١].

عمارة الأرض مسئولية فردية:

ويستوقفنى كثيراً، ويملأ عقلى وقلبى نورا، ويمد بصيرتى بقبس من حكمة الله ورحمته ومنته، هذا الربط الربانى بين عمارة الأرض وعمارة القلب بالاستغفار والتوبة وقرب الخالق من خلقه وإمداده إياه بمدده، إن ثمة ترابطاً وثيقا قضى بأن لا عمارة للأرض على الوجه الذى أراد الله منا ولها، إلا بالإيمان به وباليوم الآخر، يحققه الاستغفار له والتوبة إليه، وإن فى غيبة هذه الهدايات الإلهية خراب الأرض وسوء حال أهلها. وهو ما نجده فى زماننا المعاصر ، ونصطلى به نحن وغيرنا وأعداؤنا، فلا أمن ولا سلام ولا ارتقاء وتنمية ترجى إلا بإتيان الطاعتين وأداء العبادتين بصدق وعدل.

فمن معالم الرحلة البشرية فوق الأرض ومناط سلامتها وتحقيق مقصودها، توبة العبد من ذنبه، واستغفاره من تقصيره، والخالق المعبود سبحانه فتح الباب على مصراعيه لكل من اقترف ذنباً أو أتى معصية أن يتوب ويستغفر، فإن صدق في توبته واستغفاره فهو لا شك مقبول، ولم لا والله تعالى منه نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد. وهذا يعني أن الله استخلف خلقه في أرضه، لا لحاجته إليهم، وإنما هي منّة منه وتفضل على عباده. يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ [فاطر:١٥]. نعم، فقراء الى شريعته، وإلى تعلم سنة نبيه ﷺ وإلى استباق الخيرات، فقراء إلى فضله ونعمته وعطائه ورزقه. وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**»(١).

ومن معالم رحلة الحياة الإنسانية الدنيا، أن خالق الناس علمهم طريق الخير وطريق الشر كليهما، فليس لهم على الله حجة، وزادهم فبعث لهم الرسل لتذكرهم إن نسوا، وتعلمهم إن جهلوا. قال تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ [الإنسان:٣]، وقال عن رسله الذين بعثهم ﴿**رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾ [النساء:١٦٥]. وزاد فضل الله على خلقه وفاض، فنبههم إلى أعدائهم الذين يحاولون عرقلة مسيرتهم وصرفها عن طريقها،

---

(١) رواه مسلم.

من شياطين الإنس والجن، فنبهنا الله تعالى إلى عداوة الشيطان وأمرنا أن نتخذه عدواً. قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [فاطر: ٦].

ومن معالم تلك الرحلة أيضًا أن الله يريدها كلها من أجله: أى لنفع البشر عامة؛ لأنه الخالق الواهب المتفضل. يقول تعالي: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٦٢] قال الطبرى: روى عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ « **يافاطمة، قومى فاشهدى أضحيتك، فإنه يغفر لك فى أول قطرة من دمها كل ذنب عملتيه، ثم قولى: إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ». قال عمران: يارسول الله، هذا لك ولأهل بيتك خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: « **بل للمسلمين عامة** ».

فبذلك يكون الله تعالى قد عرَّف خلقه بمهمة محددة يقومون بها، وهى الخلافة عن الله فى عمران أرضه، وبيّن لهم معالم هذه المهمة وجوانبها، فيتحمل كل إنسان جزءاً من هذه المسئولية العظيمة، كل حسب طاقته وقدرته وموقفه فى الحياة، سواء أكان حاكمًا أم محكومًا، لا يخلو من ذلك عاقل راشد، الرجل فى بيته وعمله، والمرأة فى بيتها، والطالب فى معهده، والوزير فى وزارته... إلخ، وعمارة الأرض لا تكتمل على أيدى أناس لا يخشون خالقهم، ولا تكون عن طريق من يملأها بما يفسد البيئة ويسرف فى استهلاك مواردها، وعمارة الأرض لا تعنى أن ننطلق فنفصل العلم عن الدين الحق؛ ولا أن نفصل الأخلاق عن شرائع الله تعالى؛ لأن هذا الفصل ضلال وإفساد فى الأرض لا يهتدى معه الإنسان

إلى طريق مطمئن سوى، فعمارة الأرض محكومة - فى صورتها القويمة - بالعلم الصحيح، والخلق القويم، وبطاعة الله ورسوله، فنطلب الخير، ونبحث عن فضل الله بتحرى ما أحله سبحانه، واجتناب ما حرمه، وبالعمل الصالح الجاد فى كل وجوه الحياة.

ويجدر بنا أن نشيع فكرة المسئولية الفردية الملقاة على عاتق كل إنسان فى عمارة الأرض، فعلى كل إنسان واجبات تدخل فى إطار عمارة الأرض، ولو راعينا ذلك، لكان المجتمع عاملاً وفق شرع الله سبحانه، ولازدهرت القيم، وقلت المفاسد، وصلح الراعى والرعية.

ولا يكفى لاستقامة النفس أن أعلم مهمتى فى الحياة وما أوجبه الله علىّ من تكاليف، بل يجب أن أضيف إلى ذلك يقيناً لا يتزعزع فى أن الله سيسألنى عن هذه المهمة يوم القيامة: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ**﴾ [النجم: ٣٩، ٤٠]. كذلك يجب أن يرسخ فى نفسى يقين بأن الله مطلع علىَّ وناظر إلى كل عمل أعمله، صغيراً كان أم كبيراً، فإن كنت مهندساً أقيم عمارة - مثلاً - ورسخت هذه المعانى فى نفسى، فلن يكون للغش سبيل لى، وكذلك الحال بالنسبة لكل ذى سلطان أو ذى عمل. وهذه رسالة التقوى وحصيلة رقابة الله، وآثارهما فى واقع الحياة، ودورهما فى إصلاح ما فسد، وتقويم ما أعوج. والله تعالى يقول: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [يونس: ٦١].

فالله تعالى لا يغيب عنه أى شأن، ولا أى أمر، مهما كان صغيراً دقيقاً، ويعمله صاحبه فى السر، فهو سبحانه يعلم هذا العمل قبل أن يخوض فيه صاحبه، ويعلمه وهو يخوض فيه، ويعلمه بعد أن ينتهى منه، ولا يغيب عنه من شأن الخلق شيء. وهذه الرقابة التى يستشعرها العبد يذكرنا بها القرآن الكريم كثيراً حينما يكلمنا عن اطلاع الله على خلقه، ويبصرنا بأن هذه الرقابة إن كانت فاعلة صارت مفتاحًا لفلاح صاحبها فى الدنيا ونجاته فى الآخرة.

إننا بذلك ننبه على أهمية الدور التربوى فى إصلاح الذات للمشاركة الفاعلة فى إصلاح البشرية، والمسلمون هدفهم الأعظم هو عمارة الأرض بمنهج الله تعالى، وعمل الخير فى الناس ونفعهم بقدر الطاقة – وحول هذا المحور تدور حياتهم، ويعدونه الذخر الذى ينتظرون ثوابه من الله تعالى، فكل واحد منا، فى كل خطوة يخطوها، وكل عمل يعمله، ينبغى أن يسير وفق نهج دينه وشريعة ربه – سبحانه وتعالى – يأتمر بأمرها، وينتهى بنهيها، وأن تربية العبادات المكتوبة تربية تزرع فى قلبه ملكة التقوى، وتقوى فى نفسه الوازع الدينى.

التوبة نجاة للعالمين:

وينبغى أن يثبت فى الذاكرة المسلمة أن عقوبة العصاة من الأفراد قد تؤجل إلى الآخرة، ولكن الأمم المقصرة والعاصية – وفقًا لسنن الله فى خلقه – لابد أن تذوق من بأس الله فى الدنيا قبل الآخرة، فى صورة خسف أو عذاب، أو تضييق فى الرزق، أو شيوع للقلق والأمراض البدنية والنفسية.. أو غير ذلك من البلايا التى تحيق بالأمم. ولا يقع بلاء إلا بذنب

ولا يرفع إلا بتوبة، ولكن تغلبة الفساد في واقع حياتنا المعاصرة وإصرار الطغاة والمستكبرين في الأرض على ظلمهم لم تغن عنهم النذر، كما فعل الطغاة من قبلهم من قوم عاد وثمود وآل فرعون وأمثالهم، والله تعالى يقول: ﴿ **وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يونس: ١٠١]، ويقول : ﴿ **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ** ﴾ [يونس: ٧٣]، فإن اجتاحتهم الفيضانات، أو هدمت مساكنهم الزوابع والزلازل، لم تجد من قلوبهم مخافة عقاب الله لهم على سوء فعالهم فيرجعوا عن ظلمهم وضلالهم، بل لجوا في عتو ونفور، وقالوا إنه غضب الطبيعة التي لا تعقل ولا إرادة لها، لا غضب الله وعقابه للأمم على غيهم وطغيانهم.

* * *

[١٢]

إنقاذ أمة الإسلام

يقول النبى ﷺ : **«بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء»** (رواه مسلم والترمذى) يعيش المسلمون اليوم فى عالم يرفع لواء حضارة غريبة – فى جوانب كثيرة منها – عن الإسلام، فأصحاب هذه الحضارة ملكوا أسباب القوة، فطغوا، ودعتهم فلسفتهم المادية فى فهم الحياة إلى السعى إلى السيطرة على الآخرين بشتى السبل والحيل، حتى تقسم العالم إلى دول متقدمة – هم أصحابها– وأخرى متخلفة – نحن المسلمين محسوبون فى زمرتها.

الغرب يلتزم مادية قاتلة، ويتبع خطة دنيوية بحتة، وشاع فيهم من العلل ما باتوا يشكو منه مُرّ الشكوى، فقد انحلت روابط الأسرة، وفسدت علاقات الأبناء بالآباء والأمهات، وتفشّى فيهم العنف والمخدِّرات – وهم يشكون من كل هذا، ويحاولون أن يجدوا مخرجا من هذا الذى زحف عليهم باسم الحضارة.

والكارثة هى: أن المسلمين – كثيراً منهم – قلدوا الغرب فى عيوبه، وقبل ذلك لم يعملوا بدينهم وشريعتهم على الوجه الذى يرضى الله تعالى، فهُزموا من داخلهم، وطمع فيهم عدوهم، ورضوا بالدنية فى دينهم ودنياهم . . وهذه هى المحنة التى تواجه الأمة.

لقد حذرنا الله من اتباع أخطاء الآخرين وسقطاتهم، لكننا سقطنا

---

(١) رواه مسلم والترمذى.

واستُدرجنا.. يقول الله تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

إن الأمة التى تبلغ فى تعدادها خمس العالم، وتنتشر شرقا وغربًا وشمالا وجنوبًا، تمثل فى جسد البشرية جزءًا لا يُستهان به، ولكن العبرة ليست فى الكم والعدد، إنما العبرة أساسًا فى نوعية الإنسان الذى يتكون منه هذا الكم.. العبرة فى سلامة العقيدة، وقوة الإيمان وغلبة اليقين، والاهتداء إلى الطريق الذى تعمر به الأرض، ويصلح أصحابه أن يكونوا خلفاء عن الله فيها.

إن وراثة الأرض لن تقع فى أى مرحلة فى يد غير المؤهلين لها، ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقد يكون المؤهل غير مسلم، ولن تظلمه القوانين والسنن التى سير الله تعالى عليها حياة خلقه.

وقد مر بالمسلمين زمن طويل كانوا فيه ورثة الأرض وسادتها، وكانت أوربا تتعلم على أيديهم، والملوك الأوروبيون في ظلمة الأمية والجهل، ويرسلون بأبنائهم إلى بلاد المسلمين، في الأندلس خاصة، ليتربوا ويتعلموا، ولم يجدوا غير المسلمين أحدا يقوم بهذه المهمة.

وحين تخلى المسلمون عن سر قوتهم، فلم يتدبروا القرآن، ولم يعملوا بهديه، ولا هدى نبيه، ولم يحترموا السنن الإلهية – زالت دولتهم، وتفرقت كلمتهم، وضعف شأنهم، وهانوا على غيرهم.

استحقاق نصر الله:

ولا ينبغى أن نفقد الأمل فى التغيير؛ بسبب الوضع المتأزم الذى نعيشه، فالله تعالى يقول: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ

الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فالقوى – من هذه الأطراف المتنازعة على السيادة فى الأرض – لا يبقى قويًا، ولا الضعيف يظل ضعيفًا، والمستعزّ بغير الله لا يبقى عزيزًا، ولا المستذل – إن حفظ حق الله عليه وراعى سننه – يبقى مستذَلا، فالطريق أمامنا مفتوح لاستعادة ما فاتنا وضاع منا، وكلنا – بجميع فئاتنا وطبقاتنا – مسئولون، رجالا ونساءً، وحكاما ومحكومين.

وقد مهد الله لنا الطريق، وعرفنا السبيل، وأكد لنا بوعده أنه سينصر من عباده من آمن به حق الإيمان، ولزم هديه، واتبع شرعه: **﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ..﴾** [الروم: ٤٧]؛ فالشرط هو الإيمان، وهذا الذى يسأل عنه كل إنسان، ولا أحد منا يجد لنفسه عذرًا – مهما التمس لها الأعذار – ليتنصل من هذا الشرط (الإيمان الصادق القوى).

كان إنسان إذا استرجع شريط حياته الماضية، ونظر فى حاله القائمة، سيعرف فيها مواطن خلل كبيرة هو مسئول عنها..

هناك علل فى القلوب، وعلل فى الجوارح، وذنوب ترتكب ولا نبالى بها، فكم تمتلىء النفوس بالكبر والحقد والحسد والغل!! وكم تطفح القلوب بالرياء وحب البروز والظهور! وكم تلقى الألسنة الكلام على عواهنه كذبًا، وخوضا فى أعراض المسلمين والمسلمات!! والله تعالى يقول فى كتابه العزيز: **﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾** [الحشر: ١٠]، فنفى عن القلوب المؤمنة أن تحمل غلا أو حقدا لأحد من المؤمنين فى أى زمن، ويقول تعالى: **﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ**

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥]، فالدين القيم يقوم التعبد فيه على الإخلاص لله تعالى.

ويقول النبي ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[١].

مسئولية الفرد تجاه الأمة:

حين ننظر في حياتنا سنجد أننا - أفرادا ومجموعات - مسئولون عن هذه الآفات التي حاربها الإسلام، فهلا عدنا إلى مولانا، وفررنا إلى الله سبحانه، وتخلينا عن هذه العيوب التي تعرضنا لتدمير تدريجي يجهض فينا كل أسباب القوة.

إن ما نريده هو صحوة، صحوة حقيقية في قلب كل واحد منا، تبدأ بأن نُحيل أنفسنا على كتاب الله تعالى، ونعرضها على سنة رسول الله ﷺ لمعرفة مواطن الضعف، ونعزم على تلافيها وتلاشيها.

وقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يعرضون أنفسهم على الكتاب والسنة، وهذا المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - يقول: عرضت نفسي على كتاب الله تعالى فلم أجدني في أهل الجنة، ولا في أهل النار، ولكني وجدتني في قوله تعالى: ﴿ **وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة: ١٠٢].

هذا العرض أو تلك المراجعة مطلوبةٌ على مستوى كل فرد مؤمن، والله تعالى ينبهنا بعمق إلى معنى الرقابة التي تحرك فينا الهمة للإقبال عليه وترك مخالفته وعصيانه.. يقول تعالى: ﴿ **وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ**

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

من قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

ورقابة الله عند المؤمن هى جهاز المناعة، فإذا حاك في صدره شيء أو مسه طائف من الشيطان، استيقظ قلبه وحسه المؤمن سريعا. ومثله كمثل صاحب الرداء النقى يخشى أن تظهر فيه بقعة، ولو صغيرة، وأما صاحب الملابس القذرة، فإنه يضيف سوءا إلى سوء، ولا يعبأ ببقعة جديدة أو بقع.

والله تعالى يغار على قلب عبده، ولن يدخل أحد الجنة إلا بسلامة هذا القلب، يقول الله تعالى: **﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾** [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، ويقول النبى ﷺ: « **ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب** »(١).

ينبغى ألا ينام أحدنا إلا وقد راجع نفسه، وصحح عوج حاله، وعزم على الطاعة والإنابة والتوبة، هذا الصلاح الذاتى كله مسئوليةٌ شخصية، على مستوى العمل الفردى الذى يستشعره كل إنسان حين يستمع إلى قوله الله تعالى: **﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾** [مريم: ٨٠]، وقوله سبحانه: **﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾**[مريم: ٩٥]، فيشعر برهبة المسئولة امام اله تعالى مباشرة.

وما الأمة إلا مجموعة أفراد؛ إن صلحوا صلحت، وإن مالوا مالت.. وهذه الأمة فى الإسلام هى مركز الثقل فى مسألة الدولة، فهى التى تأتى

(١) رواه البخارى ومسلم.

بالحاكم: ﴿ ..وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ.. ﴾ [الشورى: ٣٨]، فإن صلحت الأمة، وعرفت حق ربها، وقوى إيمانها، واستعصمت من الفساد والانحلال - أصلح الله لها كل شيء.

يجب إصلاح الفساد، وسد الخلل، ودفع الأمة إلى طريق العزة والقوة، وحثها على المضىّ فى الطريق الذى يؤدى إلى ذلك، يقول الله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.. ﴾ [التوبة: ٧١]. هذه مسئولية جماعية، والأمة فى محنتها يجب أن تعرف الطريق، وتصبر على لأوائه، وتؤمن بنصر الله..

وفى سبيل ذلك ينبغى ألا ننشغل بالفروع التى لا أثر لها، فمثلاً انشغل الساسة العرب، بل ربما رحبوا بذهاب بيريز ومجىء نيتنياهو، وكذلك فعلوا حين ذهب نيتنياهو وجاء باراك، ولا فرق بين وجه صهيونى وآخر، فكلهم عدوانيون، وهدفهم ودينهم الابتلاع ثم الابتلاع، فالقدس عند كل هذه الوجوه القبيحة هى العاصمة الأبدية والموحدة لإسرائيل، والاستيطان استراتيجية إسرائيلية ثابتة. وابتلاع الأرض الإسلامية، ومسخ هويتها، والامتناع تماما عن إعادة اللاجئين الفلسطينيين إلى بلادهم وأوطانهم - كلها مفاهيم ثابتة لا يختلف عليها الساسة الصهاينة، مهما يكن القناع الظاهر أمامنا وعلى رأسهم السفاح شارون.

فلماذا نشغل أنفسنا بمجىء هذا وذهاب ذاك ما دامت الخطة واحدة، المهم هو أن نشغل أنفسنا بالخطة المناسبة لانتشال أمتنا من وضعها المهين التى هى عليه.

[١٣]

التزكية

الإمامة فى الدين لا تورث؛ فإن مناطها أن يقوم الإمام بالحق، ويرعى العدل فى الناس، ويؤدى الأمانات إلى أهلها.. ولذلك قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فحتى لو كان الإنسان من عقب إبراهيم عليه السلام وذريته، فإنه لا يرث الإمامة عن آبائه ما دام ليس أهلاً لها.

والإمامة (وهى ليست النبوة) هنا منصب جماهيرى، يمنحه الناس لبعض أهل العلم والتقوى، لما يرونه منهم من حسن خلق واستقامة وأمانة فى العلم، مع زهد فى المناصب والدرجات الدنيوية.

وفى المقابل نجد دعوة أخرى لنبى الله إبراهيم عليه السلام فحين ترك زوجه هاجر وابنهما إسماعيل عليه السلام فى صحراء لا طعام فيها ولا شراب بأمر من الله تعالى، دعا ربه فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ١٢٦].

فقد أراد الخليل عليه السلام أن يكون الرزق مرتبطًا بالإيمان بالله واليوم الآخر، فلا يرزق إلا المؤمن، لكن الله تعالى كفل الرزق لعباده كلهم؛ بارهم وفاجرهم،، مؤمنهم وكافرهم، فكل يسعى لينال نصيبه منها،

ولكن من سار فى نعمة الله ورزقه سيراً كافراً كان متاعه مقصوراً على الدنيا، ويحرم يوم القيامة من نعيم الجنة، ويكون مصيره إلى النار.

فالدنيا لها حسابها ونظامها، وكذلك الآخرة لها حساب ونظام، ففى الدنيا لا حظر على فضل الله ﴿ **كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً** ﴾ [الإسراء: ٢٠]، فلا عجب أن نجد كافراً قد بسط الله له الرزق فى الدنيا، ومؤمناً قد ضاقت عليه الحياة، وقل نصيبه منها، فالإكرام والإهانة فى الدنيا لا يرتبطان بكثرة المال والمتاع وقلتهما. وأما رزق الآخرة، فهو من فضل الله الذى يمنحه لمن آمن به فى الدنيا، وأحسن السيرة فى حياته الأولى.

وسائل تزكية النفس:

وثمة دعوة ثالثة دعا بها خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وانطبقت على خاتم الأنبياء محمد ﷺ، فقد دعا إبراهيم ربه أن يبعث فى ذريته رسولا منهم يقودهم نحو الحق: ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وجاءت الاستجابة بعد قرون طوال، وبُعث فى الأمة وفى العالم كله خاتم الأنبياء محمد ﷺ. ودعاء سيدنا إبراهيم لم يكن أمنية مجردة، بل تضمن العناصر الأساسية والمهام الكبرى التى يقوم بها هذا النبى ورسم الخطوط العامة لمنهاج دعوته: البلاغ عن الوحى، وتعليم الكتاب والحكمة، وتزكية النفوس وتربيتها حتى تتخلى عن الرذائل، وتتحلى بالفضائل.

هكذا كانت دعوة إبراهيم عليه السلام، وحين تحققت الأمنية سجلها القرآن علي أنها نعمة ومنّة من الله على خلقه، فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وقد نقلتْ هذه الآية الكريمة تزكية النفوس التى وردت في دعوة إبراهيم من الدرجة أو المقام أو الترتيب الثالث إلى الثانى، مما يعنى أن تقويم اعوجاج النفوس وحال القلوب عمل أساسى فى الدين الحنيف، حتى يتحقق المنهج الربانى فى حياة البشر.

ووضع التزكية فى هذا المقام من الدين ينقل الفضائل والتربية عليها ومراعاة الأخلاق الحميدة، وترك ما هو رذيل سيئ تعافه الفطرة ويرفضه العقل السليم إلى مكانة تكون فيها المناط الأساسى لصياغة الفرد وإقامة المجتمع وبناء الدولة.

والمصداق علي مكانة التزكية هذه هو استهدافها من خلال الفرائض والشعائر التي كتبها الله علينا، فنجد الصيام مثلاً هدفه التقوى التي هى ملاك التربية والتزكية، إن وجدت فى نفس إنسان استقام أمر دينه ودنياه.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ومثله الحج: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وأيضا صلاة الجمعة تعزز موضع التزكية من هذا الدين الذى اختاره

الله لخلقه، إذ ذكر القرآن معنى أساسيا لها فى تربية النفوس وتزكيتها، فيقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩] فهناك انخلاع واجب عندها من مشاغل الدنيا كلها، من لهو أو تجارة، وهذه تربية للنفس وتهذيب حتى لا تستغرقها الدنيا ولا يستعبدها حظوظ النفس، وتبقى صلة العبد بالله وحسن عبادته لمولاه هى الأقوى دائما، وهذا يُفهم جيدا من قول النبى ﷺ: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار»**[١].

فإذا رأينا التجارة - وهى مباحة - ترجأ وتجتنب مؤقتًا عند النداء للصلاة، وحتى الانتهاء منها، فإن المظالم والمعاصى والمحرمات أولى بالاجتناب والترك، وهذا هو التهذيب والتزكية، إذ تتخلص القلوب من معايبها، وتقدم مرضاة الله تعالى على متاع نفسها.

ولقد عاش أحد السلف معنى الآية الكريمة من سورة الجمعة، وما جاء بعدها من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] صلى هذا الرجل الجمعة، وقبل أن ينصرف وقف بباب المسجد وقال: «يارب قد لبيت دعوتك، وأقمت صلاتك، وأديت فريضتك، وانتشرت فى الأرض كما أمرتنى، رب فارزقنى وأنت خير الرازقين». لقد ترجم المعانى بصورة

(١) رواه أحمد والترمذى والنسائى.

عملية، فتهذب بالدين لكى يستقيم فى طلب نصيبه من الدنيا، ولذلك ينبغى أن يكون كل مسلم ترجمانًا عمليا لمعانى القرآن وأخلاقه وعباداته، وقد كان أسلافنا الأوائل عندما تنزل الآية من القرآن يأخذها كل واحد منهم وكأنها نزلت إليه هو خاصة، فيحاكم بها نفسه، ولم لا يكونوا ترجمة للقرآن فى حياتهم، وهكذا كان القدوة الأعظم ﷺ؛ فتقول عائشة حينما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ: **«كان خلقه القرآن»**(١).

ووضع التزكية في هذه المكانة من الدين هو منهج الإسلام وطريقته فى صياغة النفوس وتقويمها، وقد عاش الصحابة منذ نزول الوحى حتى الهجرة إلى المدينة والغالب على حياتهم فى ظلال الدين الجديد هو صياغة الفرد صياغة إيمانية، وتوثيق معنى الألوهية والربوبية والعقيدة فى النفوس، وترسيخ الأخلاق الكريمة، وهذه هى التزكية والتربية التى كانت مقدمة ضرورية ولازمة لتقوم دولة المسلمين فى المدينة، دون أن تنتهى التزكية، بل ظلت وستظل جزءا من منهج الإسلام العظيم.

ونلاحظ بسهولة أن المدة التى مكثها رسول الله ﷺ فى مكة قبل الهجرة؛ يصوغ العقول والنفوس والقلوب صياغة إيمانية – أطول من تلك التى قضاها فى بناء الدولة الإسلامية فى المدينة؛ ذلك لأن بناء الأنفس أصعب من بناء الدول، ولا تبنى الدول إلا ببناء الأنفس.

إن العبد مسئول عن تزكية نفسه، وتربيتها وتصحيح حالها مع الله، والتخلق بكتاب الله وسيرة رسوله وسنته الكريمة، ومسئول – أيضًا – أن يفعل ذلك مع أبنائه، فيحافظ عليهم من قرناء السوء والصحبة الفاسدة،

---

(١) رواه أحمد ومسلم وابو داود.

ويربيهم على الجدية واتباع أمر الله سبحانه واجتناب نهيه، ويغرس فى قلوبهم مخافة الله تعالى.

إننا لو أصّلنا هذه المعانى فى نفوس الجيل الصغير، ودرجوا على ذلك، لما استطاعت وسائل السوء المجلوبة إلينا أن تسوقهم إلى الانحراف، ولوجدوا فى دينهم من المناعة ما يحفظهم ويصونهم.

والمسئولية هنا مسئولية الجميع، حكامًا ومحكومين، رجالا ونساء، فالأزواج والزوجات يتعاونون تماما على إقامة هذه المبادئ والتربية عليها، حتى يظل للبيت سقف يحكمه مفهوم الحلال والحرام وتقوى الله تعالى ومخافته.

والتقوى والإيمان - وهما روح التربية الإسلامية - هما أحوج ما يحتاج إليه مجتمع المسلمين، بعد أن آل أمره إلى ما نعرف من فساد كثير، لا مخرج منه إلا بالعودة إلى حقيقة الإسلام، والالتزام بأمر الله ونهيه، والقيام بالمسئوليات والواجبات، وتربية الأبناء والبنات وتصحيح أحوالهم.

إن قمنا بذلك نكون قد فقهنا حق الفقه، ووصلنا إلى ما بشر الله به عباده فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، وجعله سنة ثابتة لا تتبدل ولا تتخلف.. يقول سبحانه: **﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾** [يونس: ٦٢-٦٤].

* * *

[١٣]

التقوى : ثمارها وصفات أهلها

نظرت فى أحوال الأمة الإسلامية فوجدتها صعبة؛ فهى تواجه عدوًا شرسًا لا يرعى فيها إلاً ولا ذمة، وإذا أراد أن يرضى الأمة فإنه يُرضيها بكلمة لا تقدّم ولا تؤخر، وأنا أرى هذا العدو - وقد أدركته الشراسة - يضن على الأمة الإسلامية بأى احترام، حتى بالكلمة.

قلت لنفسى: إن هذا بلاء، وتذكّرت قول السلف الصالح: «لا ينزل البلاء إلا بذنب ولا يرفَع إلا بتوبة»، ووجدت الأمة الإسلامية كلها - بحكامها ومحكوميها- تحتاج إلى مراجعة صادقة لحقيقة «التقوى» بمفهومها الواسع الشامل، فالحاكم مسئول أن يتقى الله فى شعبه، والأمة مسئولة أن تتقى الله فى أمره ونهيه وفى تربية الناشئة على الإسلام حتى ينشأوا على وعىٍ به.

حاجة البشرية للتقوى:

وجدتُ أن الله خاطب الناس عامة بالتقوى، يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [النساء: ١].. هذا خطاب عام للناس كلهم؛ لأن الإسلام دين عالمى وعام، وهو خاتم الرسالات.

كما خاطب بها الذين أوتوا الكتاب من الأمم السالفة، وإيانا فى قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ.. ﴾ [النساء: ١٣١]، يعنى أنها وصية قديمة مازال يوصى الله بها عباده، لستم بها مخصوصين، لأنهم بالتقوى يسعدون عنده، وبها ينالون النجاة فى العاقبة فى دنياهم وأخراهم، وفيه تنبيه لعظم شأنها عند الله سبحانه وتعالى، وعند المؤمنين خاصة، والناس كافة.

وبالتقوى خاطب الله المؤمنين فقال – مثلا –: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ [الأحزاب: ٧٠] ﴿ ...وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

بل خاطب الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بلزوم التقوى، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الأحزاب: ١].

مفهوم التقوى:

والتقوى ليست مقصورة على الالتزام بالأمر والنهى فى مسائل الحرام والحلال كما حددها الإسلام، بل لها مفهوم واسع، مفهوم حضارى، ومفهوم سياسى، تتصل به نهضة الأمة أو كبوتها، عزها أو ذلها، فالأمة الإسلامية مدعوة إلى أن تتقى الله فى السنن الإلهية الثابتة، والقواعد التى يقوم عليها نظام العمران البشرى، فالله جعل للعزة أسبابا، وللذلة – كذلك – أسبابا، وجعل للقوة سبيلاً، وللضعف أيضًا، فمن أخذ بأسباب

العـزة والقـوة عـز وقـوى، ومن تركـهـا ذل وضـعف : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب : ٦٢] .

فكـان لزامـا على الأمـة الإسـلامـيـة – أولاً – أن تعي هـذه القـواعـد التي وضعـهـا الله في خلقه، وعليهـا – ثانيًا – أن تسلك الطريق الذي تصل منه إلى التطبيق الأمين والمخلص والصحيح لقواعد الرقي الحقيقي .

يقـول الله تعـالى مخـاطبـا عـبـاده المؤمنين : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُـوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَـيْلِ تُرْهِبُـونَ بِهِ عَـدُوَّ اللَّهِ وَعَـدُوَّكُمْ وَآخَـرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُـونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٠]، فهـذه مثلا قاعدة وسنة من سنن الله في خلقه، فـالغـافل عن عـدوه، والمستـأمن لجـانب خـصـمـه – كـلاهـمـا قابل للهـزيمة بسـهـولـة، فـإذا لم نُعـدّ مـا أمـرنا الله به من القـوة المادية والمعنوية والثـقـافـيـة والحضـارة – سنكـون مـخـالفين لـسنة وقـانون إلهي . . سنة تقـوم حتى على الأنبياء، وتنطبق مقدماتها ونتائجها على البر والفاجر .

قـاعـدة أخـرى : العـدل ضـرورة لسـلامـة مـسـار أي أمـة، وكـمـا قـال حـكماؤنا : « تقوم الأمة العادلة وهي كافرة، ولا تقوم الأمة الظالمة وإن كانت مسلمة » !

هـذه قواعد وسنن عامة وثابتة تنحاز إلى من يراعيها؛ لذلك وجدنا من غير المسلمين من استطاع قهر التخلف والصعود من الحضيض إلى القمة، هم عـملوا بالسنة الكونيـة والاجـتـمـاعـيـة، فطنوا إليـهـا ووظّفوها توظيـفـا حقيقيًا .

وإذا كان الانسلاخ عن آيات الله يورد موارد الهلكة، فإن مخالفة سنن الله فى خلقه تدمر الحياة تدميراً، وقد جربت الأمة الإسلامية ذلك منذ أخطاء غزوة أحد، يوم استعجل الناس نصراً لم يستكملوا شروطه، فقد قال النبى ﷺ يوم أُحد لأمير الرماة عبدالله بن جبير رضى الله عنه « **انضح الخيل عنا بالنَّبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك، لا نؤتين من قِبَلك** » وفى صحيح البخارى عن البراء بن عازب قال: لما كان يوم أُحد ولقينا المشركين، أجلس رسول الله ﷺ أناسًا من الرماة، وأمَّر عليهم عبدالله بن جبير، وقال لهم: « **لا تبرحوا من مكانكم، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم قد ظهروا علينا فلا تعينونا عليهم** »، قال: فلما التقى القوم وهزمهم المسلمون حتى نظرنا إلى النساء يشتددن فى الجبل، وقد رفعت عن سوقهن قد بدت خلاخلهن، فجعلوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال لهم عبدالله: أمهلوا!! أما عهد إليكم رسول الله ﷺ ألا تبرحوا، فانطلقوا، فلما أتوهم صرف الله وجوههم، وقتل من المسلمين سبعون رجلاً » .

من ثمار التقوى:

ونعود إلى التقوى فنقول: إنها مفتاح لكل خير، إن الإنسان محتاج فى حياته الخاصة والعامة إلى قدرة على تدبر الأمر، وتبين الحق من الباطل، والسلوك إلى ما يريد بالفهم الصحيح، والله – عز وجل – يرشدنا إلى السبيل التى تؤدى إلى هذا فيقول سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الأنفال: ٢٩]؛ لأن الإنسان حين يتقى ويُخلص فإنه يخلُص من سيطرة

الأهواء والشهوات، ويرتفع إلى ما يريد الله منه أن يرتفع إليه من الحرية، فيتحرر عقله من الأهواء والأغراض الدنية، ويجد في نفسه وقلبه من الشجاعة ما يحمله على الجهر بالحق.

فكما أن التقوى ثمرة الإيمان بالله واليوم الآخر، فإن «الفرقان» ثمرة التقوى، والتقوى مكانها القلب وله فقهه، والفرقان مكانه العقل والنظر وللعقل فقهه، يجمع من فقه القلوب وفقه العقول، وهما هدايتان من الله عظيمتان، أكملهما الله بهداية القرآن وكتبه.

كذلك تداهم الإنسان أحاسيس غامضة بالضيق واليأس حتى يصير سجينا خلف قضبان قاسية لهذه الأحاسيس، وتأتي التقوى لتحرره وتطمئنه. يقول الله تعالى: ﴿ ..وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ.. ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

لقد بلغ من منزلة التقوى أن كان يتناصح بها المسلمون، حتى الأعرابى الجاف، يقولها لإمام الاتقياء محمد رسول الله ﷺ، مع أنه قد تأثر بهذا الأسلوب الجاف، لكنه أجاب بما يجعل هذه التقوى من لوازم النبوة، عن أبي سعيد الخدرى قال: بعث عليٌّ، وهو فى اليمن، إلى النبى ﷺ بذهبية فى تربتها، فقسمها بين الأقرع بن حابس الحنظلى، ثم أحد بنى مجاشع، وبين عيينة بن بدر الفزارى، وبين علقمة بن علاثة العامرى، ثم أحد بنى كلاب، وبين زيد الخيل الطائى، ثم أحد بنى نبهان، فتغيَّظتْ قريش والأنصار، فقالوا: يعطيه صناديد أهل نجد ويدعنا، قال: «إنما أتألَّفهم» فأقبل رجل غائر العينين، ناتئ الجبين، كثُّ اللحية، مشرف الوجنتين،

محلوق الرأس، فقال: يا محمد، اتق الله، فقال النبى ﷺ: « **فمن يطيع الله إذا عصيته، فيأمنني على أهل الأرض، ولا تأمنوني** » فسأل رجل من القوم قتله - أراه خالد بن الوليد - فمنعه النبى ﷺ(١). فذلك حقه فى الإسلام، وهذا يعنى أن النبى ﷺ تقبل هذه الدعوة إلى التقوى، وأعلم الرجل الجافى أنه يؤيدها بالفعل، وغرضه أن يقود جموع المتقين إلى الله، ويهديهم إلى سبيل الرشاد.

ونفس الدعوة إلى التقوى تقبلها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد قال له رجل: « اتق الله يا عمر » فما غضب عمر، وما أنكر عليه، فهذا حق لكل فرد فى الأمة، أن يعبر عن رأيه، وأن يستشار فى أمره، وأن يقول الحق لا يخشى في الله لومة لائم. لكن بعض الحاضرين لمجلس عمر استكثروا أن يساق القول الجاف لعمر، وهو من هو فى ورعه وتقواه وعدله وعمله. فقال عمر قولته الشهيرة متفوقا على كل ما جاءت به الدساتير المنادية بحقوق الإنسان وحرية التعبير والشورى والديموقراطية - قال عمر: دعه، فلا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها.

وأخرج أحمدَ فى كتابه « الزهد » عن الحسن البصرى أن رجلا قال لعمر ابن الخطاب: رضى الله عنه اتق الله، فذهب الرجل فقال عمر: وما فينا خير إن لم يُقَل لنا، وما فيهم خير إن لم يقولوها لنا. ولكن جاء من الأمراء بعد ذلك من يصعد المنبر ويقول: من قال لى اتق الله قطعت عنقه!!

---

(١) رواه البخارى وأحمد والنسائى.

هذا الكتاب إهداء من
مكتبة يوسف درويش

إن مناخ الحرية هو مناخ الإسلام الحقيقى، وعندما يعمل عمله فى الأمة تزدهر، وتتحقق الفضيلة والعدل، وينحسر الفساد بأنواعه، وتسود أمة الإسلام وتتحقق لها خيريتها الموصوفة بها فى القرآن الكريم.

من صفات المتقين:

يقول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣– ١٣٩].

هنا – فى هذه الآيات وفى بقية السياق بعدها – ربط بين جهاد النفس وجهاد العدو الكافر؛ لأن الأمة إن لم يتمحص إيمانها، وتتحقق لها التقوى وإدراك آيات الله فى كتابه وفى سننه وفى العمران البشرى – فلن تستطيع تحقيق رسالتها، ولا عبور العقبات التى يصنعها أعداؤها من خارجها، وقد تصنعها الأمة بجهل وظلم من داخلها.

لقد دعت الآيات – أولا – إلى المسارعة إلي المغفرة والجنة، والمبادرة بالأعمال الصالحة هى التى توصل إلى هذا الطريق، ثم بينت صفات

المتقين، فهم ينفقون من أموالهم، وما يملكون، فى سبيل الله تعالى فى حال السعة وحال الضيق، وهذا يعلمنا الإنفاق على كل حال، بقدر الطاقة، ولو كنا فقراء، فالإنفاق من صفات المتقين وشاكلة المؤمنين.

والمتقون أيضًا أقوياء النفوس، يكظمون غيظهم والنبى ﷺ يقول: **«ليس الشديد بالصرعة، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب»**[1] ورضى الله عن عائشة قالت: كان لى خادم غاظنى غيظًا شديدا، فهممت أن أنتقم منه، فتذكرت قوله تعالى: **«والكاظمين الغيظ»** لله در التقوى ما جعلت لذى غيظ شفاء!

وهذا زين العابدين على بن الحسين - وقيل غيره - قد أخطأ خادمه خطأ أغضب زين العابدين، فرأى الخادم ثورة الغضب تكاد تنفجر فيه، فقال له: **«والكاظمين الغيظ»**، فقال زين العابدين: قد كظمت غيظى! فقال الخادم: **«والعافين عن الناس»**، قال زين العابدين: قد عفوت عنك! فرجع الخادم يقول: **«والله يحب المحسنين»**، فقال زين العابدين: اذهب لقد أعتقتك لوجه الله!

والعفو صفة أخرى للمتقين، فهم إذا انتقصت حقوقهم، أو تعدى أحد عليهم، عفوا وصفحوا مع قدرتهم على القصاص وأخذ الحق، وهم فى ذلك يوازنون، فإن كان العفو هو الأنجح في تهذيب نفس المتعدى عفوا، وإن كان يزيد طغيانا مالوا إلى العقوبة المهذبة الرادعة عن التعدى والعفو إحسان، والله تعالى يحب الإحسان، فهو أيضا يحب العفو.

والمتقون أيضًا: **﴿ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾**.

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

وهذه مسألة مهمة، فالتوبة قد تُقبل وقد لا تُقبل، فالذى يتوب من قريب مقبولة توبته، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء: ١٧].

أما الذى يسوّف توبته ويؤخرها حتى يأتيه أجله وقد تدنست نفسه - فهذا توبته مردودة عليه، مثله كمثل الثوب الذى تلبسه، لو أنك تركت عليه الدنس والوسخ فترة يتراكم طبقة فوق طبقة، ستجد صعوبة بالغة فى تنظيفه، وربما يتمزقَ الثوب ولا يتنظف، فهذا مثل المذنب المسوف والمؤجل لتوبته، وقد يُختم على قلبه، ويألف المعاصى، يقول تعالى: ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ [النساء: ١٨].

فالمتقون مسارعون إلى التوبة، إذا وقعوا فى المخالفة والذنب سارعوا بالتصحيح، «ذكروا الله»، أى تذكروه -سبحانه- وتذكروا عظمته وقدرته، وكذلك تذكروا عفوه ومغفرته، «فاستغفروا لذنوبهم» وهم يعلمون أنه لا أحد يغفر الذنوب غيره - سبحانه.

وهنا نقطة مهمة، وهى أن الذنوب تفتح أبواب الخلل فى حياة الفرد، وكذلك فى حياة المجتمع ولابد من سد هذا الخلل كلما حدث.

وأصحاب العقل والحكمة يعلمون أن المجتمع إذا حدث فيه خلل، ستنتج فيه مفاسد كثيرة، والمعصية إذا خصت (أى كانت سراً ومقصورة على صاحبها) فإنها لا تضر إلا صاحبها، أما إذا ظهرت ولم تنكر فإن مضرتها تعم، ولذلك أمرنا الإسلام أن نغير المنكر بوسائله وطرقه المعروفة.

وحرص المسلمين على إنكار الخطأ والمعصية يدفع عن الأمة مضرة إلف الإفساد والتعود عليه، وأقل شيء أن تكون القلوب معبأة برفض المنكر، وإن عجزت بعض الوقت عن دفعه ماديا ستكون الأمة بهذه الصورة كالحائط المنيع يحول دون انتشار الرذيلة.

ونضرب مثالا بحرص الإسلام على أن يبقى الشارع المسلم خاليًا من العرى ومظاهر الإثارة والفتنة؛ لأن هذا الفساد إذا تسرب إلى الشارع ألفه الناس، وصار جزءاً من حياتهم، وهذا إفساد للفطرة وللعقل، والإسلام غيور يحرص على أن يظل مجتمعه مشمولا بما يحفظ عليه حرمته.

هذا عن جهاد النفس، ويمثل البنية الأساسية في شخصية المسلم وشخصية الأمة المسلمة، وأما جهاد أهل الكفر والعناد والمعطلين لسيرة دعوة الله لتبلغ الناس فى كل مكان، فقد تأهلوا بالتقوى، أو «جهاد النفس».

وقد قال النبى ﷺ عن جهاد العدو: «**ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بذل**»(١)، وقال: «**جُعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى**»(٢)، ثم يقول تعالى فى هذا السياق من سورة آل عمران: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾.

فكثيرا ما يردنا القرآن إلى السنن العامة والقواعد التي نظم على أساسها حياة خلقه: ﴿**سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً**﴾ [الإسراء: ٧٧]، ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾ [الأحزاب: ٦٢].

---

(١) رواه ابن مردويه.

(٢) رواه أحمد.

والذين يكذبون بهذه السنن يفشلون، والذين يخالفونها- وهم يؤمنون بها - لن ينجحوا أيضًا؛ لأن سنن الله تعالى غلاّبة.

والشواهد كثيرة على أننا حين أخذنا بالسنن الإلهية انتصرنا، وحين عاكسناها وغالبناها غُلبنا، فمثلا حينما أخذنا بالسنن فى حرب العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ (٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣م) كانت الدائرة لنا، فى هذه الحرب جهزنا أنفسنا تجهيزا بقدر طاقتنا، وأخفينا عن عدونا ما عزمنا عليه، وقلنا: «الله أكبر»، تعبيرا عن ثقتنا في الله تعالى، وأحبَّ جنودنا الشهادة أكثر من حبهم للدنيا وما فيها - لقد ماشينا السنن الإلهية فنصرنا الله تعالى.

وفى آية سورة آل عمران -التى نحن بصددها أيضا - يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] وضرب المثال بمن سبقنا فقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا...﴾ [آل عمران: ١٤٦] وهذه تربية للمؤمنين، فالذى يحدث يجب ألا يورثنا الوهن ولا الحزن، بل يجب أن يبعث هممنا وعزائمنا من رقادها.

وأخيرا، قد ينتصر الباطل مرة، وينتصر الحق مرة، ولكن النهاية التى تمثل سنة فى خلق الله هى أن ﴿..وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] فما دامت الأمة المسلمة تتقي ربها، وتعمل بأحكام دينها، وتسعى إلى جمع الكلمة، ويساعد بعضها بعضا، وتعرف عدوها من صديقها - إذا حدث هذا تحقق لنا النصر العزيز - إن شاء الله تعالى.

[١٤]

الوسطية والتربية فى أمة القرآن

من نعم الله تعالى علينا أنه جعل أمتنا أمة وسطًا، والوسط هو العدل والخيار، فالذى يعتدل أمره هو الأقرب إلى الرشد، ومن هنا كانت وسطية هذه الأمة نعمة من الله عليها وتأهيلاً من الله لها لحمل أمانة الدعوة. وأنت تجد الوسط وفيه الفضائل كلها، وما دونها فإما إفراط وإما تفريط، وكلاهما مذموم، فالشح مذموم، والسرف والتبذير مذموم، ولكن الوسط - وهو الكرم - ممدوح. وكذلك التهور مذموم، والجبن مذموم، لكن الشجاعة محمودة.

فالوسطية نعمة تَسِم كل أعمال المؤمن؛ خاصة وعامة، فى عقيدته وعباداته وأعماله ومعاملاته كلها فى داخله وخارجه، وفى حربه وسلمه.

ومن تمام هذه الوسطية أن الأمة قد أخذت أصول دينها بدليل وحكمة، بمعنى أن هذه الأصول تتفق مع معطيات العقل السليم ونواتجه؛ لأن العقل نعمة مشتركة بين الخلق جميعًا، فتصبح الدعوة إلى الله - فى هذه الحال - على بصيرة. ومن وسطية هذه الأمة أن لها منهجًا وميزانًا تقيس بهما مواقفها، ويطمئن بهما عدوها وصديقها.

وقد اختُصرت كل هذه المعانى فى قول الله تعالى: ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٢، ١٤٣].

وكون الرسول محمد ﷺ هو الشهيد دون غيره؛ لأنه فى رتبة الوسطية هو الأكمل والأتم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١] فهو القدوة والأسوة وكل أعماله عدل واعتدال ووسطية. وأما شهادة الأمة على الناس، فتكون بالقرآن وبالحق الذى تقوم به، فالناس بين مُفرِط ومفرط، وأما الأمة الوسط فتحمل المعيار الصحيح.

والأمة تكون هكذا إذا أخذت عن رسول الله ﷺ ما يصلح لها أحوالها خاصة وعامة، وإذا هى به تقتدى وتتأسى.. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

مهمة الدعاة:

وهناك نعمة أخرى ترتبط بهذه الوسطية وتلك الشهادة، عرضها القرآن الكريم بلفظ «المنة»، وهى أنه بعث فينا رسولاً منا، وجعلنا من أتباعه.. يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

والآية كأنها تحدد الأشياء التى لأجلها أصبحت بعثة الرسول ﷺ مِنَّة ونعمة:

- يتلو عليهم آياته.

- **ويزكيهم.**

- **ويعلمهم الكتاب والحكمة.**

وهذه الأمور الثلاثة هى مهمة الدعاة مرسومة ومبينة، فهو يتلو على الناس آيات الله الكونية وآياته القرآنية، ويذكّرهم بآيات الله المشهودة فى الآفاق والأنفس، تعريفًا بالمنهج الصحيح الذى تصح به أمور الدنيا وأمور الآخرة للناس كافة، وللمؤمنين خاصة.

وعلى الداعية الفقيه أن يتلو على الناس آيات الكتاب (**القرآن**) ليتدبروا آياته، ويعملوا بأحكامه، ويجعلوه مرجعًا لهم فى كل أمورهم، يحاسبون أنفسهم بمقتضاه، ويقيسون أمورهم من خلال هديه وتشريعاته، والتدبر فقه عقل، والتذكر تقوى وبصيرة قلب.

و«**يزكيهم**»: التزكية هى نفسها التربية، وهى ركن أساسى فيما بعث الله به رسوله، والنبى ﷺ يقول: «**ليس من مؤدب إلا وهو يحب أن يؤتى أدبه وإن أدب الله القرآن**»[1]، وهذا هو ما أدب الله به نبيه ﷺ «**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**»[2].

وعندما سئلت عائشة - رضى الله عنها - عن نهجه وخلقه، لم تجد كلمة أدق ولا أعمق ولا أدل على صفات رسول الله ﷺ، فى كل سيرته وأعماله ومواقفه، منذ بدء الوحى حتى لقى ربه إلا أن تقول: «**كان خلقه القرآن**»[3].

---

(١) سنن الدارمى.

(٢) رواه ابن السمعانى فى أدب الإملاء كما ذكره السيوطى فى الجامع الصغير.

(٣) رواه احمد ومسلم وابو داود.

والله - تبارك وتعالى - عندما بعث رسولنا ليزكى فينا الأخلاق، فإنما كلفنا بأن نحمل أمانة التربية والتزكية من بعده، ونزاول هذه المهمة الجليلة مع أبنائنا وأجيالنا، لنتدارك ونستدرك، وننقذ أجيالنا الشابة من الجرى وراء عادات جاهلية فشت وانتشرت عند غيرنا، ففسدت معها حياتهم الاجتماعية، وشاعت فيهم الفاحشة وما يرتبط بها من الأمراض والأوبئة.

وهنا ينبغى أن نركز على خصوصيتنا، وأن لنا حدوداً حدها الله، وأن نسلم من عوج التقليد، فالمسلم يحكم تصرفه خوفه من الله تعالى وحبه له، وحرصه وتحريه الحلال الطيب.

وهذه الخصوصيات من دلائل الوسطية التى نتكلم عنها، فلا يهمنا ماذا فعل الناس وماذا يفعلون، ولكن يهمنا الانضباط على هدى ديننا، الذى عصمنا من الانزلاق وراء غيرنا، وأمرنا أن نتبع أوامر شرعنا وسنة نبينا ﷺ، فنعلو بالفضائل والأخلاق الحسنة، ونتعامل بها، وإن تنكر لها الغير أو تركها لسبب أو آخر، وبذلك نفهم أن أول مطلوب فى التربية هو **السلامة من عوج التقليد والانسياق وراء الآخرين، ونريد بعدها أن نغرس فى أجيالنا الحب الحقيقى لله ولرسوله ﷺ**، فهذا هو المحرك الأول نحو العمل. ويلزمنا حينئذ أن نعلم أجيالنا الدين على وضعه الصحيح، بقواعده وأصوله، وما نستطيع تبليغهم إياه من الفروع، ونغرس فيهم أعظم نموذج تطبيقى لهذا الدين من خلال سيرة النبى ﷺ، نحن نضع أملاً كبيراً فى جيل جديد نغرس فيه هذه المعانى منذ نعومة أظفاره، حتى ينشأ الولد أو البنت يعرف حقائق دينه من أبويه، قبل أن يعرفها حتى من المدرسة، إذ لابد للبيت أن يحصن بمعانى القرآن أبناءه الصغار قبل أن يكبروا ويشردوا.

ونعيد القول بأن وسطية الأمة قد جعلتها شاهدة ومشهوداً عليها في نفس الوقت، وسيشهد الرسول علينا في إقامة الدين والحق والعدل، وهل تعلمنا حقائق الإسلام وعلمناها لمن استطعنا تعليمه، وهل تعاملنا فيما بيننا بأخلاق حسنة، وراعينا الفضيلة في أنفسنا وفيمن نشرف على تربيتهم؟ متذكرين قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الصف: ٢، ٣] والصدق مع الله والنفس والغير هو ما وصف الله به المؤمنين، وهم الوافون بعهد الله في قوله تعالى: ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقد ربط الله بين الصدق والعدل وأن بهما خلق الخلق ودبر أمرهم وتم صلاحهم: ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ** ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وربط بين الصدق والتقوى في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [التوبة: ١١٩]، وربط بين الصدق وبين كل ما يدخل فيه ويلامسه من أمر أو مكان بلفظ عام، وخاطب به رسوله الأمين ﷺ وعامة المؤمنين، فقال: ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيراً** ﴾ [الاسراء: ٨٠]؛ وشمل إدخال القبر مرضيًا، وعند البعث إخراجًا مرضيًا، وربط بين الصدق في الإيمان وبين الخير في كل أمر وقول وفعل يأتيه المؤمنون طاعة لله ورسوله، لقوله تعالى: ﴿ **طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ** ﴾ [محمد: ٢١] خيراً لهم في دينهم ودنياهم وفي مجاهدة عدوهم.

والتربية تستوجب أن يكون واقع حياة المسلم المربِّى صورة عملية لأحكام الدين، ولا يستهان فى ذلك بشىء، سواء فى البيت أم خارجه، والبيت هو محضن التربية؛ لذلك يجب أن نحرص على سلامة العلاقات فى داخله، خاصة بين الوالدين، وإلا صار بيئة غير صالحة لتربية النشء. وإذا كان الإسلام يكره الظلم ويحاربه، فإن ظلم الأزواج بعضهم بعضاً من أسوأ أنواع الظلم؛ لأن مضاره لا تتوقف على الطرفين - الظالم والمظلوم - وإنما تمتد إلى الجيل اليافع، وهو أحوج ما يكون إلى المناخ الصالح لحسن إعداده وتربيته.

علاج الإسلام لمشكلات المجتمع:

ونظرة سريعة فى سورة الضحى تكشف عن تربية الله نبيه محمداً ﷺ وهذا شىء - لا شك - مفيد لنا نستصحبه ونحن نربى الجيل المنشود، وإن كانت السورة الكريمة قد وردت فى معرض الحديث عن فضائل الله التى أنعم بها على خاتم رسله محمد ﷺ. يقول تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ** ﴾ [الضحى: ٦ -٨].

فاليُتم والضلال والفقر ثلاث مشكلات ينبغى أن تعالجها التربية الإسلامية، **فاليتم** يمثل الحاجة والضعف، وينبغى ألا يعنى غياب أبيه ومربيه الأصلى أن يتعرض بالضرورة للضياع والإهمال، وقد شاهدنا كاتدرائيات ألمانيا وغيرها تفتح أبوابها لإيواء أيتام البوسنة والشيشان من أبناء المسلمين، مستغلين محنة أبناء البلدين المسلمين، وأكبر عناصر هذه المحنة هى تخلينا نحن عنهم.. وهذا لا يليق بأمة واجبها أن تحمل الهداية

إلى الناس، لا أن تترك أبناءها ليأخذهم الآخرون إلى حقول ضلالهم وتنصيرهم.. لو أن الأمة فتحت صدرها وبيوتها ليتامى المسلمين فى العالم لما وجدت كاتدرائيات الغرب فرصة أمامها لتنصير أبنائنا.

وأما **الضلال**، فإن الناس يحتاجون إلى نشر الدين والهداية بينهم؛ لإنقاذهم من التيه والضلال، وذلك واجب الأمة كلها، والعلماء فى مقدمة الصفوف. والتنزيل كله مقصوده هداية الناس إلى الحق فى أنفسهم وفى غيرهم لتحصيل شرف الدنيا وكرامة الآخرة.

وأما **الفقر**، فالإسلام يكرهه ويحاربه، فألزم الحاكم بوجوب توفير حد الكفاية لا الكفاف لدى الأمة، بل إنه يقدم بذل المال على بذل النفس فى سبيل الله فى آيات عدة لأن المال هو عصب الحياة، والسبيل إلى إعداد القوة اللازمة لعلو كلمة الله فى الأرض وفى مواجهة الأعداء، وكان النبى ﷺ يستعيذ بالله منه، يقول: «**اللهم إنى أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة وأعوذ بك من أن أظلم أو أظلَم**»[1].

إن إخراج الفقير من فقره ضرورة دينية ودنيوية معًا؛ لأنه لا تربية فى ظل غياب ضرورات الإنسان، ولا تحقيق لمقاصد الشرع وتوفير القوة الواجبة للملة والأمة، إلا بالتكامل الاجتماعى، وعدالة توزيع الثروة والمال بين الناس، فلا يحتكرهما فئة متسلطة، فيطغيهم الغنى الفاحش، ويذل أعناق الفقراء فقرهم.

والمتدبر للمشكلات الثلاث التى ذكرها القرآن الكريم فى سورة

---

(١) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه.

الضحى، يجدها وقد عدد على رسوله الكريم نعمه وآياته، وأنه لم يخله منها من أول تربية وابتداء تنشئة ترشيحًا لما أراد به، ليقيس الترقب من فضل الله على ما سلف منه لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة، ولا يضيق صدره، ولا يقل صبره؛ كقول الزمخشرى فى الكشاف :

«إن تدبر هذه الآيات يضع أيدينا على أمهات مشاكل الإنسان لنوليها عنايتنا، ونقدرها قدرها فى بناء المجتمع وتقوية الأمة». وهى :

أولاً : خطر الضلال عن حقائق الدين فى آيات الله وصحيح حديث رسول الله ﷺ، وتلك التى ثبتت فى الآفاق والأنفس، أى غياب الهداية الإلهية التى نزل بها الوحى على الرسول ﷺ فى كل أمور الدين والدنيا، لا يرجى معه خير الدنيا ولا خير الآخرة، فلا مندوحة عن الفقه فى القرآن والشرائع، وعن التأسى برسول الله ﷺ فى حسن العلم بالله، وأحكام شرعه، ومقاصد وحيه، وعن العمل بمقتضى هذه الهدايات التى منها هداية العقل السليم، وهداية الفطرة القويمة، وما أشد حاجة أكثر المسلمين فى هذا الزمان لإزالة الضلال عن حقائق الدين فيما يتعلق بالعقيدة، والعبادة، والمعاملات حتى تسلم من شوائب لحقت بها بتصرفاتنا، وبجمود فيما هو محل اجتهاد منها فيما استحدث من أمور ومشكلات تتطلب من أهل الذكر اجتهادًا راسخًا، حتى تتحقق المصالح الضرورية، وتزول الأضرار الواقعة، وتتوافر الملاءمة الواجبة التى ترفع الحرج، وتيسر ولا تعسر، وهذا كله فى كلمة - هى ما يمكن أن نسميه البعد الدينى وسلامة الوعى به وتفعيله فى كل أمورنا، خاصة أو عامة، خافية أو معلنة.

ثانيًا : ما يتصل بالبعد الاجتماعى الواجب مراعاته على الحكام

والمحكومين لإيجاد مجتمع يكون صحيح البنية، قوى العقيدة، متمسكًا بشريعته، قادراً على حمل الأمانات والبذل والتقوى، متواصيًا بالحق والصبر اللذين بهما يؤدى المجتمع واجب الإصلاح والتغيير إذا فسدت أحوال الرعية والبلاد، فيعمل آحاده من خلال جماعات المجتمع المدنى ومؤسساته الموجودة، وأحزابه السياسية، ونقاباته المهنية، وصحافته الصادقة لإقامة هذين الأصلين اللذين ذكرا في قوله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ (١) **إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ [العصر: ١ - ٣].

والسورة على قصرها تلخص كل ما عليه مدار خيرى الدنيا والآخرة، ونجاة الأمة آحاداً وجماعة من خسرانهما، ولعظم مقصودها الذى هو المقسوم عليه فى قسمه بالعصر، سواء أريد به صلاة العصر كما ورد فى صحيح الحديث عنها «**من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله**» لأن التكليف فى أدائها أشق لتهافت الناس فى تجارتهم ومعايشهم آخر النهار، أو قصد به القسم بالزمان فى مروره وما يشتمل عليه من أحداث جسام وابتلاءات لها ما بعدها، فأمر المؤمنين بعدم كفاية صلاحهم الفردى بالإيمان والعمل الصالح فى أنفسهم، وأوجب معهم فى قران واحد أداء واجب العمل المجتمعى بكل آلياته المتاحة من أجل الخير العام والخاص معًا، إقامة للحق والعدل فى الأمة، وصبراً على ما يبلو الله به عباده أفراداً وأمة. وهذا الذى عبر عنه ابن تيمية فى المنتقى بقوله السديد: «الأمة هى الحافظة للشرع» وهذا البعد الاجتماعى أكمل الله به التكليف الفردى أو البعد الإيمانى الفردى المذكور آنفًا. وهذا الأمر بالتواصى بالحق والصبر يشتمل

على الخير كله: الحكم والسياسات، والإصلاح الاجتماعى، والإعلام، ومجاهدة الأعداء فى سبيل الله صيانة للدماء والحرمات والأرض من أن تنتهك وينال منها أعداؤها.

ثالثًا: البعد الاقتصادى: وإيجاب مراعاته لتحرير آحاد الأمة من ذل الحاجة وتداعياتها، ومن شل طاقاتهم الإبداعية الفاعلة، ومشاركة الحاكم فى حكم الرعية وتأمين البلاد، وتحريم ما حرمه الله مما يضر بالاقتصاد والمال والنماء، ويجرها إلى الاستدانة من الغير وفقد الاستقلال. فالمال مال الله، وللفقراء فيه حق معلوم للسائل والمحروم.

من خصائص الإسلام:

على الرغم من الفوارق التى تلاحظ بين أفراد الناس، فى مواهبهم وقدراتهم واستعداداتهم وألوانهم وملامحهم وألسنتهم، فإن الأصل الواحد المشترك للناس لا شك فيه، وكذلك الدين الحق الذى رضيه الله لهذا الجنس من الخلق دين واحد: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾** [آل عمران: ١٩]، والذى اختلف من نبى إلى آخر هو بعض التفصيلات لا الأصول.

يقول تعالى: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾** [المائدة: ٤٨].

وما دام أصل الدين واحداً، فالدعوة إلى استباق الخيرات واحدة، وهى المقصود من خلق الإنسان، فوظيفته أن يعمر الأرض بالخير، وينفى عنها الفساد، بمنهج الله تعالى وشريعته، ولا ينبغى أن يشغل الناس أنفسهم بجدال عقيم أو بغير التى هى أحسن حول ما بينهم من الاختلاف، فهذا امر يفصل الله فيه يوم القيامة، أما فى هذه الدنيا فانشغال البشر يكون بما ينفعهم من عمارة الأرض وإصلاحها بالدين. وشرعة كل نبى كاملةٌ بالنسبة لوقتها وعصرها والقوم الذين نزلت فيهم، وشريعة خاتم الأنبياء خالدة باقية وكاملة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وما دمنا نتبع هذه الشريعة فلا بد للمسلم أن يعرف خصوصيات دينه وسمات هويته الإسلامية؛ ليعرف قدر نعمة الله عليه حين هداه إلى هذا الدين، وليمتلك الميزان الصحيح الذى به يزن الأمور ويقدرها، وتستقيم حياته دنيا وأخرى. ومن هذه الخصوصيات ما يلى:

الإسلام دين العلم والعمل:

أولاً: **الإسلام قائم على العلم والعقل**، قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فلا تناقض فى الإسلام بين شرعه الثابت (صحيح المنقول) وبين صحيح ما يصل إليه العقل (صريح المعقول)، لكن الخلاف فقط قد ينشأ بين حديث ضعيف أو موضوع وبين حكم عقلى صحيح، أو بين شرع ثابت وبين حكم عقلى خاطئ، ومن الطبيعى أن ينسجم الشرع الذى أنزل الله تعالى مع حكم العقل السليم الذى وهبه سبحانه لخلقه. فهداية الوحى تكمل هداية العقل والحواس. وليس دور العقل مقصوراً على أن يتعقل الشرع، ويتقبل أحكامه بفهم وإدراك، بل هو أيضًا مكلف

بأن يجتهد فيما يجد من قضايا الخلق على نور ما شرع له من أحكام الوحى وكليات الدين، فينزل العقل النصوص الثابتة على الوقائع المتغيرة طلبًا للأحكام الشرعية التى تحقق المصلحة وترفع الحرج، شريطة ألا يصادم نصًا ثابتًا فى القرآن، ولا يخالف ما هو معدود من السنة التشريعية، من صحيح الحديث. وهذا هو اجتهاد العقل فى أحوال الناس بما يحقق مقاصد الشرع الحكيم.

ثانيًا: رسالة النبى ﷺ هى خاتمة رسالات السماء، فبلغ عن ربه ما أوحى الله، ودلنا على اكتمال القدوة فى شخص خاتم الأنبياء لقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقرن الله الشهادة برسالته بالإيمان بوحدانية الله تعالى وحده: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وجعل طاعة الرسول من طاعته تعالى، كما فى قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ**﴾ [آل عمران: ٣٢]، ووردت آيات كثيرة تأكيداً لما أوجبه الله على المسلمين من طاعة رسولهم ﷺ، منها قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [آل عمران: ٣١]، فاتبعونى حتى يصح ما تدعونه من أداء عبادته، ويرضى عنكم ويغفر لكم، فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب وكتاب الله يكذبه.

ويترتب على كون رسالة الإسلام هى الرسالة الخاتمة استمرار ملاءمة هذه الرسالة لحياة الناس إلى يوم القيامة، وسبب هذه الملاءمة هو أن الحكيم - سبحانه - فصَّل الأمور الثوابت التى لا تتغير تفصيلاً (مثل

العقيدة والشعائر)، وأجمل فى أمور المعاملة، فركزت التشريعات على القضايا العامة، وتركت التفصيل فى أحيان كثيرة. دعوة منه سبحانه للعباد على الاجتهاد فى غير النصوص – مما هو داخل فى باب الاجتهاد الواسع – فى ضوء الكليات، حيث فصّل ما هو ثابت وأجمل المتغير.

ثالثًا: الإسلام – كذلك – هو الملة الحنيفية السمحة، التى لا حرج فيها ولا تعسير ولا إعنات، وكان رسول الله ﷺ يقول: «**خير دينكم أيسره**»[1]، ويقول الله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج: ٧٨]. فاليسر من خصائص الإسلام، وكانت من قبل فى ملة إبراهيم (الحنيفية السمحة)، فجعلها الله تعالى من سمات الإسلام، حتى صار رفع الحرج لا ينفك عن الشرع الإسلامى، وأصبح مدار أمر الشريعة كلها على قول الله تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن: ١٦].

جاء فى تفسير ابن كثير: «قال قتادة: قال كعب الأحبار: أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم تعطهن أمة قبلها ولا نبى: كان إذا أرسل الله نبيًا قال له: أنت شاهد على أمتك، وجعلكم شهداء على الناس، وكان يقال له: ليس عليك فى الدين من حرج، وقال لهذه الأمة: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ وكان يقال له: ادعنى أستجب لك، وقال لهذه الأمة: (**ادعونى أستجب لكم**)[2].

رابعًا: الإسلام دين عمل، وليس نظريات فلسفية، ولا أفكارًا قابلة

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه ابن أبى حاتم.

للاختزان دون أن تدخل مجالات الحياة العملية. ويمكن أن نستكشف ذلك من خلال آيات كثيرة، مثل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨]. فالنداء فى الآية يحدد مجموعة من التكاليف، هى سمات لمن ينادى بها، وليست جميعًا تكاليف بأعمال شعائرية خالصة، كالصلاة، بل فيها من هذا ومن ذاك ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾، مطالبة بإتمام الركوع والسجود وهى كناية عن الصلاة وأعمالها، وبدأ بالصلاة لأنها عمود الدين، وأول ما يحاسب المرء عليه، وهى - أيضًا - إن صلحت وأداها المسلم على حقها استقام له الأمر... ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فهى تسدد الطريق فى الدنيا، وتبقى عونًا للإنسان على ما يلقى من الشدائد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وفى قوله: ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ خرج من الخصوص إلى العموم، من شعيرة الصلاة العظيمة إلى جميع الأعمال التى تصلح أن تكون عبادة لله تعالى، سواءً أكانت من الشعائر - كالحج والزكاة - أم كانت من أعمال الحياة؛ مثل البيع والشراء ومعاملة الخلق بالمنافع، فكلها يمكن أن يظهر فيها المسلم إخلاص الوجهة لله، وتمام توحيده، وإخلاص العبودية له، والعمل على أعلى مستوى من الإيمان، وفى قوله تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾، الخير بإطلاق، سواءً أكان خاصًا بك، أم يتسع ليشمل أسرتك وبنى رحمك، أم عامًا يشارك فى رد الشر وزيادة الخير فى محيط الأمة

الإسلامية. وفى دائرة البشرية الواسعة، ومن عادة القرآن أن يدل على الأشياء الكثيرة فى أبلغ وأوجز عبارة، فهذا الأمر السابق بفعل الخير يأتى فى كلمتين، لكنه يفتح أمام المؤمن المغاليق، ويصل دنياه بآخرته، ويدعوه إلى تغيير حاله فى كل موقع يخالطه فى الحياة. والانحراف عن طريق الخير هذا يحدث لأننا لا نعيش حقائق ديننا معيشة تؤثر فينا. ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ تنبيه إلى عظم شأن جهاد العدو، فهو الذى يحفظ على الأمة عزتها وقوتها، ويرد عنها كيد الكائدين ومكرهم.. هذا، برغم أنف من يحاولون أن يثبتوا للآخرين أن الإسلام دين مستأنس، نعم هو دين رحمة، ولكنه لا يرضى لأهله الضيم، ولا يقبل لهم الذل. فهو دين عزة كما فى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

إن الدنيا تقوم ولا تقعد حينما يقوم أحد الفلسطينيين بعمل فدائى يكسر كبرياء الكيان الصيهونى، وينصر به دينه وقومه ووطنه، ويعدون ذلك جريمة الجرائم، وقمة الإرهاب، مع أن هذا الشهيد الكريم لم يجد وسيلة يدافع بها عن أرضه وعرضه وحقوقه إلا التضحية بنفسه وروحه، حتى يثبت وجوده، ويموت شريفًا، بدلاً من عيشة الذل التى يراد فرضها عليه وعلى أمته وياباها عليه دينه.

هذا من العلامات المؤكدة لمحاولات استئناس الإسلام والمسلمين، حتى يصيروا فريسة سهلة. وأضافوا إلى ذلك أن اتهموا من يرفض التطبيع مع الغاصب الصهيونى بعرقلة عملية السلام، مع أن المؤكد هو العكس، فرفض التطبيع هو الذى يجلب السلام؛ إذ يخيف العدو، ويجعله يراجع

نفسه ألف مرة قبل أن يقدم على أى فعل من أفعاله العدوانية الاستفزازية التى لا تعبر عن أى جنوح منه للسلام.

إن القرآن إذا نزل فى قلوب الناس منزله الرفيع، وشغل فى حياتهم مكانه الجدير به - غيَّر حياة الأمة التى عملت به إلى الخير فى دينها ودنياها وآخرتها، والذى نحمله ونعرفه عن حقائق ديننا ينبغى أن نعيش به حيا فى أفكارنا وسلوكنا ومواقفنا وأعمالنا، وإلا فلن نكون قد عملنا بديننا، ولا أطعنا ربنا، ولا طبقنا سنة نبينا ﷺ، ولا استحققنا نصر الله بل آسفناه واستحققنا عقابه، وما أكثر الآيات البينات فى كتاب الله والأحاديث النبوية الصحيحة التى تؤكد خاصية الجانب العملى فى الإسلام، مثل قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فالآية قدمت العمل على العقيدة، مما يجزم بضرورة العمل مستنداً إلى سلامة العقيدة، ولا يغنى أحدهما عن الآخر. وقد اختارت الآية من العمل ما هو مناط خيرية الأمة: الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.

ومن الشر كل الشر أن تتغير المفاهيم والأحوال بالمسلم، حتى يرضى بالمنكر ولا يشعر بأنه منكر، يموت قلبه ووجدانه، فيرى المنكر أمامه وقد ألفه، وهذا يحدث إذا ضعف الإيمان وغابت معانيه عن القول والقلوب، ولم يأخذ بعزائم الأمور، والخيرية منزلة عالية، لكن لها تكاليف والتزامات وحقوقًا يجب أن تؤدى، فهى لا تحصل إلا بحقها، وتفقد بزواله، ولكن تظل أهلية الأمة الإسلامية لها ميسرة بعون الله ما عملوا لأداء حقها واستعادوا شروطها.

صفات الدولة المسلمة:

خامسًا: أما الخصيصة الخامسة من خصائص هذا الدين، فهى أن الدولة التى تتكلم وتحكم به لها أسس وقواعد وغاية وأهداف سامية كلها ربانية المدد والصفة: تختلف عما لغيرها من الدول، فغيرها تجمعه فقط المصالح العاجلة، فإذا اختلفوا حولها تفرقوا، أما دولة الإسلام فيجتمع أبناؤها أساسًا على المبادئ والقيم، والتعاون على البر والتقوى،وتنظيم الانتفاع بما فى الحياة الدنيا من خير.. وهذا السمت لا يمكن أن تدانيه – فضلاً عن أن تساويه – هذه الدنيوية البحتة التى لا مكان فيها للفضائل والأخلاق إلا بحسب جلبها للمنافع المادية، وهى تجافى أصولاً ثابتة فى القرآن والسنة، تقرر الإخاء الإنسانى، وأخوة الإيمان، واستباق الخيرات بين أهل الكتاب، وتقوى الله، لقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ [النساء: ١٣١]، والحرص على الجمع بين حسنتى الدنيا والآخرة.

وتُكتشف هذه الخصيصة فى الإسلام من خلال قول الله تعالى عن المؤمنين حال تمكينهم فى الأرض: ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾ [الحج: ٤١]. فإنهم يقيمون دولة عدل لا بغى، وصدق لا كذب، ومساواة بين الناس، وشورى لا استبداد، وعمل لخير البشرية جمعاء، ووفاء بالعهود وأداءٌ للأمانات، وصون حقوق الله لكل الخلق فى الحرب والسلم.

فالجماعة المسلمة، أو المجتمع المسلم هو مجتمع مبادئ ورسالة، ويقيم

دولته فى ظل هذه المفاهيم الربانية العليا، وعالمنا المعاصر كله محتاج لمثل هذه الدولة الإسلامية القدوة، يتعلم منها فقه السلام، وفقه حل النزاعات، والتعاون بين فصائل البشرية وطوائفها المختلفة من أجل خير الجميع.

ومن أمثلة ذلك وهى كثيرة، ما يؤكد أن القيمة والمبدأ فى الدولة الإسلامية فوق المصلحة، فقد صالح قتيبة بن مسلم الباهلى أهل سمرقند، ثم فاجأهم بالغزو، ودخل بلادهم وفتحها. وكان أهل سمرقند قد سمعوا عن عدل الإسلام، وبلغهم حين تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة بعد ذلك أنه إمام عادل لا يرضى الظلم لأحد، ولا من أحد، فكتبوا إليه بما جرى، بعد أن استقر المسلمون فى سمرقند، فأرسل عمر يحقق فى المسألة، وطلب من القاضى أن ينظر فى حقيقة دعوى أهل سمرقند، فنظر القاضى حتى تبين له صحة دعواهم، وأن المسلمين فاجأوهم بالغزو بعد أن عاهدوهم وأمنوهم، فأمر الخليفة بخروج المسلمين من سمرقند، وإمضاء الصلح مع أهلها... وكان هذا عملاً مدهشًا لهذا الشعب الأعجمى، وقد خالط الإسلام حشاشة قلوبهم، فأصبحوا أخوة فى الإسلام.

هذا قبس واحد من تاريخ هذا الدين، وتاريخ أهله، يؤكد أنه انتصر بالعمل والقدوة الحسنة والعدل، وليس بالإكراه والسلاح والغزو، وأن سعيًا منا وكفاحًا بالكلمة الطيبة والأخلاق الحسنة والقدوة الصالحة يقدر بإذن الله على تغيير أشياء كثيرة فى دنيا البشر، تحتاج إلى تغيير وإصلاح.

سادسًا: يحقق الإسلام لأتباعه الأمان النفسى الكامل؛ لذلك لا يتصور مؤمن تحقق بحقيقة الإيمان، ويشكو من العلل النفسية. ومن الغريب أن تجد كثيرين يصلون، ثم يشكون من الإحساس العميق بالإحباط والقلق

والتوتر، وترى الواحد منهم يبحث ويفتش عن علاج، وقد يلتمس مثل هذا العلاج فى الغرب !!، وفاقد الشيء لا يعطيه..

لذا فلا يجتمع إيمان مؤمن مع الشكوى من الإحباط، فهما لا يلتقيان. فمن وجد من نفسه شيئًا من ذلك راجع ما بنفسه؛ من بعد عن هدى الكتاب والسنة، مراجعة حقة بعيدة عن التماس الأعذار الواهية لقوله تعالى: ﴿ **بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ** ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥]، فردها إلى حظيرة الدين، ووصلها بربها، واشربها حقائق الإسلام، وحملها على مراقبة الله وتقواه فى كل صغيرة وكبيرة، وفى السر والعلن، ومع الصديق والعدو، فوجد الطمأنينة الغائبة، والطريق القويمة، وهدى إلى الرشاد لقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[يونس: ٥٧].

* * *

[١٥]

الضمير الدينى وطريق الخلاص

يحتشد المسلمون فى صلاة الجمعة والجماعات، يستمعون لما يتلى عليهم من كتاب الله وسنة رسوله وتعاليم الإسلام الحنيف، ثم تنقضى الصلاة، وينفضُّ الجمع، ويعود كل منا إلى ما كان عليه، لم يراجع نفسه، ولم يتدبر الحكمة من هذا الاحتشاد والاجتماع على طاعة الله تعالى، ولم يحاول أن يحاسب نفسه حسابًا دقيقًا حتى يخرج بفائدة تضيف إلى حياته فى دنياه وآخرته شيئًا نافعًا. والله تعالى يقول: ﴿ .. **فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** .. ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

وكتاب الله - تبارك وتعالى - ما تنزل من فوق سبع سماوات إلا لتتغير به النفوس، ويعالج به القلب أمراضه، وتتبدل الأمة من ضعفها قوة. ونحن حين تجمعنا الصلاة تجمع الأمة حول دين عظيم هو النعمة الكبرى التى أنعم الله بها على البشرية، لذلك يجب أن نحاسب أنفسنا: أين نحن من ديننا؟ وما واجبنا نحوه؟ وهل أدينا حق الدين علينا، أو فرطنا فيه؟

إن رقابة الله تصاحب العبد فى ليله ونهاره، وفيما أسر من عمله وما أعلنه. وهى رقابة لا تنقطع، عندما تقرأ قرآنًا، أو تكون فى شأن من الشئون أو عمل من الأعمال، فى أوله أو فى وسطه أو فى آخره - فإن رقابة الله لك قائمة لا تنقطع. يقول الله تعالى: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ**

عَن رَّبِّكَ من مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقد جاء بعد هذه الآية الكريمة ثلاثُ آيات تحدثت عن « أولياء الله » الفائزين، وبين أجزاء السياق صلة واضحة، فالذين استشعروا بعمقٍ رقابةَ الله لهم، وإحاطتَه بكل شيء - يحافظون على الشرع فعلاً وتَركًا، وأولئك هم أولياء الله؛ أى أنصار دينه، الذين يستقيمون فى عقيدتهم، ويستقيمون فى أعمالهم، فلهم البشرى بالفوزين الدنيوى والأُخروى. يقول الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

مراقبة الله وإصلاح النفس:

ولذلك نحن أول ما نحتاج إليه هو أن نرسخ فى أنفسنا تقوى الله، وعمق الشعور برقابته لنا. وإذا قوى هذا الشعور فى وجدان المؤمن، وعايشه فى كل أمور حياته - فإن هذا هو تغيير ما بالأنفس، والصلاح الذى يتبعه إصلاح الله لما فسد من حال المؤمنين.

إن لم يتربَّ الضمير الدينى والوازع القلبى للمسلم فإن الطريق مسدود، ولن نستطيع أن نصل إلى ما نريد؛ لأن أى عمل يؤدَّى، وإن جُمع له ما جُمع من المال والرجال دون أن يتوافر له معنى رقابة الله - فإنه داحض لا يؤدى إلى شيء! ففى مثل هذا المُناخ سيوجد من يسرق المال، ومن يعطل أعمال الخير والبر، وسيوجد من يسعى إلى خير نفسه فقط؛ لأن الضمير انعدم ورقابة الله ماتت.

ومما يقوّى هذه الرقابة ما يلى:

أ - أن نتدبر آيات القرآن الكريم، ونعايشه حينما نتلوه أو نسمعه: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد : ٢٤]، ونجعل همَّنا كله أن يتحول هَدْى كتاب الله فى أنفسنا إلى واقع معاش، يتحول القرآن إلى خلق وسلوك ورقابة، وليس كلاما أو آيات تتلى فحسب، وإن لم تصنع الأمة هذا فطريقها إلى تغيير ما بها مسدود، مهما جمعت من أسباب، ورفعت من شعارات. مهما قيل ليل نهار عن التنمية وعن الاستثمار ورفع مستوى المعيشة ورفع المعاناة عن الفقراء - كل هذا يتحول إلى هباء إن لم نسلك الطريق الصحيح، وهو طريق رسَمه القرآن، ووضحه لنا رسول الله ﷺ كما تبين من الآيات السابقة من سورة يونس، وكما يتأكد من الحديث النبوى الشريف: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك**»(١).

والقرآن لم يتنزل من فوق سبع سماوات على سيد الخلق إلا ليكون منهجًا للتغيير والتحول فى حياة الإنسان؛ من ضعف إلى قوة، ومن فساد إلى صلاح، ودعوة للإحياء من موات لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ..﴾ [الأنفال: ٢٤].

ب - إن إنسانًا ما لا يستطيع أن يصلح من نفسه وحاله حتى يستقر فى وجدانه وقلبه مخافة ربه وتقواه، ويبلغ خطر هذه القضية وأهميتها أن جميع العبادات والفرائض التى شرعها الإسلام تستهدف فى جملتها

---

(١) رواه مسلم وأحمد والترمذى.

تقوى الله؛ فإن لم يتحقق هذا الهدف بها، صارت العبادة جوعًا وعطشًا ونصبًا وتعبًا وإنفاقًا بلا فائدة..

إن العبادات والشعائر الإسلامية هى أدوات تغير بها سلوكك إن انحرف، وتبدل بها عاداتك إن ساءت، وتحول حياتك من ضعف إلى قوة، ومن فساد إلى صلاح، وتكمل نقصك، وتسد خلل حياتك. وما أكثر ما يتعلق المسلمون فى هذا الزمن بالذات بقشور العبادات ويفوتهم اللب والجوهر الذى يتغير به ميزان الأمم، وتقوم عليه وتؤسس به الحضارات.

نحن نسمع ليل نهار؛ على ألسنة المتحدثين، وفى الصحف، وفى كل أجهزة الاتصال - عن الفساد الذى عم، والغش الذى استشرى، وسرقة الأموال، وانتهاك الأعراض، وضياع الذمم، وخراب النفوس.. وكأننا نعيش فى مستنقع من السوء..

ويأتى السؤال الحائر: لماذا يحدث كل هذا؟ وما طريق الخلاص؟

نحن بحالنا هذه لسنا خير أمة، فقد خرجنا عن مقتضى ديننا، ولم نعمل بما فيه، والله تبارك وتعالى لا يحابى أحداً، ويعطى الناس على قدر عملهم، فإن نحن تسابقنا وتكالبنا على الدنيا، وحرص كل منا على مصالحه الشخصية، ولو هلك غيره، وتفرقنا على الدنيا، وتركنا الغيرة على دين الله ومصالح الأمة، وسعى غيرنا على مصلحتهم العامة، وأقاموا العدل الذى لم نقمه، وأقاموا ما تتطلبه الحياة من تعاون - سيكون غيرنا أحق بالحياة الآمنة المستقرة منا، وبوراثة الأرض.

إن الله تعالى يقول فى كتابه: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ**

وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩] وهذا معناه أن الدنيا لها طريق تُطلَب بها، وكذلك الآخرة لها طريق توصّل إليها، فالآخرة لن تنالها بمجرد أن تتلو القرآن أو تجلس فى زاوية، دون أن يتجلى لذلك أثرٌ إيجابى فى حياتك وعملك، فالإسلام دين عمل وحركة وحياة، ويستطيع أن يغير الضعف إلى قوة، ويحوّل القلة إلى كثرة، ويخلع عنك سلبيتك وقعودك وتكاسلك، لتنشط حيث يحب الله أن يراك، وتزول حيث يحب الله أن يفتقدك.

لكن نحن لا نحسن فهم الإسلام، وإذا فهمناه لا نتبعه واقعًا عمليًا يتحكم فى سلوكنا، ونحتكم إليه فى قضايانا وشئوننا، ونحاسب أنفسنا على مقتضاه. ولو عامَل كل منا نفسه بهذا الميزان، وحاكمها إلى هذا الأساس – لاكتشف فى نفسه قصوراً كبيراً جهة دينه، أتبع فساداً كبيراً فى دنياه.

إن الإسلام عظيم، ولا يصلح لحمله إلا عظماء، أما أن يكون الواحد لا يملك الشجاعة لإبداء رأيه، ولا يستطيع أن يشارك فى تحمّل المسئولية عن دينه – فهذا لا يكون المسلم الذى أراده الله تبارك وتعالى ليحمل أمانة التوحيد إلى البشرية، وإذا لم يعنه المناخ العام على استخدام حقه فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لغياب الحرية واستبداد الحاكمين، وإن لم يستطع أن يغير المنكر باليد غيره باللسان انتهاءً بالقلب، فيظل كارها للمنكر عاملاً ما استطاع على تغيير ما أمكنه منه، ساعيًا مع الغير إلى عودة الحرية والحق فى التعبير عن الرأى، فإن دين الله يحرم الرضا بالظلم،

ويوجب تغييره مهما كلفه ذلك من وقت أو تضحية مؤمنا بأن الغلبة للحق والزهوق للباطل.

هذا الفساد الذى نراه سببه معلوم معروف، وهو تفريطنا فى ديننا، وفى المبادئ العظيمة التى جاء بها إسلامنا.. فأما الخلاص فسأحاول أن أرسم بعض معالمه فى نقاط كما يلى:

– يقول كثيرون إن الظلم والاستبداد والسلطة القاهرة تؤدى إلى ضياع الاستقرار، وإذا ضاع الأمن والاستقرار فلا تربية ولا عمل، فإن الإنسان الخائف لا ينتج خيراً.. وأنا مؤمن بأثر الظلم والاستبداد فى نشر مفاسد من أمثال النفاق والرشوة ومجاملة القوى ومضاعفة العقوبة على الضعيف مما يحبط همم الشرفاء، ويميت عزائم الغيورين على الدين والوطن – لكن الذوبان فى المفاسد تحت هذا العذر لا يُقبَل عند الله، فكل الآثار السيئة التى يصنعها الاستبداد لا تجبر أحداً – فى الغالب – على ترك دينه، ومخالفة شريعته، ووجوب العمل على الإصلاح المنشود.

إن الإسلام عُنى بأن يرفع عن البشرية كل ما يعوقها عن الحركة الحية، وعن حرية الإرادة والاختيار. وضَح ذلك فى أمور ثلاثة ذكرها القرآن:

الأمر الأول: يقول تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ..** ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

الأمر الثانى: قوله: ﴿ .. **وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ..** ﴾، ونحن ما أقل ما نأمر بالمعروف وما أقل ما ننهى عن المنكر.

نحن نرى المعروف يُترَك ولا نتكلم حياءً أو نفاقًا أو ضعفًا أو تخاذلاً، ونرى المنكر قريبًا ولا نجد الشجاعة التى تجعل الفرد منا يقول لفاعله: هذا منكر دعه، ونعمل على تغييره، وللإصلاح فى الإسلام منهجه ومتطلباته.

لقد جربنا فى عالمنا الإسلامى - ولا زلنا - كل ألوان المذاهب السياسية المستوردة، فما أتت إلا بتراكمات أليمة من الفساد والخراب استحال حلها، ونحن تركناها تستشرى، ولم نؤدِّ فرض الله نحوها؛ أمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، واتباعًا لشريعتنا، وقولاً للحق فى كل موقع، نحن تسودنا سلبية ضاعت معها القدرة على التغيير حتى فى نطاق أهلنا وأصدقائنا، ورسول الله ﷺ يقول: «المسلم مرآة أخيه»[1] يرى فيه نقصه وعيبه فيكمله. وإذا نحن لم يرَ أحدنا من الآخر ما يعينه على تصحيح خطئه، فإننا نكون قد فرطنا فى ديننا. إنها فريضة واجبة: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، جعلهما الله مُهِمَّة الأنبياء والرسل والقادة والدعاة المصلحين.

ولكنْ ما أيسر أن يحاسب الإنسان منا غيره، وإنما الصعب أن يحاسب نفسه قبل غيره، فيسأل أين هو من تحرى الحلال وترك الشبهات، وأين هو من الدين عمومًا. لذلك يجب أن تأتمر وتنتهى قبل أن تأمر الناس وتنهاهم، لأن الفصام فى هذه المسألة يزيد التشوه فى صورة العمل بالإسلام، والعمل له.

إن المنطق والعقل يوجبان أن نحاسب أنفسنا على زلاتنا وأخطائنا قبل أن نحاسب غيرنا على خطئه وزلته، فلو أن كلاً منا وضع الآخرين فى قفص، وسدد إليهم إصبع الاتهام، وترك نفسه - سيصبح عندنا حوالى

(١) رواه أبو داود.

٦٥ مليونًا في مصر مثلاً – أو ١٢٠٠ مليون على مستوى العالم الإسلامي – كل واحد منهم يمد إصبعه إلى غيره بالاتهام، ويبرئ نفسه!!

الأمر الثالث: الذى ذكرته آية سورة الأعراف السابقة هو: ﴿ .. **وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** .. ﴾ الأغلال التى تشل طاقة الفرد، وتحجب عنه القدرة على رؤية الحق والتمييز بينه وبين الباطل، فإن رآهما وميَّز بينهما لم تصل به شجاعته حتى يكون له موقف إيجابى، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وإنما يستخزى، ويتخذ موقفًا سلبيًا. جاء الإسلام ليرفع هذه الأغلال، ليوجد أمة رسالة وحملة أمانة.

الله تبارك وتعالى جعل نقطة التحول فى حياة الفرد وحياة الأمم بادئة بتغيير ما فى النفس ومراجعتها وتصحيحها: ﴿ .. **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** .. ﴾ [الرعد: ١١] – فإن تزكية الداعية والمربى لنفسه ولمن حوله من الناس – هى مهمة الأنبياء الواجبة على كل من يحمل همّ هذا الدين.. ورد فى دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام لذريته قوله – كما يذكر القرآن: ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وتكرر هذا المعنى فى كتاب الله تعالى كصفة ملاصقة لدعوة خاتم الأنبياء ﷺ مما يعنى أهميته البالغة فى تمام الوعى بهذا الدين وحسن فهمه، يقول تعالى: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

والحاصل الآن هو أن التربية الإسلامية غائبة، نحن لا نحسن تربية أبنائنا الصغار، ولا نحسن تربية أنفسنا، ولا يحسن بعضنا تربية بعض على مقتضى ديننا - تربية عملية كاملة شاملة فى فهمنا للدين وفى عملنا به. ينبغى أن نفهم الإسلام من زاوية التزكية والتربية على مبادئه، الإسلام يوجب أن يكون العدل - مثلاً - مطبقًا: على نفسك فى بيتك؛ معك ومع زوجتك وأولادك، فى عملك؛ مع الصديق والعدو.

الشورى أساس الإصلاح:

وكذلك الشورى ركن أساسى، وفريضة فرضها الله تبارك وتعالى، وخلق إسلامى ينبغى أن نربى عليه كل من معنا، أما أن يكون الأمر قائمًا على أساس التعسف أو الاستبداد، أو أن يكون أحدنا مغرمًا برأيه معجبًا به - فهذا ليس سبيل الرشاد. مصيبة كبرى أن تربى أولادك وتلاميذك على مبدأ: الغِ عقلك وسر ورائى!! هذا منطق الكفر والطاغوت كما أورد القرآن حكاية عن فرعون: ﴿ .. **قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ [غافر: ٢٩]، أما نحن فعندنا رسول الله يقول له ربه ويعلمنا: ﴿**قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف: ١٠٨]، وكان أصحاب رسول الله يعلمون الأمة أنها لا تتبعهم عن عمى، ولا يقهرونها على الطاعة، ولكن كما يقول أبو بكر الصديق رضى الله عنه: «**أطيعونى ما أطعتُ الله فيكم، فإن عصيتُه فلا طاعة لى عليكم..**»، ويقول عمر رضى الله عنه للناس: «**إن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقوّمونى**»، فمكانة الأمة فوق مكانة

الحاكم، فهى الحافظة للشرع وعليها مساءلة حاكمها.

الخلاص إذن هو أن نرجع إلى ديننا وشريعة ربنا، ونعمل بمقتضى الكتاب والسنة، بفقه وقوة وخطة عمل دؤوب مخلص: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

هناك دائمًا نوعان من الناس: ناس تفرط، وناس تعمل، ولن يكون جزاء الفريقين عند الله واحداً، يقول تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ [الجاثية: ٢١] فالذى اتخذ سبيل أهل البصائر والهدى، واستعان بها على إصلاح أمر نفسه وأمر أمته، وطبق تعاليمها تطبيقًا صادقًا وعمل بها - هذا يصير أمره إلى الخير فى الدنيا والآخرة. ولباس الجوع الذى لبسناه، ولباس الخوف الذى وضعنا الله فيه بتفريط من عندنا: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [النحل: ١١٢]، فنحن - كما شاءت قوانين الله فى خلقه - نصنع بأيدينا حاضرنا، ونصنع بأيدينا مستقبل أبنائنا، إن عملنا كان الله معنا وأيدنا، وحقق لنا وعده بالنصر والتأييد: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي**

شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. فإن لم نعمل لم نجن من قعودنا وفساد أمرنا إلا الوبال والخذلان، وتلك سنة الله فى خلقه. وعبادة الله (الإيمان وعمل الصالحات) هى الشرط الذى يترتب عليه تحقيق الوعد الإلهى، وهذه العبادة لا تنحصر فى الشعائر المفروضة، بل هى فعل الخيرات فى كل مجال، حتى تساعد الفقير والمريض، وتسد حاجة المحتاج، وتعين المظلوم – هذا هو المفهوم العملى الواقعى للعبادة، وليست العبرة بكثرة الكلام، ولكن بحضور القلب والتدبر وحسن التلقى، والعمل على مكانتنا – كما يعمل غيرنا ومن أعدائنا على مكانتهم، لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٣٩]، فيه وعد للمؤمنين، ووعيد للكافرين المعاندين، وإيذان للنبى بأن حاله لا تقف فى مقابلة طغيان عدوه، بل تزداد كل يوم قوة وشدة، لأن الله يحق الحق ويبطل الباطل لقوله تعالى: ﴿.. وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

وفى وجوب العمل على المكانة كمنهج إصلاح وتغيير وظهور على العدو الباغى، وردت آيات عدة مثل قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ [هود: ١٢١]، وذلك هو معنى محاصرة العدو، وأنه بالعمل لا بالقول ولا بالتمنى والتخاذل.

* * *

[١٦]

تدبر قرآني في المولد النبوى

دعوة للتجديد :

في زمن ساءت فيه أحوال المسلمين في مواقع كثيرة من العالم، يأتي يوم مولد رسول الله ﷺ حافزاً على البعث والتجديد، وهذه حقائق ألمت بذهني في إحدى المرات التي مرت عليّ فيها تلك الذكرى :

أ - المناسبات الإسلامية تمر بنا مراراً وتكراراً، ولكنها - في العادة - لا تغني شيئاً؛ فالعبرة ليست بالكلام، ولكن بعمل يتم وجهاد بالأموال والأنفس يُحقّق، فما فائدة علم لا يُعمَل به، ومعلومات نتناقلها دون أن تأخذ سبيلها إلى حياتنا العملية ؟!

ب - يقول الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فجمع الله لنبيه ﷺ هاتين الصفتين الكريمتين: الرأفة والرحمة، وهما صفتان لله تعالى على مقتضى الكمال المطلق، وصفتان لرسول الله على مقتضى الكمال الإنساني، وصفتان لكل مؤمن تقي، قال تعالى : ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح : ٢٩]، ومن حق المسلمين في كل زمان ومكان أن يراعوا هذا التشدد وهذا التعطف .

ج - يقول الله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ**

اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠]، وقد جاءت الآية فى سياق الحديث عن زواج النبى ﷺ من زينب بنت جحش - رضى الله عنها - بعد طلاقها من زيد بن حارثة - رضى الله عنه - الذى كان رسول الله ﷺ قد تبناه، فأبطلت هذه الآية التبنى برمته، ونفت أن يكون لرسول الله ﷺ ابن من صلبه يبلغ مبلغ الرجال، ولكن تبقَى الأبوة الروحية من رسول الله لكل المؤمنين، فهو القدوة الواجب اتباعها من كل المؤمنين: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب : ٢١]، وقوله تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ.. ﴾ [الأحزاب : ٦]، هو أب لهم فى الدين. وقال مجاهد : كل نبى فهو أبو أمته، ولذلك صار المؤمنون إخوة وأزواج الرسول أمهاتهم. فالرسول ﷺ أولى بالمؤمنين فى كل شيء من أمور الدين والدنيا، فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه ﷺ أنفذ عليهم من حكم أنفسهم، وحقه آثر لديهم من حقوقها، وأن يبذلوها دونه ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب، وألا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم ولا ما تصرفهم عنه، ويتبعوا كل ما دعاهم إليه وما صرفهم عنه؛ لأن كل ما دعى إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين، وما صرفهم عنه فأخذ بحجزهم لئلا يتهافتوا فيما يرمى بهم إلى الشقاوة وعذاب النار، فهو أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم من أنفسهم.. وعن النبى ﷺ : «ما من مؤمن إلا أنا أولى به فى الدنيا والآخرة» اقرءوا إن شئتم: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ.. ﴾، وأيما مؤمن

هلك وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا، وإن ترك دينا أو ضياعا فإليّ»[1].

د – وفي نفس الآية الأربعين من سورة الأحزاب نجد وصف النبي ﷺ بأنه: «خاتم النبيين»، وقد اقترنت بهذا الختم المبارك أمور تغني عن الحاجة إلى نبوة جديدة؛ من ذلك: إكمال الدين وإتمامه: ﴿ .. **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** .. ﴾ [المائدة: ٣]، ومنها بقاء طائفة من الناس تحمل الإسلام دائماً، يقول رسول الله ﷺ: «**أنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله**»[2]. أولئك دعاة الحق والعلماء الأثبات وجماعات المقاومة للغزاة المعتدين، يبذلون المال والنفس في سبيل الله، لعزة الدين ونصر الأمة على أعدائها المعتدين.

ومن الأمور التي أغنت عن الحاجة إلى نبوة جديدة بعد الرسول محمد ﷺ: حفظ الله لهذا الدين وشريعته – قرآنا وسنة – من الضياع أو التشويه أو التبديل، وجاء حفظ السنة النبوية وتمييز صحيح المرويات من سقيمها تكملة لحفظ القرآن نفسه، فالله تعالى حين حفظ القرآن هيأ له أسباب الانتقال والانتشار الدقيق من مكان إلى آخر ومن جيل إلى غيره، وحين حفظ السنة هيأ لها من الرجال ما يكفي لبيان صحيحها من غير الصحيح.

هـ – الوصية بالعمل بالقرآن والتمسك به تنطوي على وصية بالعمل

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه بمعناه، كما جاء في الكشاف للزمخشري.

(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

بالسنة النبوية والتمسك بها، فقد أوجب القرآن طاعة الرسول كما أوجب طاعة الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ..﴾ [النساء: ٥٩]، وقال: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال رسول الله ﷺ: «من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن عصى أميرى فقد عصانى»[١]. وقال: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله، وسنتى، ولن يتفرقا حتى يردا علىّ الحوض»[٢]

و - ركز أعداء الإسلام الذين قصدوا تشويهه علىَ شخص النبىَ ﷺ فرموه بالتهم الغلاظ، من قبيل أنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مخترع للقرآن من عند نفسه أو غير ذلك، وحاول المعاصرون منهم له ﷺ فتنته وصرفه عن الهدى الذى يدعو إليه، وحكى القرآن بعض ذلك.. يقول الله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣].. قال سعيد بن جبير: كان النبى ﷺ يستلم الحجر الأسود فى طوافه، فمنعته قريش، وقالوا: لا ندعك تستلم حتى تُلِم بآلهتنا. فحدث نفسه وقال: «ما على أن أُلم بها بعد أن يدعونى أستلم الحجر، والله يعلم أنى لها كاره»، فأبى الله تعالى ذلك وأنزل عليه هذه الآية. وقال قتادة: ذكر لنا أن قريشا خلوا برسول الله ﷺ ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخمونه، ويسوّدونه ويقاربونه؛ فقالوا: إنك تأتى

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك.

بشيء لا يأتى به أحد من الناس، وأنت سيدنا؛ وما زالوا به حتى كاد يقاربهم فى بعض ما يريدون، ثم عصمه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى هذه الآية. ويضيف القرطبى: ومعنى ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ أى يزيلونك. يقال: فتنت الرجل عن رأيه إذا أزلته عما كان عليه؛ قاله الهروى. وقيل يصرفونك، والمعنى واحد. «عن الذى أوحينا إليك» أى حكم القرآن؛ لأن فى إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن. «لتفترى علينا غيره»؛ أى لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك.. ﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ أى لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلا، أى والوك وصافوك؛ مأخوذ من الخُلة (بالضم) وهى الصداقة لممايلته لهم..» ا.هـ.

وعند مقارنة هذا الموقف الذى لا يرضى بالمساومة بالموقف يوم الحديبية، والصلح الذى أجراه النبى ﷺ مع قريش على كراهية من كثير من المسلمين، سنتعلم أن مسائل العقيدة لا تقبل المساومة، وأما الحديبية فهذه سياسة وفيها مكان للتقدير. وهذا يعلمنا أن نحمل الإسلام حملاً كاملاً، وأن نعرف أصول ديننا، وما يقبل التنازل من الأمور وما لا يقبله. وهذا يمس واقعًا نعيشه الآن فى علاقتنا مع الدولة الصهيونية، فهل يجوز أن نقبل موادعة مع من لا يحترم ديننا، وينتهك حرمة إخوتنا فى الدين، ويستغل ميزان القوى الذى يرجح كفته لفرض حلول تضيع فيها حقوقنا، والقبول بالأمر الواقع الذى فيه إضاعة الحقوق وخسران الدنيا والآخرة. وإن تركيز خصوم الإسلام على شخص النبى ﷺ يعنى إدراك هؤلاء الأعداء أنفسهم لموضع الرسول من هذا الدين، فالشهادة له بالرسالة لابد من

اقترانها بشهادة التوحيد (لا إله إلا الله)، وهو الداعية الأول إلى الإسلام فى رسالته الخاتمة، وهو الوحيد الذى يعتبر كلامه وأعماله جزءاً من الدين، طالما كان لها الصفة التشريعية فإنها من تمام بلاغة الدين عن ربه.

ز - ونحن نحتفل بذكرى مولد الرسول ﷺ لابد أن نستحضر مهمته التى كلفه الله بها: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيراً ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]. لأداء حقها بعد وفاته ﷺ. ومع أن المعنى واضح، إلا أننا ننقل تأكيداً له - قول الطبرى - فى معنى الآيتين: « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ﴾ على أمتك بإبلاغك إياهم ما أرسلناك به من الرسالة، ومبشرهم بالجنة إن صدقوك وعملوا بما جئتهم به من عند ربك، ﴿ وَنَذِيراً ﴾ من النار أن يدخلوها، فيعذبوا بها إن هم كذبوك، وخالفوا ما جئتهم به من عند الله... وداعيا إلى توحيد الله، وإفراد الألوهية له، وإخلاص الطاعة لوجهه دون كل من سواه من الآلهة والأوثان.. ».

إن مهمة الدعوة انتقلت بوفاة الرسول ﷺ لتكون واجبًا من واجبات أمته من بعده، كى تتواصل مسيرة إرشاد الخلق إلى سبيل ربهم؛ لإقامة الحضارة البشرية المؤمنة. ونحن مسئولون أن نعمل ونواصل، والصحابة - رضوان الله عليهم - خير جيل، هم أول من خلف الرسول ﷺ فى سبيل الدعوة إلى الله، وجهدهم جهد بشرى، وإمكاناتهم كذلك بشرية، وانتفعوا فى تجربتهم بالأخذ البصير بالأسباب، مستحضرين بشاشة الإيمان الذى خالط قلوبهم ونفوسهم. فما حمله الصحابة والتابعون من أمانة

الدعوة من بعد وفاته، وهو ما يتعين على أمة الإسلام فى زمان ومكان أن يحملوه، فالقرآن الكريم الذى أمرهم ونهاهم، وبصرهم بأمور دينهم ودنياهم، ووعد المؤمنين بالنصر وأوعد الكافرين بالخذلان، والسنة الصحيحة عن الرسول ﷺ محفوظان بحفظ الله إلى يوم القيامة، وهديهما نور لا يطفأ، والحاجة إلى هديهما قائمة وتزيد فى زمان الفتن، وعموم البلوى، واشتداد الظلم والفساد. فلا عذر لأمة الإسلام حكاما ومحكومين، فيما آل إليه حالها من انحطاط، وذهاب السلطان، وتفرق واختلاف مكّنا أعداءها منها، وضياع وحدة الأمة واختراق العدو لصفها، وغزو ديارها، وإلحاق الدمار بأوطانها، وانتهاك حرمة دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وما كانت هذه الابتلاءات إلا عقوبة من الله على ترك هدى كتابها وسنة رسولها والتفريط فى أداء الأمانات التى أمرنا شرع الله بحملها، وفى الحكم بغير العدل، مخالفين أمره تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ [النساء: ٥٨]، والخطاب هنا عام لكل أحد فى كل أمانة.

ح - وهناك مهمة التزكية والتربية التى تعتبر من المهام الرئيسة للنبى ﷺ وقدمها القرآن فى الذكر على تعليم الكتاب والحكمة؛ ذلك لأن الأنفس إن لم تُزكَّ خابت: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وإنما جعل الله سبحانه تزكية الأنفس فى محكم آياته مهمة أساسية من مهام رسوله الكريم بعد البلاغ عن ربه لأن تزكية الأنفس أساس كل إصلاح يبتغى، وما لم نرع أمور التربية والتزكية فإن أى إصلاح لن يؤتى ثماره، وإن فعلنا فسنكون كمن يزرع فى ارض مجدبة، ولا يروى زرعه بالماء، فيفقد البذرة والجهد، ويُضيِّع الأرض، فلا يؤتى الثمرة الصالحة إلا بذرة طيبة يتعهدها صاحبها بالرعاية الواجبة، ولا يحمل الخير للناس إلا من أشربه وتربى عليه، وفاقد الشىء لا يعطيه، فتزكية أفراد الأمة هى تهذيبها وتربيتها، بتطهير نفوسهم من الأخلاق الذميمة، وينزع منها العادات القبيحة وأن تعوّد الأعمال الحسنة التى تطبع فى النفوس ملكات الخير، وأن يبغّض إليها الأعمال القبيحة التى تغريها بالشر.

وقد قدمت التزكية لأن تعلم الكتاب والحكمة لا يكفى فى إصلاح الأمم وإسعادها، بل لابد أن يقرن التعليم بالتربية على الفضائل والحمل على الأعمال الصالحة بحسن الأسوة والفقه فى الدين والوعى بآيات الله فى الآفاق والأنفس وسننه الثابتة فى العمران.

ط - ويقول الله تعالى: ﴿ **وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ** ﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢].. إذا كنتم تريدون أن تقضوا على الدعوة فاعملوا، فسنقابل عملكم هذا بعمل، ولا يدفع الجهد إلا جهد مثله أو أقوى منه، ولا يدفع التيار إلا تيار مثله.. ولكن هل سنعمل بسرعة ونندفع بلا تفكير؟ لا.. ليس الطيش هو الحاكم لحركة المسلم، الأمر يحتاج إلى تعقل، فلكل مسالة تركيبها وملابساتها

وعنصر الزمن شريك فى التغيير: ﴿وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، لابد من زمن أجمع فيه قوتى، وأربى فيه أمتى، وأعدُّ الإمكانات المتاحة لى، وأوظفها فى الطريق الصحيح.. هذه هى فلسفة مواجهة العداوات التى نتعلمها من هذه الآية التى وجهت الخطاب إلى رسول الله ﷺ.

ونحن فى ذكرى مولده، لابد أن نعمل على مكانتنا لتوحيد صفوفنا وجمع كلمتنا وصيانة مقدساتنا وأراضينا كمشروع حضارى تضطلع به أمة الإسلام – كما فعل المصطفى ﷺ وصحابته من قبل...

* * *

[١٧]

الإسراء والمعراج

مكثت الدعوة الإسلامية فى العهد النبوى الشريف قرابة ثلاثة وعشرين عامًا، انقضى منها فى مكة ثلاثة عشر عاما، ثم فى المدينة عشرة أعوام.

أما المرحلة المكية فكانت مرحلة استضعاف وتسلط من قريش، ومساءات متتابعة يتلقاها النبى ﷺ وصحبه من شيوخ الكفر والشرك، والنبي والذين آمنوا معه صابرون ماضون فى دعوتهم إلى الله، على الرغم من أنهم نفوا عن بلدهم مكة إلى أطرافها، فحوصروا فى شعاب الجبال، لا يجدون القوت، إلا ماترق به قلوب بعض عبدة الأوثان من قريش، وكان المؤمنون أحيانا لايجدون حتى الشوك ليأكلوه!!

هذا الأذى الشديد تحمّله المسلمون فى شجاعة وصبر، ولم يوهن عزائمهم، ولا فتَّ فى أعضادهم، ولا آلان لهم قناة، بل كان هذا تربية لهم وتعويدا على تحمل الصعوبات، مما يمثل جزءا أساسيا من مقومات الدعوة وعناصر استقرارها واستمرارها وتحصيل مقصودها.

ولما ضاق المشركون بثبات المؤمنين وإصرارهم على طريق دينهم، حاولوا بكل الطرق إثناء النبى ﷺ عن دعوته، فأغروه بالدنيا ظنا منهم أنها ستسيل لعابه، لكنه لم يستجب لإغرائهم، وحسبوا أنه مريض فعرضوا عليه أن يتولوا إحضار المعالج له، لكن هذا لم يكن شأنه.. أخرج ابن جرير وابن إسحق وابن المنذر وابن أبى حاتم، عن ابن عباس - رضى الله

عنهما – أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب ورجلا من بني عبدالدار وأبا البختري – أخا بني أسد – والأسود بن المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبدالله بن أبي أمية وأمية ابن خلف والعاص بن وائل ونبيها ومنبها ابني الحجاج السهميين – اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه.

فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا وهو يظن أنهم قد بدا لهم في أمره بداء – أي ظهور الرأي بعد أن لم يكن –، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم فقالوا: «يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنعذرك، وإنا والله.. ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة، فما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك. فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك – وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي – فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك فقال رسول الله ﷺ: ما بي ما تقولون.. ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا فيئكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتابًا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم.. فإن تقبلوا

منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم».

وفى نفس هذه الفترة المكية كانت أحداث عام الحزن (العاشر للبعثة)، إذ فقد النبى ﷺ فيه سنديه الكبيرين: عمه أبا طالب، وزوجته خديجة، اللذين كانا يعينانه على أداء رسالته؛ هذا بجاهه فى قومه، وهذه برقتها وتخفيفها عن زوجها ما يلقى من قومه، وعقب فقد هذين السندين صارت قريش أكثر تناولا لرسول الله بالأذى من ذى قبل قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا (أى ماتا) فى عام واحد، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام، يشكو إليها؛ وبهلك عمه أبى طالب، وكان له عضدا وحرزا فى أمره، ومنعة وناصرا على قومه، وذلك قبل مهاجرته إلى المدينة بثلاث سنين، فلما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابا.. ودخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى، ورسول الله ﷺ يقول لها: **«لا تبكى يابُنيَّة، فإن الله مانع أباك»**.

مرحلة المدينة:

ثم جاءت بعد ذلك المرحلة التالية، بعدما استكمل المسلمون فى مكة مقومات قيام الدولة والأمة المسلمة، فأذن الله لهم بالانتقال والهجرة إلي المدينة، ومعهم رسول الله ﷺ الذى بادر هو وأصحابه إلى طاعة الله - سبحانه - وبعد ثمانية أعوام كان الفتح الأعظم، ودخل النبى ﷺ

وأصحابه مكة مظفرين منتصرين، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وخاطب النبي ﷺ الملوك والعظماء في جميع الأمصار بدعوة الإسلام، ومع الانتقال من المرحلة الأولى بما فيها من إيذاء وصبر واحتمال - كان التحول إلى نوع جديد من الصبر والاحتمال، معه بأس وقوة وإذن بالقتال وردّ العدوان، وقبيل انتهاء المرحلة الأولى، كان الإعداد الإلهي للأمة وقائدها ﷺ يتم بصورة منضبطة منتظمة، ويصل إلى صورته الكاملة استعداداً لمسئوليات المرحلة التالية في المدينة..

فقبيل المرحلة التي هاجر فيها النبي ﷺ ولحق بأصحابه في المدينة، وقد اجتمعت له وحدة الأوس والخزرج، وآخى بينهم وبين المهاجرين، وقامت الدولة قبيل ذلك بقرابة عام ونصف العام - وقع حادث الإسراء والمعراج. يقول الله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الإسراء: ١]، فالإسراء رحلة أرضية، أرادها الله لنبيه تكريما وتشريفا، ليريه من آياته تعليما وتهذيبا، لخيره وخير أمته، وقد بدأت الآية الأخيرة بالتنزيه الكامل لله تعالى بهذه الألفاظ سبحان الذى أسرى يقول صاحب الظلال - رحمه الله - في تفسيره لسورة الإسراء: «تبدأ السورة بتسبيح الله، أليق حركة نفسية تتسق مع جو الإسراء اللطيف، وأليق صلة بين العبد والرب في ذلك الأفق الوضيء» فحتى لا ينسى المستمع والقارئ للآية الالتفات إلى المعجزة، منشغلا بالاندهاش الذى يستبعدها، نجد افتتاحًا ينزه الله تعالى عن العجز، وبالتالي يثبت له القدرة على كل شيء.

ثم قال تعالى: ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ فاختار هذا الوصف للنبي ﷺ ولا أشرف منه وصفا في هذه المقامات العالية والمنازل السامية، ولو كانت هناك نسبة أشرف من نسبة العبودية لله تعالى لنسبه إليها، واختيار هذا الوصف (العبودية) في هذا المقام، يعني أن عبودية الإنسان لله تعالى عندما يتحققها الإنسان يرتفع ويرتقي، ويحظى بشرف الدنيا وكرامة الآخرة، ففي كمال العبودية تمام الحرية والانفلات من أسر المادة، وهي أكبر مستعبد يذل رقاب الناس.

والعبودية لله تعالى هي الحد الذي وقف في وجه خطط الشيطان ومحاولاته لإضلال كل ذرية آدم، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الإسراء: ٦٥].

ثم بينت الآية زمن المعجزة: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾، أي في جزء من الليل، والله تعالى يفعل ما يشاء، وليس للزمن سلطان على فعله، لذلك روي أن النبي ﷺ عاد إلى فراشه بعد المعجزة العظيمة، وكان فراشه لم يزل دافئًا من أثر نومه عليه قبل الإسراء.

وأوضحت الآية مبتدأ الرحلة ونهايتها المكانيين: ﴿ مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴾، فتآزر الزمان والمكان في رسم جو الحدث، ونقل المستمع والقارئ إلى ظرفيه الزماني والمكاني، ليعيش معه كله، ووصف المسجد الأقصى الذى انتهت عنده رحلة الإسراء بوصف عظيم: ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ فهو متعبَّد الأنبياء، ومسرح الدعوة للكثير من الرسل، وأرض القدس مدفن للكثير من الأنبياء والصالحين.

وبينت الكلمات القليلة فى الآية الكريمة الغرض من الرحلة، فقال تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ ويقول صاحب الظلال عن هذه الآية كلها: «السياق يتنقل فى آية الافتتاح من صيغة التسبيح لله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ إلى صيغة التقرير من الله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ إلى صيغة الوصف لله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وفقا لدقائق الدلالات التعبيرية، بميزان دقيق حساس، فالتسبيح يرتفع موجها إلى ذات الله سبحانه، وتقرير القصد من الإسراء يجىء منه تعالى نصا، والوصف بالسمع والبصر يجىء فى صورة الخبر الثابت لذاته الإلهية، وتجتمع هذه الصيغ المختلفة فى الآية الواحدة لتؤدى دلالاتها بدقة كاملة».

إن دروس الإسراء والمعراج كثيرة، ومن الضرورى أن نستصحبها معنا فى واقعنا، سعيا إلى إصلاحه بالهدى النبوى الشريف.

كانت المرحلة المكية - كما سبق - مرحلة ابتلاء وإيذاء شديد للمؤمنين، وتجبر وتكبر من الكفار وعباد الأصنام فى وجه من يدعوهم إلى التوحيد، ويسعى لإخراجهم من الظلمات إلى النور - ولم يكن هذا السلوك من المشركين مقصورا على أهل مكة، بل تعداهم إلى غيرهم، ففى نهايات المرحلة المكية قام النبى ﷺ برحلة إلى قبيلة ثقيف فى الطائف، أملا فى أن يجد منهم نصرة للحق، وعونا له على إزهاق الباطل، لكنهم خيبوا رجاءه الكريم، وردوه ردا غير كريم، فخرج من القلب النبوى الشريف ذاك الدعاء المشهور الذى لا ينساه من يسمعه، وجمع خلاصة ما لقيته الدعوة والدعاة من إيذاء المشركين وعنتهم وعنادهم، فلم يجد النبى ﷺ وصحبه من يلجئون إلى بابه إلا الله، فقال داعيا ربه: «**اللهم إليك**

أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين إلى من تكلنى؟ إلى عدو يتجهمنى أم إلى قريب ملكته أمرى؟ إن لم تكن ساخطا علىَّ فلا أبالى، غير أن عافيتك أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الكريم الذى أضاءت له السماوات والأرض، وأشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تحل علىَّ غضبك، أو تنزل علىَّ سخطك، ولك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»(١).

واستجاب الله تعالى دعاء نبيه ﷺ بأن كرمه، وقد هان أمره على قريش وثقيف وغيرهما من المشركين، وأعلى الله منزلة نبيه فى الإسراء والمعراج، فاختصه بشىء لم يحظ به غيره، ورأى من آيات ربه الكبرى لقد أتاه جبريل - عليه السلام - بالبراق، فركبه وانطلق به، حتى بلغ المسجد الأقصى فى زمن قصير جدا، ونزل عن البراق، وربطه فى الحلقة التى يربط فيها الأنبياء دوابهم، ودخل المسجد الأقصى، وصلى ركعتين، وصلى بالأنبياء، وقدم له ملك الوحى جبريل قدحين، أحدهما به لبن، والآخر به خمر، فاختار اللبن، فقال له جبريل - عليه السلام -: **«أصبت الفطرة»**(٢).

ولنا فى الإسراء، وصلاة الرسول ﷺ فى المسجد الأقصى بالأنبياء، إشارة واضحة وتنبيه لأمة الإسلام حكاما ومحكومين إلى حقه وحرمته، وقد تعرض للعدوان الصهيونى، لاسيما منذ اقتحمه السفاح شارون فى عهد سلفه باراك بإذن حكومى وفى حماية جنود الاحتلال الصهاينة،

(١) حديث حسن رواه الطبرانى فى الكبير.

(٢) صحيح رواه النسائى.

ترويعا للمصلين وصداً عن الصلاة وذكر الله فيه، وهم مستكبرون فى الأرض مفسدون بغير حق، لا بديل عن رد عدوانهم، ودعم انتفاضة الأقصى واجب مقدس تحمل الأمة الإسلامية أمانته، حكاما ومحكومين، لإجلاء الصهاينة عن مقدساتنا.

وفى صلاته بالأنبياء إعلاء للإخوة الإيمانية الشاملة، فضلا عن الإخوة الإنسانية العامة، وحق الإخوتين علينا.

وجاءت رحلة المعراج، فعرج به من المسجد الأقصى بجسده وروحه إلى السماوات العلا، وكان يلقى فى كل سماء نبيا ممن سبقه فى طريق الدعوة إلى الله تعالى، وكان جبريل يستفتح له كل سماء، والملائكة ترحب بقدومه، وتسلم عليه، وظل ﷺ يرتقى حتى بلغ سدرة المنتهى وسجل الله عز وجل فى كتابه هذا التكريم، فقال فى سورة النجم: ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ﴾ [النجم:١٨١]، لقد جاءت هذه الرحلة المباركة بعد محنة الطائف، فعلّمت الدعاة إلى الله ألا يقنطوا، وأن يترسخ فى يقينهم أن المحنة تولد من بطنها المنح لمن صبر وصابر.

وقد جاء لفظ: ﴿آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ مجملا، تفخيما لها، ولعل من هذه الآيات التى رآها رسول الله ﷺ فى تلك الليلة وذكرتها آيات سورة النجم: رؤيته لجبريل - عليه السلام - على هيئته المهيبة، وما هو إلا بعض خلق الله، وبانتهاء الرحلة وعودة النبى ﷺ إلى فراشه الذى كان ينام عليه، لم تنته الأحداث، فقد كان رسول الله ﷺ يبيت ليلته تلك فى بيت أم هانئ بنت أبى طالب، وقد حدثها عما رآه فى رحلته المباركة، وهمّ ليخرج، فسألته، فأخبرها أنه يريد أن يخبر قريشا بما راى. ذكر ابن هشام فى السيرة أن أم هانئ هند بنت أبى طالب كانت تقول: «ما أسرى رسول الله ﷺ إلا وهو فى بيتى، نائم عندى تلك الليلة فى بيتى، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر، أهبنا (أى أيقظنا) رسول الله ﷺ فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: **يا أم هانئ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت صلاة الغداة** (أى الصبح) **معكم الآن كما ترين،** ثم قام ليخرج، فأخذت بطرف ردائه، فتكشف عن بطنه كأنه قبطية (نوع من الثياب كان يصنع فى مصر) مطوية، فقلت له: يا نبى الله، لا تحدث بهذا الناس فيكذبوك ويؤذوك قال: «**والله لأحدثنهم..** » وكان أول من استمع إليه، هو أبو جهل - لعنه الله -، أشد المحاربين لدعوته، الذين يبحثون فى أفعال النبى ﷺ وأقواله عن شيء يسفهونه به، فقال أبو جهل وقد استدعى القوم ليسمعوا من رسول الله ما سمعه: «هلم يا محمد حتى تحدث القوم» فحدثهم رسول الله ﷺ والقوم من المشركين بين مكذب ومندهش، وروى البيهقى وابن جرير وابن أبى حاتم أن النبى ﷺ حدّث قريشا عن الإسراء صبيحة ليلته فقال لهم: «**إنى أتيت البارحة بيت**

المقدس» فعجبوا وقالوا: إن أحدنا يضرب مطيته مصدرة شهرا ومقبلة شهرا، وأنت تروح وتجيء في ليلة؟! كان معروفا عندهم أن الرحلة من مكة إلى الشام تستغرق شهرا ذهابا ومثله في العودة، فكيف يذهب محمد ويرجع في جزء من الليل؟! كان هذا شيئا لا تصدقه عقولهم ولا تستوعبه، وعجز تفكيرهم عن السمو إلى آفاق الإيمان التي تعترف لله رب العالمين بالقدرة المطلقة.

لقد كانت فتنة واختباراً تعرض له المؤمنون، كما تعرض له المشركون، فارتد ضعيفو الإيمان، وغال المشركون في التكذيب، وأما المؤمنون - وعلى رأسهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد ازدادوا إيمانا بالله ورسوله، وقال أبو بكر حين كلمه المشركون: «إن كان قال فقد صدق! إني لأصدقه في أكثر من هذا، إني لأصدقه في الخبر يأتيه من السماء في ساعة من النهار».

وفي مرحلة الاختبار، أراد المشركون امتحان رسول الله ﷺ فطلبوا منه أن يصف لهم بيت المقدس، وكان منهم من زاره وعرف صفته، ففي حديث البيهقي السابق: «قال رجل من المشركين: أنا أعلمكم ببيت المقدس، وكيف بناؤه، وكيف هيئته، فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس من مقعده، فنظر إليه كنظر أحدنا إلى بيته، فوصفه لهم» وحكى رسول الله ﷺ ذلك بنفسه في رواية أخرى قال: «**لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر، فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه**»[1] وزيادة في تأكيد صدقه ﷺ

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي.

« قال رجل من القوم: يا محمد، هل مررت بإبل لنا في مكان كذا وكذا؟ قال: **نعم، والله قد وجدتهم قد أضلوا بعيراً لهم، فهم في طلبه»** قال: هل مررت بإبل لبني فلان؟ قال: **«نعم، وجدتهم في مكان كذا وكذا، وقد انكسرت لهم ناقة حمراء، وعندهم قصعة من ماء، فشربت ما فيها»،** قالوا: فأخبرنا عدتها وما فيها من الرعاة. قال: **«قد كنت عن عدتها مشغولا»،** فقام فأوتى بالإبل فعدها، وعلم ما فيها من الرعاة، ثم أتى قريشاً فقال لهم: **«سألتموني عن إبل بني فلان، فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة فلان وفلان، وسألتموني عن إبل بني فلان، فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة ابن أبي قحافة وفلان وفلان، وهي تصبحكم بالغداة على الثنية فقعدوا على الثنية ينظرون أصدقهم ما قال؟** فاستقبلوا الإبل فسألوهم: هل ضل لكم بعير؟ فقالوا: نعم. فسألوا الآخر: هل انكسرت لكم ناقة حمراء؟ قالوا: نعم..»[1].

ومع كل هذه الدلائل على صدق النبي ﷺ فإن المشركين ازدادوا كفراً وعناداً، وازداد المؤمنون ثباتاً على دينهم، ولم يتردد رسول الله ﷺ في تبليغ المشركين بالمعجزة العظيمة، ولم يلن، بل استمسك بالحق الكامل.

إن هذه ليست دروساً خاصة بعصر الصحابة وحدهم، وإنما هي دروس لنا نحن أيضاً، فنحن حينما نتخاصم مع عدونا، فإنه يطمع في أن نتنازل له عن حقوقنا الثابتة الأصيلة، والإسراء علمنا أن نثبت على الحق ولا نتنازل، فإن حق الله فوق كل الحقوق، وإرضاء الله لا ينال إلا بالنزول على حكمه، وإن كلفنا ذلك ما كلفنا، ولنحذر الركود إلى مصالحة نضيّع فيها

---

(١) رواه الطبراني.

حقا من حقوق الله تعالى، مثل السكوت على احتلال الأوطان، واضطهاد المؤمنين.. وقد قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥].

وعلمتنا معجزة الإسراء والمعراج كذلك الصبر، وهو من الفضائل الكبرى والخصال العظمى، فلا فضيلة فى عمل عام أو خاص إلا وفيها صبر: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر فى الدعوة إلى الله، واحتمال مشاقها وابتلاءاتها، التى تزكى أنفسنا وتعدُّنا للنهوض بأعبائها الثقال.

* * *

بنو إسرائيل :

ونحب أن نذكّر فى هذا المقام عن الإسراء بأن السورة التى تحدثت عن هذه المعجزة الكريمة (سورة الإسراء) تناولت أيضا تقلبات الحال التى يمر بها بنو إسرائيل فى تاريخهم، يقول تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ④ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ⑤ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ⑥ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ⑦ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤–٨].

فبنو إسرائيل لما ساء فعلهم، ولم يعملوا بأحكام التوراة، وأفسدوا فى الأرض – بعث الله عليهم عبادا أولى بأس وقوة (وهم بختنصر وقومه) فساموهم سوء العذاب، وانتفع بنو إسرائيل بالدرس، وعادوا إلى التوراة وأحكامها، فكافأهم الله، وزادهم مالا وولدا وعددا، لكنهم، ومع مرور الزمن – انتكسوا من جديد، فتسلط عليهم الرومان، وفعلوا بهم الأفاعيل.. وذكر القرآن الكريم للمرتين من إفسادهم فى الأرض، فيه ذكر لسنته المتمثلة فى القانون السارى فيما بعد هذين المثلين التاريخيين هى: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ ونجد مصداق هذا فى التاريخ كثيرا، فقد عوقبوا على

يد المسلمين فى الصدر الأول للإسلام حين خانوا وخادعوا وانتهكوا الحرمات.. **وهذا القانون سيبقى سارى المفعول إلى يوم القيامة..**

ومن العلماء المعاصرين من يفسر علوهم الأول بمكانتهم فى الجزيرة العربية، ثم أفسدوا بتكذيب الرسول ﷺ ومعاداته فسلط الله عليهم النبى ﷺ وأصحابه.

والعلو الثانى هوالحاصل الآن، وقد كرروا الإفساد فى الأرض وطغوا طغيانا كبيرا، وستأتى عقوبتهم على يد المسلمين بإذن الله.

وحاصل هذا أن بعض المفسرين يرى أن العلوين والإفسادين قد مضيا فى تاريخهم القديم، وبعضهم يجعل ذلك فى المستقبل بالنسبة لنزول الآيات الكريمة، واللفظ محتمل، والله أعلم بمراده..

مكانة الصلاة:

ولا أرى أن نذكر معجزة الإسراء والمعراج دون أن نقف وقفة عظيمة الشأن، أشار إليها الرسول ﷺ فى حديث له عنها: **«ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى.. فلما غشيها من أمر ربى ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلىَّ ما أوحى، ففرض علىّ وعلى أمتى خمسين صلاة فى كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم، قال ﷺ: فرجعت إلى ربى، وقلت له يا ربى: خفف عن أمتى.. قال: فلم أزل حتى قال رب العزة: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، بكل**

صلاة عشر فتلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن همّ بحسنة فعملها كتبت له عشراً»[1].

ففريضة الصلاة دون غيرها فرضت من فوق سبع سماوات عند سدرة المنتهى في المعراج دون واسطة، بل مباشرة بين الله سبحانه وعبده محمد ﷺ، تعليما لها بعلو قدرها وعظم أثرها، فهي الفارقة بين الإيمان والكفر، ومناط الفلاح في الدارين للمؤمنين: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾ [المؤمنون: ١، ٢] وكونها لطفا في ترك المعاصي، وكأنها ناهية عنها، لقوله تعالى: ﴿**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤٥] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا»، وعن الحسن رحمه الله: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة وهي وبال عليه» ومعنى قوله تعالى: ﴿**وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾ إنها أكبر من غيرها من الطاعات وسماها بذكر الله ولا غرو فهي عماد الدين، وبها يستعان على البلايا وفي الحديث الشريف: «**كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة**»[2]. وهي إسراؤنا إلى الحرم، ومعراجنا إلى الله سبحانه، وهدية الله إلى عباده المؤمنين في معجزة الإسراء والمعراج.

* * *

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) أخرجه الطبراني وأبو داود.

[١٨]

الهجرة النبوية

دروس وعبر

الهجرة فى الإسلام حدث عظيم الشأن، وعلى المسلمين استحضار دروسها، والانتفاع بها. والمسلمون فى الصدر الأول للإسلام وُفقوا لاختيار الهجرة النبوية ليؤرخوا بها، فأثبتوا أنهم أمة دعوة ورسالة، ولم يربطوا ذلك بميلاد شخص أو وفاته، ولو كان رسول الله ﷺ كما فعل النصارى بالتأريخ بميلاد المسيح عليه السلام.

وأجيالنا الجديدة بعيدة عن الصورة الإسلامية للفكر والعمل، وتعانى من أمية دينية، والأمة كلها محتاجة إلى أن تتفقه فى الكتاب والسنة، وتتعلم من حادث كبير كالهجرة، وتعيش فيه بقلبها وعقلها، وتهتدى به فى عملها على الصعيدين الخاص والعام.

قبل الهجرة جرى للمسلمين الكثير من المآسى والمساءات والأذى الشديد على يد كفار قريش، حتى نال النبىَّ ﷺ من ذلك شيءٌ كثير، وكذلك الصحابة صغارهم وكبارهم، رجالهم ونساؤهم، فصبروا وثبتوا، فكان الدرس الأكبر والكلمة الجامعة التى توضع عنوانًا لما قبل الهجرة (فترة الدعوة المكية) هى «الصبر»، فكانت المعركة معركة صبر، تحتاج إلى رباطة جأش، وتحمل للأذى، وثبات على الحق فى وجه العدو، الذى سيحاول القضاء على الدعوة بالإغراء أحيانًا، وبالتهديد أحيانًا، وبالإيذاء

الفعلى أحيانًا، لكن أهل الإيمان يجدون بإيمانهم قوة لايجدها غيرهم.

وفى مكة حين اشتد بالمسلمين الأذى، وخاف عليهم رسول الله ﷺ الفتنة أمرهم بالهجرة إلى الحبشة، كان أحدهم لا يستطيع أن يصلى فى مكة، ولا يقدر على الجهر بقراءة القرآن دون أن يؤذى، فكانوا يفرون إلى الجبل والأجزاء البعيدة من مكة بعيداً عن تحكم الطغاة المستبدين من كفار قريش، لم يكن قد أذن بعد إلا بالصبر والثبات، والتزود بالخلق الكريم، وبالقدرة على مواجهة الصعاب وتحملها، لأن دوراً قادماً ينتظرهم بعد الهجرة إلى المدينة فى مرحلة جديدة غير مرحلة مكة تتطلب تهيئةً وإعداداً، لعظم الدور الذى ينتظرهم.

كان العهد المكى، إذن، عهد تربية وإعداد وبناء للفرد المؤمن الصالح، الذى يملك المؤهلات الكافية لحمل رسالة الإسلام العظيم.

وهذا يلفتنا إلى أهمية تأسيس الشخصية المسلمة بحسن التربية والإعداد، حتى نقوِّم الاعوجاج، ونصحح الإيمان، ونشد العزائم، ونرسخ الفقه فى الدين. فإذا نجحت الأمة فى إخراج جيل على هذه الشاكلة، استطاعت التغلب على العوائق وتحقيق رسالتها بين البشرية.

مقدمات الهجرة:

وحين ننظر إلى المقدمات المكية لحادث الهجرة العظيم، سنجد أن الرسول ﷺ قد اشتد به وبأصحابه الأذى اشتداداً كبيراً فى عام الحزن، الذى رحلت فيه عن الدنيا زوجته خديجة – رضى الله عنها – وعمه أبوطالب، وذهب إلى الطائف يدعوهم إلى دينه، لكنهم خذلوه، وأساءوا استقباله، حتى إنه لم يجد ما يقوله سوى هذا الدعاء المشهور: «**اللهم إنى**

أشكو إليك ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس. أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى قريب يتجهمنى، أم إلى عدو ملكته أمرى؟! إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى، لكن عافيتك هى أوسع لى». هذه الدعوة الكريمة ارتفعت إلى عنان السماء، فاستجاب الله لها، وطيب نفس نبيه ﷺ بثلاثة أشياء:

الأول: الإسراء والمعراج، حيث الرحلةُ إلى بيت المقدس، وإلى السماوات العلى، والرجوع بأم العبادات، وهى الصلاة.

الثانى: بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية، حيث بايع فريق من الأوس والخزرج على السمع والطاعة لرسول الله ﷺ وحمايته إذا انتقل إلى بلدهم. وعاد هؤلاء إلى المدينة، وبشروا بالإسلام، حتى لم يكن فى المدينة بيت إلا دخله هذا الدين. وأدى مصعب بن عمير دوراً عظيمًا مع المسلمين الجدد، وكسب إلى صف الإسلام كثيراً من وجهاء يثرب وعظمائها، ومهد المدينة لتلقى رسول الله ﷺ.

الثالث: الهجرة إلى المدينة، وكان انعتاقًا من الإيذاء المكى للمسلمين ورسولهم، وانطلاقة بالدعوة فى آفاق من الحرية الواسعة، وبذل الأموال والأنفس، وبناء الأمة وإقامة الدولة.

عندما أُذن لرسول الله ﷺ فى الهجرة، كان الوقع عظيمًا والحدث كبيراً، وأدرك هو ومن معه من المسلمين أنهم يقبلون على عهد جديد غير العهد الذى مضى، فقد أُذن لهم، بل طولبوا بدفع الظلم عن أنفسهم، فإن الإسلام بُنى على العزة على الرغم من حبه للسلام والمسالمة: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ**

يُقَـاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْـرِهِمْ لَقَـدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]. وهذا موضوع مهم يحتاج إلى وقفة؛ لأنه يبين فكرة أصيلة فى الإسلام، وهى أن الأصل فى هذا الدين **هو السلام، وحقن الدماء، والتعاون بين الناس على البر والتقوى، وفتح القلوب لكل الحضارات لأخذ النافع منها**، على أساس من القاعدة القرآنية فى العلاقات الخارجية التى جاء ذكرها فى قوله تعالى: **﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾** [البقرة: ١٤٨]، وهو ما لم تبلغه بعد البشرية، ولا عملت به الدول الكبرى فى تعاملها مع غيرها بل عملت بضده من حروب طاحنة، كالذى يجده الفلسطينيون من المغتصب الصهيونى من ارتكابه جرائم حرب بغير حق، أمدته الولايات المتحدة بأسلحتها وأيدته بكل إمكاناتها فى انحياز آثم، ناهيك عن التهديد الغربى المتصاعد للحضارة العربية الإسلامية، والإصرار على وصف مقاومة الاحتلال الصهيونى بالإرهاب!! بل وتبرئة الكيان الصهيونى من جرائم الحرب التى يرتكبها ضد الشعب الفلسطينى بسفك الدماء وحصار المواطنين ومحاربتهم فى أرزاقهم وأمنهم.. إنهم يستبقون الشرور لا الخيرات..

ولكن إذا لم يسلك الغير هذا المسلك، ومال إلى العدوان وسلب الحقوق، هل يكون من الحكمة السكوت على ظلمه وتعديه؟!، وقد أمرنا شرعنا الحكيم بحتمية المقاومة ومجاهدة المعتدين كما فى قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾** [الشورى: ٣٩].

إن الكيان الصهيونى ومن يساندها من القوى الكبرى التى تزعم أنها حامية السلام، ومع ذلك تسفك الكيان الصهيونى كل يوم دمًا بريئًا على

أرض فلسطين وتنتهك حرمة المسجد الأقصى ولبنان، وتناصر الدولُ الكبرى الظالم على المظلوم، وتكيل فى مجال العلاقات الدولية بمكيالين، ولا تعترف بالحق لأهله، وتخدعنا عن الحقائق الثابتة الواضحة، شعارات كاذبة ومؤامرات ظالمة وخدع آثمة.

ديننا لا يجيز التعدى ولا الظلم، كما لا يرضى الاستكانة ولا الذل، يقول تعالى: ﴿ **فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ** ﴾ [محمد: ٣٥]، فينهى عن طلب السلم والحقوق ضائعة ومغتصبة، فإن السلم الذى يقر سارقًا على سرقته هو استسلام وخضوع، وهذا لا يجوز للمؤمنين؛ لأنهم الأعلون دائماً، وإن مالت الكفة إلى صالح عدوهم لبعض الوقت. والله تعالى يقول: ﴿ **وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء: ١٠٤]، أراد الله منا أن نقف وقفة أمة واحدة فى وجه العدو، ليرى منا قوة وعزة جانب، يعز افتراقنا، ولا تتاح له هزيمتنا، فلعله أن يعود إلى رشده، ويعرف أنه ليست له فى الظلم مصلحة، بل إن مصلحته فى الرجوع عن الظلم إلى الحق وطلب السلم الحقيقى.

المؤاخاة وبناء المجتمع:

كان هذا الانتقال الذى حدث للمسلمين بالهجرة شيئًا مهمًا، أبان عن معلم كبير فى هذا الدين - كما قلنا فيما سبق - وهنا المؤاخاة التى عقدها رسول الله ﷺ فى المدينة بين الأوس والخزرج والمهاجرين والأنصار، فكانت وحدة الأمة أثرًا من وحدة الدين، وأساسًا للمرحلة القادمة التى تنتظرهم في المدينة.

والتآخي والمحبة بين المؤمنين من نعم الله الكبرى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]، فلا يقدر على ائتلاف القلوب واتحاد المؤمنين إلا من يملك تلك القلوب فهو يقلبها كيف يشاء، ومناط ذلك عقيدة التوحيد والإيمان ورابطة التآخي في الله والتعاون بين المؤمنين بعضهم بعضاً.

والمؤاخاة التي عقدها النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار كونت منهم أمة واحدة، وقال فيهم الله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

والفقراء الذين هاجروا سماهم الله «الصادقين» والذين في المدينة من أنصار سماهم «المفلحين».. وهذه هي الشرائح التي يمكن أن تقوم عليها الأمة، وتجمع كلمتها.. إنها مقومات الصدق والفلاح التي يجب أن نتعهدها في أنفسنا وأولادنا، وتجتمع عليها كلمة المسلمين.. يقول الله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٨، ٩].

إنها أمة ممن وصفهم الله فى كتابه بالصدق، هذه أخلاقها وهذا فهمها لدينها، وهذا هو عقلها القوى المستنير وعملها المستقيم، وصدقها وعدلها، وأمة كهذه هى التى يمكن أن تسترد العافية إذا سلبت، والقوة إذا ذهبت، والوحدة إذا ضاعت، والطريق إذا ضلت الأقدام.

وانظر كيف جاء التسلسل طبيعيًا فى المرحلتين المكية والمدنية، وفى داخل كل مرحلة على حدة، فثلاثة عشر عامًا لتأسيس نواة اجتماعية قوية تمثل الدين الحق، ثم انتقال بهذه النواة إلى رحاب أوسع تضمن لها ولدعوتها الحرية، ومؤاخاة عميقة فى الله بين اللبنات القديمة والحديثة لهذا البناء، ثم بناء دولة تتكلم باسم هذا الدين، وبهذا كانت إقامة الوحدة فى الأمة دينًا، وكذلك كانت إقامة الدولة دينًا.

وظيفة الأمة:

وتؤكد الهجرة أن وجود الأمة لازم، ولابد للأمة من دولة تحترم مبادئها وتطبقها، فكان من دروس الهجرة المهمة وجوب تأسيس وإقامة الدولة المسلمة. وقد نبه القرآن منذ الفترة المكية على فكرة الأمة ووحدتها: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٩٢]. وفى المدينة قال: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ [البقرة: ١٤٣]. والإسلام عندما أقام الدولة أقامها دولة حق ودعوة، لا دولة باطل واستكبار، تقيم العدل بميزان واحد، ولا تكيل بمكيالين؛ لأنها دولة قيم ومبادئ.

والآيات التى تضمنت الإذن بالقتال تبين الفارق بين الدولة فى الإسلام

والدولة لدى الآخرين، يقول تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩ - ٤١].

نتج عن هذا بناء ضخم، هو الصورة الأولى والعظمى للمشروع الحضارى الإسلامى، الذى تحقق بفضل الله تعالى على يد رسول الله ﷺ وأصحابه، بعد أن مكثوا فى مكة ثلاثة عشر عامًا يُعدون اللبنات الصالحة التى يقام منها البناء العظيم، فلما أعدوها انتقلوا إلى مرحلة العهد المدنى بالهجرة إلى المدينة، وحققوا العدل والحرية والشورى والمساواة، وبنوا دولة الحق وحضارة قيم وعدل.

ونختار الشورى كنموذج لهذه المبادئ العظيمة التى أعلتها دولة الإسلام، فقد نزلت آية مكية تصف المؤمنين بها: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، فتأكد أن الشورى قاعدة عامة للأمة كلها، فلما انتقلوا إلى المدينة، وقامت الأمة الحرة والدولة، وكان الرسول ﷺ حاكمًا، جاء الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فولىٌّ الأمر - وإن كان نبى الأمة - لابد أن يشركها معه فى بحث الأمور واتخاذ قرار بشأنها، ما لم يكن هناك وحى قاطع من السماء، فقاعدة الشورى نص عليها القرآن فى البلدين -

مكة والمدينة – لنعلم أننا أمة لا ينبغى أن تقبل الاستبداد فى أى أمر، لا فى مال، ولا اقتصاد، ولا سياسة، ولا علاقات اجتماعية، حتى صلة الرجل بأولاده وزوجته.

الصبر والثبات:

وأخيراً لابد أن نستحضر صورة المهاجرين والأنصار، ونتعرف على ما وصفهم الله به، فقد قال فى المهاجرين: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وفى الأنصار: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. ومثل هؤلاء وهؤلاء هم الذين يجب أن نعمل عملهم، ونتعلم منهم كيف واجهوا المصاعب والعقبات والابتلاءات، وكيف استطاعوا أن يحصلوا على شرف الدنيا وكرامة الآخرة بجهد بشرى مخطط، وبذل الأنفس والأموال فى سبيل الله، والعمل الصالح فى كل مجالات الحياة.

وفى كلمة: يجب أن نتخلق بخلق أهل الصدق والفلاح؛ لننجح كما نجحوا، والتحديات فى وجهنا منذرة وكثيرة، والخطر من حولنا كبير، من خارجنا وداخلنا، لا سيما ما نجده فى أوساط شرائح من الشباب والفتيات، من سلوكيات غير رشيدة، تؤكد حاجة ماسة – هى ضرورة وجود، وهى أوامر شرع الله – إلى وعى صحيح بحقائق الإسلام، ومعرفة بتاريخ أمتنا سواء ما طرأ عليها من ضعف أو من قوة، إفادة من الدروس واعتباراً بما فات، وإلى تربية وتزكية للنفوس تمدها بالعزيمة الماضية و القدرة على تحمل تكاليف إحقاق الحق وإبطال الباطل، والتمسك بهدى الكتاب والسنة والأخذ بسنن الله تعالى فى نظام الحياة والعمران، وإلى التفوق فى

علوم العصر، واستكمال كل أسباب القوة للأمة بما يحفظ لها هويتها الإيمانية وخصوصيتها الحضارية، مستبشرين بوعد الله تعالى لعباده المؤمنين بخيرى الدنيا والآخرة والنصر على الأعداء فى مثل قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

ولقائل أن يقول قد أصبح الإسلام بيننا غريبًا، ورُفع الحياء، وانتشرت أخلاق السوء، وتقليد الغرب فى مأكله ومشربه وعاداته، فاصبحت العودة إلى صورة الأنصار والمهاجرين واجبًا دينيًا ودنيويًا.

التأريخ بالهجرة:

وأريد أن أضرب مثالاً حول فقد الأمة للذاكرة بالتاريخ الهجرى، فلو سألنا طالباً فى الجامعة، وربما لو سألنا من له اهتمام بالدعوة إلى الإسلام، فقد يعجز عن معرفة أسماء الشهور العربية، بل قد يعجز عن معرفة السنة الهجرية التى نحن فيها!! وفى المقابل نجد أن السنة الميلادية هى كل ما فى رأسنا وحسابنا، وليس ذلك عصبية دين، وإنما هو الإسلام والتاريخ.

ألا إن ذاكرتنا محتاجة إلى تنشيط وإعادة تشغيل، حتى لا تتغرب أكثر من هذا. قال سعيد بن المسيب: «أول من كتب التاريخ عمر رضى الله عنه، لسنتين ونصف من خلافته، فكتب لست عشرة من الهجرة بمشورة

على بن أبى طالب رضى الله عنه». وقال سعيد: «جمع عمر بن الخطاب الناس، فسألهم: من أى يوم نكتب؟ فقال على: من يوم هاجر رسول الله ﷺ وترك أرض الشرك. ففعله عمر». قبل هذا كان المسلمون على عهد رسول الله ﷺ منذ الهجرة يسمون كل سنة باسم حسب ما نزل فيها من القرآن، واختاروه علامة على هذه السنة، فالعام الأول هو عام الإذن، أى الإذن بالقتال، الذى نزل فى الرحلة من مكة إلى المدينة، ثم العام الثانى عام القتال، وهكذا عام الزلزلة وعام التمحيص، حتى جاء العام الأخير فى حياة النبى ﷺ فسموه عام الوداع.

تطورت الحياة بالمسلمين، ولم يعد القرآن ينزل، وأصبحوا ولابد لهم من تثبيت مناسبة كبيرة يبدأون منها التأريخ، وجاء عبقرى الإسلام عمر ابن الخطاب - وهو يعمل، كما ينبغى أن يعمل المسلمون، بعقل متفتح وهو سائر فى الطريق لإنشاء حضارة أمته - فدون الدواوين، وانتفع فى ذلك بتجارب الفرس والروم، واتسعت الدولة الإسلامية، وزاد عدد المسلمين، وكثرت المراسلات الرسمية. وكانت الدواوين - ديوان الجنود وديوان الخراج مثلاً - تضم أعداداً كبيرة من الناس، يأخذون رواتب الدولة أو يدفعون خراج الأرض، وكل ذلك كان يتم بصورة سنوية أو كل دورة زمنية معينة، فما كان من عمر رضى الله عنه إلا أن شاور الصحابة - رضوان الله عليهم - فى الأمر، فأشاروا بالهجرة.

كان حادث الهجرة متعيِّنًا محدَّدًا باليوم والليلة، وهى مناسبة كبيرة تحمل معانى عظيمة فى ملة الإسلام، فهى انتقال بالمسلمين من عهد المجتمع المضطهد المحاصر، إلى عهد الأمة والكيان الحر. وهى خلاص من

الاستضعاف وسيطرة كفار قريش، حيث تعبد الأصنام عند الكعبة بيت التوحيد، . وانتقالاً بالهجرة من مكة إلى المدينة من عهد لا يؤذن فيه لأحد بالقتال، حيث صبر المسلمون ثلاثة عشر عامًا، رُبُّوا خلالها ونشِّئوا عقائديًا وأخلاقيًا، حتى استخلص رسول الله ﷺ من قومه أهل الصدق، كشريحة متينة الإيمان قام عليها الدين وقامت الأمة .

وبالهجرة تلاقت شريحة المهاجرين بشريحة حجازية أخرى هم الأنصار، وأعدتا معًا إعدادًا عقليًا وتربويًا وسلوكيًا وحضاريًا وقيميًا، حتى كانتا أهلاً لحمل أمانة الإسلام العظيمة التى لا يحملها إلا عظماء مثلها .

والهجرة بعد ذلك نقلة سياسية وحضارية، حقق بها الإسلام بروزاً مفاجئًا للدنيا، وأعلن المجتمع المسلم عن نفسه كممثل للرسالة الخاتمة . وكأن الجاحظ كان يفسر لماذا اختار عمر بن الخطاب والصحابة أن يكون التأريخ فى الإسلام بالهجرة النبوية إلى المدينة – حين قال : «فى الهجرة استقامت الملة»، نعم استكملت الملة مقوماتها بأنها انتقلت من عهد مكة، وقد صبرت على الأذى، ولم ترتكب حماقة واحدة تزيد من تمسك المشركين بشركهم، بل لم تمد يدها بالتحطيم إلى أصنامهم العاجزة، وركزت آيات الكتاب وأعمال النبى ﷺ وأقواله على إضعاف مكانة هذه الأوثان والمعتقدات الشركية فى نفوس عبادها، التى استبدلوا بها عقيدة التوحيد وعبادة الله تعالى فتحرر الإنسان من كل رق، واستشعر معانى تكريم الله سبحانه له .

تعلم المسلمون أن لكل شيء وقته المناسب، وأن النهج واضح، والطريق بيِّن، والإخلال بالموازين خطأ فادح، تعلموا ذلك، حتى مَن كان منهم

صاحب هيبة وقوة كعمر بن الخطاب، صدع بالحق ولزم النهج وقاد الأمة الناشئة إلى عز الملة والأمة.

اندهش بعض الصحابة كيف يوحدون الله تعالى والأصنام منتصبة إلى جوارهم، واستأذنوا فى أن يميلوا على المشركين ميلة رجل واحد فيستأصلوهم، لكن النبى ﷺ قال لهم: «**إنى لم أؤمر بقتال**». إن المرحلة التى يريدون القفز إليها لم تكن قد جاءت بعد، وهى تحتاج إلى إعداد ومرور بمراحل تمهيدية سابقة عليها، ولها توقيت، وتحتاج إلى حسن نظر فى الأمور وتدبير جيد لها. وإن استعجال قطف الثمار قبل موعدها خطأ وخطيئة، فاستقام الراعى والرعية على الصراط المستقيم، وتواصى بالحق والصبر.

إن دعوة الإسلام إلى التغيير ليست قفزة غوغائية على السلطة، وليست انقلابًا بالقوة، ولكنها دعوة تريد أن تنشىء أمة ذات حضارة، وسبيلها إلى ذلك غرس القيم الرفيعة فى القلوب، وتعميق مواضعها فى النفوس، وتربية أحاد الأمة تربية إسلامية حقة.

ولذلك فإن معنى الهجرة ليس وقائع تحكى ولا تاريخًا نعرف بدءه وأسماء شهوره، بل هو معنى تحولى وتغييرى كبير، يصحح فيه المجتمع مساره، ويضبط خطواته، ويتحرك نحو أهدافه واقامة دولته وحضارته، وبالتعبير القرآنى هو عمل على المكانة وفق المنهج الصحيح.

الهجرة وأزمة التدين:

للهجرة - كما قلنا - مكانة عظيمة فى تاريخ المسلمين، حتى إن الصحابة بفقههم وحسن إدراكهم جعلوا التأريخ بهذا العمل الكبير

(الهجرة)، وفضلوه على غيره من أحداث السيرة النبوية الصغيرة والكبيرة، مثل مولد النبى ﷺ ونزول الوحى عليه، ورحيله إلى الرفيق الأعلى، لقد كان نظر الصحابة – رضوان الله عليهم – مركزًا على الدعوة، التى كانت مهمة رسول الله ﷺ هى حملها وبلاغها إلى الناس.

وقلنا إن الهجرة كانت نقلة كبيرة فى تاريخ الدعوة الإسلامية، ليس فقط لخروج المهاجرين من مكة تاركين بيوتهم وأموالهم ومضحين فى سبيل الله تعالى، ولكن أيضًا لأن الهجرة خروج إلى حرية أوسع للدعوة، وانتقال من مرحلة الصبر على الأذى والإعداد الأولى للنفوس – إلى حمل الأمانة لإقامة الدولة الإسلامية التى تقر العدل والشورى، وتحفظ الحقوق والأعراض والحرمات.

ولم تكن نقلة الهجرة إلى المدينة تعنى أن يترك المسلمون ما تحلوا به فى مكة من صبر على الإيذاء، والتربية على معانى الإسلام، أو لا يكونوا قدوة فى الخير للآخرين – لقد استصحبوا معهم كل الخير الذى تعلموه فى مكة، وأضافوا إليه حمل العبء بتحقيق مبادئ الرسالة النبوية فى الواقع، بإقامة مجتمع الإسلام ودولته التى تحمل مبادئه وقيمه، وتنشر تعاليمه وأحكامه.

أهمية الدين فى حياة البشر :

وهذه المعانى أوحت إلىّ التعرض لموضوع «**أهمية الدين فى حياة البشر**»، فهناك ما يسمى فى العالم بـ«**أزمة تدين**» تجتاح مجتمعات البشر، لا سيما فى البلاد الغربية، وتأثر بها كثير من المسلمين، حتى سار

وراءهم من تأثر بهم فيما ذهبوا إليه من فصل الدين عن الدولة، أو فصل الدين عن المجتمع وعن السياسة، وهذا مفهوم مصطلح العلمانية الذى يبذل الغرب الكثير لتصديره إلى عالمنا الإسلامى، كنظام حكم وحياة، وحققوا نجاحًا ملحوظًا.

وأزمة التدين بالنسبة للمسلمين، فهى، والحمد لله، مهما تكن، أزمة طارئة عابرة؛ لأن نور الإيمان يبقى فى قلب المسلم - مهما تكن ظروفه - مضيئًا، غير أنه قد يصاب بخفوت أو تقل فاعليته، وإذا كان مثل هذا الحال غير مطلوب ولا مرضى - فإنه يقبل التصويب والتصحيح بسهولة وعن قرب بإذن الله وجهد دعاته المصلحين، وتأييد الله سبحانه للمؤمنين العاملين.

وهذا الموضوع (أزمة التدين) له جذوره ذات الصلة بالمفاهيم الأساسية للهجرة، وهو موضوع معاصر نرى آثاره فى كل شيء؛ ذلك لأن التدين أو الذين بالنسبة للأمة يعنى أن لها مرجعية عليا فيما يتعلق بالعقيدة والحلال والحرام لا تنفك عنها مهما تغيرت أحوالها، على العكس من الغرب الذى لا يعرف مثل هذه المرجعية، فلا يلتزم بحل ولا حرمة إنما التزامه بالمصالح المادية والمنافع الدنيوية - كما تبدو من وجهة نظر الفلسفة والمفهوم الغربى للحياة - وربما تولت برلمانات هذه الدول الرضوخ لتوجهات فئات من الشعب وإن خالفت القيم الدينية والآداب المرعية المتوارثة، فإذا رأى البرلمان أن الشذوذ أصبح له وجود مجتمعى، وأن لأصحابه شأنًا، ويطالبون بحقوقهم، لم يجد بأسًا فى أن يجعل للشذوذ والشواذ قوانين

تحميه وتحميهم، وقد يجد ساستهم فى أصواتهم الانتخابية سنداً يحرص عليه فى المنافسات الحزبية.

وهم أحرار فى أن يسلكوا هذه السبيل أو تلك، وهم يجدون من أولى بقية منهم من يعترض على مثل هذه التجاوزات الأخلاقية والدينية وينظرون إلى النتائج الوخيمة لذلك.. ونجد فى أوروبا وأمريكا تياراً أصولياً وإن كان لم تكتمل له قوة فاعلة بعد، فى أوروبا يراجعون أنفسهم على مستوى العلماء المتخصصين لإنقاذ الشباب من الضياع تحت أقدام منهج الإباحية شبه المطلقة هذا.

هم راحوا يشكون؛ لأن الله لم يشرع إلا لصالح البشر، فإن خالفوه ضلوا، واضطروا إلى العودة وتصحيح المسار، أو استمروا على نهجهم وسقطت حضارتهم إن عاجلاً أو آجلاً.، حسب سنن الله الثابتة فى العمران البشرى، وشواهد التاريخ قائمة.

إن العلم إذا فُصل عن الدين زاغ وتخبّط، بل دمَّر وأهلك، فالذين فتتوا الذرة استخدموا عقولهم الجبارة، ولكن بمنأى من الدين، فصنعوا من ذلك الإنجاز العظيم مصائب كبرى تسمى القنابل الهيدروجينية والنووية، وتفاقمت خطيئة الفصل بين الدين والعلم، فلم يجدوا فى الحرب بأسًا أن يلقوها على نجازاكى وهيروشيما، ويمكن أن يتكرر هذا طالما أن الذين يمارسون السلطة يخضعون فى اعتباراتهم واختياراتهم أساسًا على استبعاد الدين والمسألة الأخلاقية، وتغليب الاعتبارات السياسية والأهواء المارقة..

وكما هو الحال بالنسبة للعلم، فإن المجتمعات البشرية تتعرض لخطر

مُهلك إن لم يكن للدين مكانه الكبير فيها، بحيث يؤثر على القلوب، ويقومٌ من تصرفات البشر، ويعدل ما يتعرض للاعوجاج من طبائعهم وأفعالهم، فالأخلاق السوية أثر لازم للإيمان الحق.

إن المجتمع يعرض نفسه للخراب إذا لم يلتزم بالدين الهادى؛ ذلك أن الشرع الحكيم يقدم هداية للحواس والأسماع والأبصار والعقول، فكل هذه الآلات بقدراتها الكبيرة التى خلقها الله معرضة للخطأ، وقد يلحقها إفراط أو تفريط، فيجئ هدى الوحى لضبطها وترشيد مسيرتها.

ولندرك أن السعى بعيداً عن هداية الله يجلب الخراب؛ نضرب مثالاً اقتصاديًا، فحين لا يكون هناك اعتبار للدين ولا للقيم العليا التى حضت عليها الشرائع؛ يتفشى الربا، ويشيع استغلال الأيدى العامة، وينقسم العالم – كما نرى– إلى شمال وجنوب، ومتقدم يحترم ومتخلف يحتقر، علمًا بأن معيار التفاضل الذى ارتضاه الخالق لخلقه إنما يكون بالتقوى والقيم الإنسانية العليا، كما فى قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ١٥–٢٠]، وفيه تخطئة ما فرضه القوى على الضعيف، والغنى على الفقير، فى عالمنا المعاصر متمثلاً فى تقسيم الدول بحسب المعيار الفاسد الذى أنكره الله وذمه إلى دول قمة ودول ذيل، ومضوا فى عولمة هذا المعيار ليزداد القوى غيا ويزداد الضعيف ذلاً، وإنما يعتد الله فيما تقوم عليه علائق الأمم المختلفة بأداء الواجب واستباق الخيرات لا فرض سلطان واستعباد الآخرين بغير حق.

وها هى التنمية الاقتصادية تسير مضطربة ومتخلفة فى الكثير من دول العالم؛ لأن الأغنياء يريدون للشعوب الفقيرة أن تظل مستهلكة فقط، تتسول وتعيش على الديون التى هى أصلاً أموالها سرقها المستعمرون، وما يعطونه للمحتاج يأخذون من دينه ودنياه ما هو أكثر. حتى ما تزعمه الدول الكبرى فى العالم من ديمقراطية، لا يلتزمون بها إلا فى حدود مصلحتهم المادية الظاهرة على حساب مصالح الآخرين، وإذا حدث تعارض بين هذه المصلحة وبين القيم والأخلاق، نحيت القيم والمبادئ جانبًا، واستعلت المصلحة بالقهر والكذب، وهذه هى شاكلة حضارة هذا العصر.

إن المسلم الحقيقى لن يشعر بما يسمى «**أزمة التدين**»؛ لأن الدين يسرى فى دمه، بل هو لحمه ودمه، ويحتل موضعًا من قلبه ولبه أعظم موضع.. وهو يلبس ثياب هذا الدين الطاهرة فى كل أحواله، لا يلبسه وقتًا ويخلعه فى وقت آخر؛ لأنه دين شامل لكل الحياة، يثرى حياة الفرد والشعوب عامة.

قد يُعذر الغربيون فيما ذهبوا إليه من نفى الدين واستبعاده من واقع حياتهم ومختلف شئونهم، فقد أرادوا النهوض من كبوتهم ورقدتهم المميتة فى عصر النهضة، فوجدوا فى طريقهم شيئًا اسمه الحق الإلهى الذى تمارسه الكنيسة ورجالها، فهى التى تحكم وتتحكم فى الحاكمين، تتسلط على الخلق، وتحارب العلم، وتريد أن تتحكم فى كل شىء، ولم يجد الأوروبيون بدًا من إزاحة هذا العائق من طريقهم حتى يحققوا

نهضتهم، فاضطروا إلى فصل الدين (الكنيسة - المسيحية) عن الدولة، وبدلاً من أن تقوم الكنيسة الأوروبية بإصلاح مجتمعها، لفظها ونجا منها، فشاركته بعد ذلك فى فساده، فبعض الكنائس تعقد زواجًا بين شاذين، وهذا تحول كبير؛ لأن هذا الدين لم يكن على مستوى المهمة، مواكبة حركة الإنسان فى تمدن دون تمييع، وبهذا استل الدين من حياتهم، وغيب فضائله من الحياة الاجتماعية.

عندنا لا توجد كنيسة ولا بابوية، ولا أحد له ميزة تخصه بشخصه، والكل مسئول. وحتى المجتهد الذى يُصدر الفتاوى، لا يمكن أن يكون اجتهاده تشريعا عاماً مفروض التطبيق على الجميع، إلا إذا عُضد وأيد بأدلة الكتاب والسنة، وحقق المصالح والملاءمة.

والإسلام هو الدين الوحيد القادر على حل « أزمة التدين » التى تعانيها البشرية حلا ناجعا وكاملا، وقد نوه الأمير تشارلز - ولى العهد البريطانى فى محاضرته الشهيرة فى جامعة أوكسفورد عن الإسلام - إلى أن النظرة التى ينظر بها الغرب إلى الاسلام والمسلمين ظالمة وأن الغرب كحضارة استفاد من حضارة الإسلام ويمكنه أن يستفيد من الإسلام اليوم أيضاً، وأن العلاقة بين الغرب والإسلام ينبغى أن تقوم على التعاون بينهما، فلا استعمار ولا عودة للصليبية.

ونحن نؤكد أن الإسلام - من هذا الباب - قادر على حل « أزمة التدين » فى العالم كله، فهو دين يتميز بوسطية شريعته، واعتدالها وواقعيتها، ومصلحة الخلق هى هدفها ومقصودها، ورفع الحرج عن الأمة من أهدافها، والتيسير من طبيعتها. وهو منذ نزل على الرسول ﷺ حمل

صفة العالمية كما في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً** ﴾ [سبأ: ٢٨].

ويكفى أن نقف مع قول النبى ﷺ: « **من أصبح آمنا فى سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها** »[١]، فهذا يعنى أن المال ليس وحده هو الرزق، بل الأمن أيضاً والعافية. ويستند كل ذلك على عقيدة أن الرازق هو الله. وهذا لا يقر التكاسل ويوقف السعى، ولا يحارب الغنى، ولكنه يحارب النهم والجشع، والجرى وراء المال بكل حيلة. ورسول الله ﷺ يقول: « **نعم المال الصالح للرجل الصالح** »[٢]، وفى المقابل قال: « **تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة! إن أعطى رضى، وإن لم يعط لم يرض** »[٣].

والإسلام - وحده - مرشح لهذا الدور أيضاً؛ لأن مجتمعاتنا البشرية تعيش ظروفا صعبة؛ فكثير منها يئن من الفقر والبطالة والمجاعة، وصنوف من القهر الخارجى والداخلى، وحتى الأغنياء لا يجدون لغناهم معنى فى جو الخواء الروحى والعقائدى، والإسلام يقدم منهجا للحياة الطيبة، يقول الله تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل: ٩٧]، فالعمل الصالح والإيمان يغيران الرؤية والصورة، والمؤمن ستصبح له مقاييس أخرى، وعندما يدخل الإيمان حياة المجتمع سيمحو التوتر والقلق، ودموية

---

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجه.

(٢) أخرجه أحمد والطبرانى.

(٣) رواه البخارى.

الصراعات، واستشراء الفساد، وعنف الممارسات، ويوم يوجد الإيمان في بيوتنا ومجتمعنا، سنتكافل، ونتعاون، وتنتظم الأسرة، وتسلم تربية الناشئين؛ لأن هذه الأشياء ترجمة طبيعية للإيمان، وأثر لازم له.

وهذا مثال يرويه لنا أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه يقول: بينما نحن في سفر، إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً. فقال رسول الله ﷺ: «**من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له**»، فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل[1]، وعن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[2]، فهو مجتمع تراحم؛ يؤتى ذوى القربى، وينفق فى سبيل الله، ويضع الزكاة فى مصارفها الشرعية، ويحفظ التكافل والمحبة، ويؤثر أفراده الآخرة على الدنيا، ويحكم لسانه فلا كذب ولا غيبة، ويحفظ يده فلا ظلم ولا تعدى.

والنزوع إلى التدين يجب أن نرعاه ونشجعه، ونسلك الطرق التى تنشئه وتنشره فى كل دوائر حياتنا؛ لأن هذا النوع من الإنسان هو الذى يمكنه حماية الأوطان وحراستها، واسترداد المسلوب منها، وهو الذى يعده الله الحياة الطيبة، دنيا وأخرى.

والقرآن والسنة أوجبا علينا أن نحمى أرضنا ونصون أعراضنا، ولا نخاف من بأس عدونا ولا ترسانتهم النووية، ولا من انحياز الولايات

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

المتحدة إلى جانب الدولة اللقيطة؛ ما دام موضع الدين فى نفوسنا وحياتنا مكيناً.

إننا ببعدنا عن ديننا شردت الرعية واستبد الحاكم، وضاعت الشورى، فالدين هو الحافظ الذى يحوّل العلاقات بين الناس إلى مشاركات فى الخير، وتعاون على البر والتقوى. كتب إلى عمر بن عبد العزيز واليه على خراسان يقول له: إنك وليتنى على بلد فسد أهله، فلا يصلحهم إلا السوط والسيف. فكتب إليه عمر رضى الله عنه: «كذبت، بل ما يصلحهم إلا العدل». لقد نبهه الخليفة العادل إلى أن الشعوب إنما تنصلح أحوالها بالحرية والعدل، وليس بالقهر والبغى، الحرية ستخرج مكنون المواهب لتبدع فى الإطار المشروع، والعدل يبث الطمأنينة إلى حفظ حقوق الناس، فيشاركون فى الحياة بطاقتهم المؤثرة، ويملكون إمكانات التغيير.

وأخيراً، قد وضح لنا رسول الله ﷺ فى كلمات معدودة خطوات لمنهج؛ يستقيم معه أمر المجتمعات والأفراد، وأقامه على ثلاثة عناصر:

- التسديد بقدر الإمكان لما فيه الخير والبعد عن الشر.
- المقاربة بالسعى المخلص للتطبيق الصائب للدين ومبادئه.
- الاستبشار بالخير حتى لا ييأس الناس.

عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ **«سددوا، وقاربوا، وأبشروا..»**[1].

* * *

(١) رواه البخارى والنسائى.

[١٩]

شهر رمضان والخروج من الغيبوبة

يأتي شهر رمضان بفضله وخيره؛ لنغنم منه ونكسب ما فيه من خير الدنيا وخير الآخرة، و«بشائر» مقدم رمضان نجدها - كلما أتى في زماننا هذا - في أشياء كثيرة حولنا، ليست كلها مما يتحقق به مقصود الصيام ولا حكمته، فيتكلم الناس من الآن ويعلنون عن إحياء الليالي الرمضانية في الفنادق والملاهي، وهي أماكن لا تحضرها الملائكة، ورمضان - الذي فيه ليلة القدر - كله ملائكة تدعو للمؤمنين الصائمين المصلين.

ويشغلوننا أيضًا بفوازير رمضان القادمة: مَن؟ وماذا؟ وياميش رمضان تطرق إعلاناته أبواب البيوت مبكرًا، ومن الآن التجار يريدون أن يكسبوا!! لا بأس في هذا، ولا نحرّم ما أحل الله، ولكن إن كان هذا هو الشغل الشاغل للأمة تستقبل به رمضان، فقد فاتتها الحكمة، وضاع منها المقصود من الصوم، المهم أن نهتم بما أوجب الله وأن يكون في قمة اهتمامنا.

قلت لنفسي: إذا كان تجارنا يشغلوننا بالياميش قبل أن يبدأ رمضان بكثير، فإن الله دلنا على التجارة التي لا تبور، فلنبين ما هي بضاعة الله التي وصفها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ – ١٣]، فعرض لنا القرآن التجارة التى ينبغى أن ننشغل بها، والتى لا تبور.

بداية: لابد من التأكيد على أن الأمة الإسلامية الآن أحوج ما تكون إلى الإقبال على الله وعلى مائدة القرآن، وعلى تدبر الأحوال، والتعويل على إصلاح الأنفس للخروج من الغيبوبة التى نالت الأمة فى أخلاقها وسياستها وتجارتها، وفى أشياء كثيرة، فتخلفت وساء حالها، وذهب ريحها، وطمع فيها أعداؤها.

هذه الغيبوبة أنتجتها الغفلة عن حقيقة الإسلام الذى ننتسب إليه، والذى يوجب علينا التحلى بالهمة العالية واليقظة الكاملة، وتسلم القمة، وقيادة العالم إلى الخير، وهداية البشرية إلى ما فيه خيرى الدنيا والآخرة.

مقاصد الصيام فى ضوء القرآن:

أوجب الله صوم رمضان على الأمة فى شهر شعبان من العام الثانى للهجرة، وهذه الفريضة تمثل الإفاقة الكبرى للأمة من الغيبوبة (التى امتدت واتسعت وساءت وتفاقمت نتائجها، وكلفت الأمة دماء وحروبا كثيرة لا يزال بعضها تدور رحاه) وبيان ذلك فيما يلى:

أولاً: عندما جاء الخطاب بفرض الصيام جاء يخاطب الجماعة على طريقة القرآن المعروفة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٨٣]؛ يخاطب الجماعة لأن الأمة هى الأصل، والمسئولية فيها ليست فردية فقط، المسئولية تضامنية أيضًا:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١]، فكل فرد منا فى هذه الأمة مسئول من منطلق المسئولية التضامنية: أن يستوعب الخير الذى جاء فى الكتاب والسنة لنفسه ولأهله ولمجتمعه وللمسلمين كافة.

ثانيًا: دل القرآن فى آيات الصوم (خمس آيات) على أن المقصود الأكبر من الصيام هو تحصيل التقوى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، والتقوى هى ملاك الأمر، ومفتاح الاستقامة فى حياة الفرد والبيت، وحياة الشارع والمجتمع، وحياة الأمة والدولة، فإذا كنا نتقى الله حقيقة فلن نجد الفساد الذى نشكو منه؛ إذ كيف يتقى المؤمن ربه ويصدّر لنا أطعمة فاسدة قاتلة؟! وهل يكون تقيًا هذا المهندس الذى يبنى من غير أن يستوفى متطلبات البناء الصحيح الآمن؟ لا يمكن!! وكيف يفرط أب فى تربية أبنائه وتنشئة بناته حتى يعصمهم من الفساد الذى عم وطم، وهو يتقى الله؟!

فلو أن الفرد المسلم، والمؤمنين كافة حققوا مقصود الصيام بتحصيل التقوى، وهى خشية الله واحترام حدوده، لاستقام أمرنا، وتغير حالنا تمامًا، وهذا هو المقصود.

ولذلك، فإن القرآن فى آيات الصيام يؤكد أهمية التقوى بصورة جازمة، وأنها المقصود الأعظم من هذه الفريضة، فذكرها فى ختام أول آيات الصيام، وكررها فى آخر هذه الآيات، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ

عليكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ثم قال في آخرها: ﴿.. تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وبعد أن بين المقصود الأساسي من الصيام ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ حدد وقته، وعذر العاجزين ومن يصعب عليهم الاستجابة للأمر: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، الأصل هو الوجوب، ووجدت الرخصة لأن الدين قائم على اليسر، فإذا وجد العذر قبل الله العذر، ويسر لنا الأمر حتى لا نحزن، فالذى على سفر والمريض قد يلحقهما الضرر إن صاما، والضرر مرفوع فى الإسلام، وهى قاعدة كلية تشمل كل العبادات وكل الأوضاع وكل الأحوال: «**لا ضرر ولا ضرار**»(١).

فإذن هى أيام معدودات تصام، فمن كانت له رخصة - كالمسافر والمريض الذى يرجى بُرؤه - عليه أن يقضى، والذين يطيقونه بشدة تضر، أو يعجزون عن الصيام تمامًا، مثل الشيخ الكبير والمريض الذى لا يُرجى بُرؤه - هؤلاء يفطرون وعليهم فدية، يدفع فدية ولا يقضى، وكيف يقضى وهو لا يستطيع أصلاً؟

انظر رحمة الله وفضله، حدد الأيام المعدودة التى تُصام، والذى له عذر من مرض أو سفر فله الفطر وعليه القضاء، والذى يعجز عن الصيام عليه

---

(١) رواه الدارقطنى.

فـدية طعـام مـسكين عن كل يوم افطره. وليس فـرضًـا أن يطعـم مـسكينًا واحـدًا عن اليـوم، فـيـمكن أن يكون الله قـد وسع عليـه فـيطعم عن اليـوم الواحـد مـسـاكين لا مسكينا واحـدًا، حبـًا فى الخيـر، وطلبًا للأجـر.. ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٤] انظر ماذا تقول الآية، حتى يستفتى الإنسان قلبه فى حالته التى هو فيها، نفرض أن مسافرًا وجد ظروف سفره يسيرة، فله أن يصوم، وله أن يفطر، الأيسر له يعمل به، ويعتبر هذا هو اليسر، فالمسألة فيها رجوع إلى النفس.

وفى الآية الثالثة من آيات سورة البقرة التى شُرع بها الصيام - يتبين لنا لماذا اختار الله عز وجل شهر رمضان لتكون فيه فريضة الصيام؟ لماذا لم يقل شعبان؟... قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ .. ﴾ [البقرة: ١٨٥] ولكن لماذا يعيد الحديث عن رخصة المسافر والمريض التى ذُكرت فى الآية السابقة؟ انظر دقة القرآن، وتأمل وتدبر فى آياته، أعاد الله الرخصة حتى لا يقع فى قلب المؤمن شيء - وقد ذكر ما ذكر من عظمة الصيام ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ - فى شأن الرخصة، فاثبتها ثانية لأنها قاعدة، وذكْرها مرة أخرى ليس تكرارًا وإنما شيء أملته الحكمة، وجرى به بيان القرآن العظيم.

وبقية الآية تضمنت الحكمة والتعليل للرخص التى قالها من قبل: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ هذه قاعدة عظيمة من قواعد

الإسلام الحنيف، مثل القاعدة التي أوردناها سلفًا: «**لا ضرر ولا ضرار**».
والإسلام مبنى فى كل أحكامه وعباداته وأعماله على قاعدة اليسر، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا عرض له أمر فيه اتجاهان اختار الأيسر ما لم يكن فيه معصية، فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت «**ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس منه وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها..**»(١).

شأن المسلم التيسير وليس التساهل والمعصية، هو سهل بسيط يحب التيسير على نفسه وعلى الناس، لكى تعيش الأمة في يسر لا مشقة، فمن شق على الأمة أو على غيره ممن استرعاه الله أمره شق الله عليه، يقول رسول الله ﷺ «**اللهم من ولى من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولى من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به**»(٢).

(**ولتكملوا العدة**) من لم يستطع أن يكملها أداء بالعزائم، أداها بالرخص قضاءً، فهى لابد أن تستوفى (**ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون**) هذا هو موقف المؤمن - سواء أكان من أهل العزيمة أو استوجب الرخصة - وقد يسر الله له أمر الصوم فى رمضان: يشعر أنه أكمل العدة، وأتم ما عليه.

(**ولتكبروا الله**) انظر النهاية التى يجب أن تقع موقعها عند عقل كل منا وقلبه وعزيمته ونحن نسمع الآية، التكبير هو حمد وثناء، ويتضمن

---

(١) رواه البخارى.

(٢) رواه مسلم.

الحمد والثناء على نعمة الهداية «**على ما هداكم**»؛ بأن أنزل علينا القرآن، وأن بعث لنا أكرم المرسلين محمداً ﷺ وأن جمع لنا بدون مشقة بين العزيمة والرخصة فى الصيام.

كل هذا مما يستوجب الشكر، وصوم رمضان يأتى كتطبيق عملى لهذا الشكر، فشكر الله أن تُجرى كل ما أوجبه الله عليك حيث أراد، وألا يرى أحدنا حيث لا يحب أن يراه، ولا يفتقده فى طاعة يحب أن يراه فيها.

هذا هو شكر الله، وإن لم نعمل نحن بما جاء فى الآية من هداية الله بما أنزل من بينات، إن لم نفعل هذا، فلا نكون انتفعنا بالعبادة ولا أدينا حق الشكر عليها. والأمة الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها تحتاج أن ينصلح أمرها، ويستقيم ما أعوج من أحوالها، وتستعيد عزها، ويحترمها ويهابها أعداؤها، وتنتصر على نفسها، وتحقق كرامة دينها؛ ولا يكون ذلك أبداً إلا بطاعة الله تعالى، الذى لا يُنال العز الحقيقى إلا بطاعته.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] الآية تبدو وكأنها خرجت عن السياق، فالآيات الثلاث السابقة والآية التى ستلحق، تتناول الصيام وأحكامه، فالتفت هنا من خطاب المؤمنين إلى خطاب الرسول ﷺ قال الحسن عن نزولها: سببها أن قوما قالوا للنبى ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزلت. وهذا معنى الحديث: «**يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا بصيراً، إن الذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»[1]،

(١) رواه البخارى ومسلم.

فتأدب المسلمون، وقد كانوا فى البداية إذا أرادوا التكبير كبروا بصوت عال، جاءت الآية: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] حتى يكون المسلم عند الذكر والدعاء فى حال هادئ يناسب جلال الدعاء.

وفى آية سورة البقرة أمرٌ لرسول الله ﷺ أن يعلم الأمة آداب الدعاء، وكيف يتعاملون مع القرآن بالأولى، وكيف يتعاملون بالوحى الذى أنزل عليهم، وأنهم يجب أن يحرصوا على «الاستجابة» لله لكى تتحقق لهم «إجابة» الدعاء..

إلا أن الاستجابة لله تعالى المقترنة بالإيمان به تعنى المعيشة مع الطاعة قلبًا وقالبًا، ومن يؤدون الصيام - أو غيره من العبادات - كعادة لا جوهر لها، ليسوا من الذين استجابوا لله تعالى حقًا، ومثل هؤلاء أيضًا من يحفظون القرآن أو يقرءونه بلا وعى، يقيمون حروفه ويضيعون حدوده، فليسوا ممن استجابوا لله حقًا.

وجاءت الآية الأخيرة لترفع حرجًا آخرًا عن الأمة، فأحلت للصائم أن يأتى أهله ليلةَ الصيام، وقد كان بعض المسلمين يفعل هذا دون أن يعرف حكمه: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ

للنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُون ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وذلك لا ينقص من تقوى الله غاية الصيام الأولى.

أول آية فيها «**لعلكم تتقون**»، وهذه أيضاً «**لعلهم يتقون**» ختم - كما بدأ - بالأمر بالتقوى؛ للتركيز على أهميتها. ثم نجد «**فلا تقربوها**»، فالنهى هنا شديد حتى يرتدع العبد عن المخالفة.

ثالثا: ما توحدت الأمة إلا سادت وعلت، والوحدة من علامات التقوى، التى هى الحكمة المقصودة من الصيام، وقد ربط الله فى القرآن الكريم بين الوحدة - التى هى من خصائص الأمة - وبين التقوى، يقول تعالى: ﴿ **وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، فربط بين تقوى القلوب ووحدة الأمة؛ أى أن من تقوى الله التى سيحاسبنا عليها يوم القيامة أن نتكاتف جميعاً شعوباً وحكاماً فى كل مواضع الأرض التى يكون فيها مسلمون يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ. ويجب أن نتقى الله فى هذه الوحدة بكل أسبابها.

وما جاء فى القرآن ودلت عليه سنة الله فى خلقه وفى العمران، هو أن الناس إذا اجتمعت كلمتهم استقام أمرهم، وخشيهم عدوهم، فإذا تفرقوا تفتتوا، وضعف أمرهم، وطمع فيهم العدو ، هذه قواعد ثابتة تجرى على البشرية كلها.

رابعا: التقوى، التى هى الحكمة من الصيام، لا تنفك مرتبطة بالخُلق الحسن، ونحن نعيش أزمة أخلاق لابد من عبورها للخروج من الغفلة إلى الإفاقة، ومن الضعف إلى القوة، ومن التفكك إلى الوحدة.

أخرج أحمد والبخاري في الأدب والترمذي وصححه وابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان والأصبهاني في الترغيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «**تقوى الله وحسن الخلق**». لماذا ؟ لأن التقوى ملاك الأمر وأساسه، ومكانها - كما دل رسول الله ﷺ حين أشار إلى صدره ثلاثاً «**التقوى ها هنا**»[1] - في قلب المؤمن يحملها معه دائماً، وتجعل كل أعماله عبادة ، فهو يعيش بقلبه المؤمن وتقواه متمكنة من كل سلوكه وتصرفاته كأنه يعيش مع الله دائماً. ولذلك كان شأن المؤمن المتقي أن كل عمله عبادة بالنية الصالحة وبالاستقامة على أمر الله.

والخُلُق تعوّد، وما عوّدت نفسك عليه التزمته، وصيام شهر رمضان دورة في تزكية النفس وتربيتها وإعدادها إعداداً حسناً، فيها تمسك الشهر كله - في أثناء الصيام - عما أحل الله لك من شهوة أو طعام، اختياراً وابتغاء رضوان الله، ولذلك قال النبي ﷺ «**كل عمل ابن آدم يضاعف ؛ الحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله، يقول الله - عز وجل: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه من أجلي**»[2]، فهذه الحال تدفع بالمؤمن، وهو يدرب نفسه شهرا على خوف الله وأنه الرقيب عليه، إلى أن يحمل هذا الرقابة في كل حياته بعد ذلك، فإذا عنّت له شهوة بعد الصوم يكون قد تدرب وتمكنت منه ملكة التقوى أو الضمير الديني اليقظ، فأصبح تركه للمعصية أيسر، وصبره على عمل الطاعة أهون.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد.

وفي رمضان أراجع نفسي، وكلنا فقراء إلى المراجعة تماماً، وحالنا في عمومه لا يرضي، وبالتالي نحتاج إلى أن نفر إلى الله من أنفسنا ومن كل شئ، وإن لم نفر إلى الله في هذا الشهر فمتى إذن نفر إليه، فنقيم المعوج، ونكمل النقص ﴿ **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الذاريات: ٥٠، ٥١]. وكرر إني لكم منه نذير مبين للدلالة على أهمية البلاغ للأمة.

وعندما يهم شهر رمضان بوداعنا سنجد فرصة أخرى للمحاسبة، فنسأل أنفسنا: ماذا أفدنا من الشهر الكريم؟ هل فعلا استنارت فيه القلوب، وتحسنت الأخلاق وزكت الأنفس، وحسنت المعاملة مع الخلق؟ لقد كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول للمسلمين: **إن الغيبة تبطل الصيام**، وزاد ابن حزم: أن أي معصية تجرح حرمة الصيام فهي مفسدة له، إن عملها صاحبها وهو يدري.. إن الصيام محض تربية للعزائم والإرادات لمواجهة العداوات المستترة والظاهرة من شياطين الإنس والجن.

خامسا: إذا استوعبنا القرآن: كتاب الله المقروء، واستوعبنا سنن الله في خلقه: كتاب الله المشهود، وعملنا بما يمليه هذا وذاك – فإننا نكون قد استقمنا على الطريقة، ورمضان هو المدرسة التي يستعيد فيها المسلم صحته العقلية والنفسية والبدنية والفكرية؛ لأنه يتدبر القرآن الكريم ويعرف منه موازين الأشياء.

وأنا أريد أن أخلص إلى أن ما جاءت به آية البر في سورة البقرة، هو أن الله تعالى قال للمؤمنين وللناس إن البر ليس في التوجه إلى قبلة معينة، فالله تبارك وتعالى هو صاحب المشرق والمغرب، يولّي من شاء إلى حيث

شاء، إنما الأساس الذى يجب أن يشغل الناس هو البر وأصوله: من إيمان وأعمال وأخلاق، وهذا هو شأن المؤمن المتدبر لحقيقة الإسلام: أن يتجه إلى البر والعمل والأخلاق، ولا ينشغل بما عداها.

يقول تعالى فى هذه الآية: ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [البقرة:١٧٧]. وسنقف عند قوله تعالى: ﴿ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾؛ لأن التقوى هى مناط النجاح للفرد وللأمة، والتقوى هى المقصود من صوم رمضان، فنصل آية البر بآية أحكام الصيام، ولا نشعر إلا أننا نصل خيراً بخير، فندخل على رمضان وقد فهمنا أنه مصنع للتقوى، ومدرسة شاء الله أن تتربى فيها إرادة الأمة.

إن رقابة الله ملكة عند الصغير منا والكبير، وتنمية هذه الملكة هى كل مقصود فرضية الصيام، ويقول رب العزة فى حديث قدسى: «**كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به**»[١]؛ لأن الصيام سر بين العبد وربه، ما يمنعك من أن تفطر وأن تأكل وأن تستمتع بأهلك إلا أنك تخشى الله، ولو لم يكن معك أحد.

هذا شعور يؤكده فينا الصوم، وإذا رُزق الإنسان خلق المراقبة لله فى

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

السر والعلن فلن يرضى أن يعبث بالقانون الشرعى إن وجد إلى العبث سبيلا: إن استطاع أن يسرق، لا يسرق؛ لأن من تحصنت التقوى فى قلبه لا يستطيع أن يعصى ربه، وهو يذكر أن الله معه يسمع ويرى.

وفى الحديث: «**إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث** (أى لا يتفحش فى القول)، **ولا يصخب ، وإن سابه أو شاتمه أحد فليقل إنى إمرؤ صائم**»[1]، لا يستخفه الغضب ولا الشيطان. وهذا اختبارٌ، من فشل فيه لا يكون الصيام قد نفعه، ولا عرف الحكمة من الصيام، ولا انتفع به، ولا شكر الله عليه؛ لأنه خالف أمر صومه ولم يعمل بحكمته. ولكن ماذا يقول؟ يقول «إنى صائم»؛ أى ممتنع ، ليس فقط عن الطعام والشراب والجماع، ولكن عن كل سيئ من الخلق أيضاً.

تصور: عندما يراقب المؤمن الله، سيجد حلاوة ذلك فى قلبه: خشوعاً فى صلاته، وإخلاصاً فى عباداته، واستقامة فى خلقه، وسيدرك معنى قول الله تعالى يخاطب النبى ﷺ: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [يونس: ٦١] «**إذ تفيضون فيه**»؛ أى وأنت فى مرحلة إعداد نفسك لشئ كى تعمله، خطوات فيه خطوة..

عندما يستحضر الفرد منا هذه الرقابة الدائمة عليه فى كل همسة، وفى كل كلمة، وفى كل حركة، وفى كل سكنة، كيف يكون حاله إلا

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

الاستقامة؟! فإن صلحت السريرة صلحت العلانية، وإن صلح الباطن صلح الظاهر، واستقام أمر الفرد وأمر الأمة.

سادسا: عن ابن عمر رضى الله عنه قال: **«فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر، صاعا من تمر أو صاعا من شعير، على كل حر أو عبد ذكر أو أنثى من المسلمين»**[1]. وفرْض هذه الزكاة مرتبطة بصوم رمضان يدل على أن من أغراض الصيام أن يؤدى بالأمة إلى بذل المال ومساعدة المحتاج وحل مشكلات الفقراء، فليس الصيام مجرد إمساك عن الطعام والشراب، وإنما هو تربية للنفس والضمير وتقوى فى القلب وإحساس بحاجة الغير.

لقد كان من نتيجة التربية النبوية للصحابة على هذه المعانى أن عزت الملة، وانتصروا على أعدائهم، وزحف الإسلام إلى كل مكان حتى دخل الشيشان أيام عمر بن الخطاب، وكذلك شمال أفريقيا، ثم اخترق فرنسا وزحف على أوروبا، واستفاد منه العالم؛ لأن الأمة تكونت تكويناً فذاً كل فرد فى الأمة يعرف تماماً أنه يحمل أمانة الرسالة، وأنه لابد أن يقوم بما قام به الرسول ﷺ ويواصل وراءه المسيرة.

نحن نريد أن نأخذ كل هذه الثمرات فى شوال وما بعده، تتربى فينا الأخلاق العلية والفضائل السامية، حتى نكون أهلاً لإعزاز ملتنا وديننا وولاية الله لنا.

وإذا انتفعت الأمة بهذا الشهر الكريم وصيامه، وأجرت حياتها على أساس مفاهيمه التربوية الراقية - لم يغلبها هوى ولا غضب ولا شهوة.

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه.

فتقوى الله هى علة فرض الصيام، وشريعة الله لا تورد حكماً إلا وله حكمة ظاهرة أو خافية ، والحكمة من الصيام واضحة والعلة ظاهرة، فمقصده الأساسى هو تحصيل التقوى، فمن حصلها فقد انتفع برمضان، ومن فاتته فكأنه ما صام ولا جاع ولا عطش.

وكل العبادات - فى الحقيقة - ترمى إلى التقوى وتحصيلها ، فالله يربينا بالتكاليف، ويؤدبنا بالعبادات لمصلحتنا، وهو سبحانه غنى عن العالمين، الله غنى ويريد لنا السعادة فى الدنيا الآخرة.

ونحن إذا حصنّا أنفسنا بهذه الحقائق تغير حالنا، المجتمع كله سوف يتغير، والأزمات الأخلاقية والانحلال الموجود فى بعض الفئات، خاصة من الشباب، ترجع إلى غياب تقوى الله ورقابته عن عملنا. هل يمكن أن يشعر الشاب أن الله رقيب عليه ثم يسمح لنفسه بما نقرأ عنه فى الصحف من رذائل لا أريد أن أكررها ، وانتهاكات للأخلاق والحرمات يعرفها الناس؟!

ونعود فنقول: ماذا يفعل الله بصائم شُغل عن تحقيق حكمة الصيام، ولم يصبه منه إلا الجوع والعطش - ما يفعل الله به؟ يقول النبى ﷺ: **«رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش»**[1]. والصيام مثل العبادات كلها، له شكل وله روح.

إن شهر الصيام ينبغى أن يكون مناسبة للمراجعة والتصحيح، فما من احد منا إلا عليه أشياء وله أخطاء، و**«كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين**

(١) رواه ابن ماجه والنسائى.

التوابون»[1]، كل واحد منا يراجع نفسه، الذى عق أبويه يراجع نفسه، الذى ظلم زوجته أو ظلمت زوجها يراجع نفسه، الأسرة أمانة وتفككها ضياع للأمة، وضياع للملة، التاجر الذى غش يعود، الذى فرط يرجع عن تفريطه، كل صائم يشغل يومه وليله بتدبر القرآن، ليعمل بما فيه: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [ص: ٢٩].. وكل واحد ينبغى أن يكون أثناء صلاة القيام، وعند إقباله على الإفطار، وفى نهار الشهر الفضيل - يكون فى حال خضوع، وإدراك لعظمة هذه اللحظات، وحضور؛ لأن الدعاء إنما يستجاب من اللسان مع التوجه بالقلب، فإن لم يكن قلبك حاضراً مع ربك فإن الدعاء لا يجدى.

* * *

(١) رواه الترمذى.

[٢٠]

خواطر ما بعد رمضان

الشريعة والمنهاج

فى وداع شهر رمضان ينبغى أن يراجع كل منا حساباته، وماذا نال من خير هذا الشهر، وماذا ضيَّع من فضائله، وليعرف ماذا حقق من مقصود صوم شهر رمضان وماذا فاته من ذلك.

وخير ما يمكن أن تتركه فريضة الصيام السنوية من أثر فى شخصية المسلم هو تحصيل ملكة التقوى، وتأكيد علاقته بالقرآن فى كل أمره، فشهر رمضان هو شهر الذكر والبر عموما، وليس شهر نزول القرآن العظيم فحسب ففيه نزلت صحف إبراهيم وتوراة موسى والإنجيل على عيسى، وختم الوحى بنزول القرآن الكريم.

ذكر الطبرى فى تفسيره أن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه روى عن النبى ﷺ أنه قال: **« أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، والتوراة لست مضين منه، والإنجيل لثلاث عشرة، والقرآن لأربع وعشرين »**.

والقرآن هو أساس هذا الدين ومعجزته الكبرى، والمصدر الأول للتشريع فيه، والسنة النبوية إنما هى دين لأنها بيان للقرآن وتفصيل لما أجمل فيه.

وقد ارتبط بهذا القرآن - بما فيه من عقائد وعبادات وعلم وتزكية للأنفس والأخلاق وقصص حكيم - عز الأمة وقوتها، فإن قصَّرتْ فيه

وضيعت حقه فسد أمر دينها وأمر دنياها، وخُذلت فيما تبتغى وتسعى إليه من عز وتمكين.

وقد توافق نزول الآية المعبّرة عن كمال الدين وتمامه مع الحديث النبوى الذى يوصى فيه النبى ﷺ لأمته بحفظ ميراثه الذى سيتركه فيهم، ففى موسم الحج الذى حج فيه رسول الله ﷺ بأمته؛ أى فى حجة الوداع، نزلت الآية الكريمة: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣]. وقد حسد اليهود المسلمين على هذه الآية، وعرفوا قدرها ومعناها، ففى صحيح البخارى: « **قالت اليهود لعمر ابن الخطاب: إنكم تقرءون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً فقال عمر: إنى لأعلم حيث أنزلت وأين أنزلت، وأين رسول الله ﷺ حين أنزلت: يوم عرفة، وإنا والله بعرفة بعد عصر يوم الجمعة فى حجة الوداع** » وكانوا يقصدون آية المائدة هذه وهذا التحديد له دلالته على فقه معنى نزولها وعظيم مدلولها عند المؤمنين عامة وعمر خاصة، فى رده على رجل من اليهود قال له ذلك، فأجابه: الحمد لله الذى جعله لنا، هو يوم عرفة واليوم الثانى يوم النحر، فأكمل ذلك لنا الأمر، وعن ابن عباس رضى الله عنهما: « **فإنها نزلت فى يوم عيدين اثنين، يوم عيد ويوم جمعة** » وواضح أن الأكمال بإكمال الفرائض والأحكام، والحلال والحرام، فأمرى ونهيى إياكم، وتنزيلى ما أنزلت منه فى كتابى، وتبيانى ما بينت لكم منه بوحى على لسان رسولى، والأدلة التى نصبتها لكم على جميع ما بكم حاجة إليه من أمر دينكم ودنياكم، فأتممت لكم جميع ذلك فلا زيادة فيه بعد اليوم. وفى معنى الآية كما قال صاحب الكشاف: كفيتكم أمر عدوكم وجعلت

اليد العليا لكم، واتممت عليكم نعمتى بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين وهدم بناء الجاهلية ومناسكها، وأن لن يحج معكم مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.. أو اتممت عليكم نعمتى بذلك لأنه لا نعمة أتم من نعمة الإسلام.

فى نفس هذه المناسبة قال رسول الله ﷺ موصيا أمته فى حجة الوداع: **«تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا: كتاب الله وسنتى»**[1].

وإذا تم الدين وتم هدى النبى ﷺ لم يكن فى البعد عنهما إلا الضلال، والتيه والخسران، واخشى أن نكون فى هذا الزمان قد اقتربنا من هذه الفتنة التى نحصد حصادها دماءً تراق بلا حساب فى كوسوفا وفلسطين وغيرهما بعدوان خارجى، ومن قبل أهل ملّتنا، كما فى الجزائر، التى صارت ساحة للدماء المراقة والحقوق المضيعة، مما يدمى له القلب، وتتأذى منه الضمائر الحية ويخالف به شرع الإسلام.

إن كلاً منا على ثغرة، إن نهض بحقها فقد أدى حق الله عليه، وشارك فى نهضة أمته، ولو أن كل فرد فى أمة الإسلام عمل ما يستطيع عمله من خير لكان الحال على غير ما نحن عليه الآن وأظن أن المشكلة الكبرى هى انعدام الغيرة على الدين وأهله فى قلوبنا، وقد نشأ ذلك من تقصير الأفراد، وانتج استخفافًا من الأعداء بنا وباقدارنا.

خصائص الشريعة الإسلامية:

وقد وجدت فى القرآن ـ الذى نتحدث عن وجوب توثيق علاقتنا به

---

(١) موطأ مالك.

سبحانه دائمًا - ما يصرح بأن الله تعالى قد جعل لهذه الأمة شيئين أو مَعْلمين ثابتين - كما جعل للأنبياء السابقين - بهما يهتدى العباد، ويسيرون وفق المنهج المرضى عند الله تعالى. يقول سبحانه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] يقول أبو عبدالله القرطبى فى تفسيره: «الشرعة» والشريعة: الطريقة الظاهرة التى يتوصل بها إلى النجاة، والشريعة فى اللغة: الطريق الذى يتوصل منه إلى الماء، والشريعة ما شرع الله لعباده من الدين.. والمنهاج الطريق المستمر، وهو النهج والمنهج.. وروى عن ابن عباس والحسن وغيرهما: «**شرعة ومنهاجا**» سنة وسبيلاً.

ويضيف ابن كثير: «الشرعة - وهى الشريعة أيضا - هى ما يبتدأ فيه إلى الشرع، ومنه يقال شرع فى كذا: أى ابتدأ فيه.. أما المنهاج فهو الطريق الواضح السهل» وأما الفخر الرازى فيقول: الشريعة فعيلة بمعنى المفعولة، وهى الأشياء التى أوجب الله تعالى على المكلفين أن يشرعوا فيها وأما المنهاج فهو الطريق الواضح فالشريعة حوت الأحكام والوصايا وأمر الله تعالى ونهيه، وما يقوم به صلاح الفرد، ويتحقق به صلاح الأمة، ويستقيم به أمر الحكام والمحكومين على السواء.

والمنهاج مبادئ نظرية - عموم الطريق إلى الله - يراد من الأمة أن تحولها إلى واقع فى حياتها؛ سواء على مستوى الأفراد أم على مستوى الدولة والمجتمع، فالمنهاج هو الطريق الذى دلنا الله على أصوله، فالشريعة تكليف بالخير، والمنهاج طريق عام للخير؛ ولعل هذا هو الذى جعل الآية تتواصل، ويأتى فيها قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨] فشأن الأمة

المسلمة - فى خصوصيتها العظيمة وخيريتها التى لا تلحقها فيها أمة ما عملت بهدى دينها هو استباق الخيرات والمسارعة إليها، والتى امتدحها الله فى الكتاب العزيز بقوله: ﴿الَّذين إن مَكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وآتوُا الزَّكَاةَ وأمرُوا بالْمَعْرُوفِ ونَهَوْا عنِ الْمُنكر ولِلّه عاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

إن لنا منهجًا ولنا شرعة، ونكبةُ المسلمين الآن هى أنهم لم يفهموا دينهم كما ينبغى، لا شرعة ولا منهاجًا فساء حالهم وتمكن منهم أعداؤهم، ومن سوء الحظ أننا مكثنا فترة غير قصيرة من تاريخنا نصبُّ كل اهتمامنا على « الشرعة »، فنوضح فروع الدين، وما يجوز وما لا يجوز وما يحل وما يحرم وما يُكره وما يستحب، دون أن نعطى « المنهاج » مثل هذا الاهتمام، والمنهاج خاص بالكليات وبالصورة العامة للدين، والأصول المكينة فيه، فى حال ممارستنا لها فى واقع الحياة ومختلف أحوالها وتحدياتها للوصول إلى أهدافنا وتحقيق قيمنا ومصالحنا ونصرة ديننا وشرف دنيانا والظهور على أعدائنا، وحتى حينما اهتممنا بالفروع (الشريعة) لم يكن ذلك على الوجه الأمثل، فتحولت المسألة إلى سباق بين المذاهب فى التشقيق والتفريع ووضع المتون والشروح والحواشى على حساب العمل لمقاصد الشريعة ولبّها، وما ينزهها الله به بوصفها الوحى الخاتم من كليات وقواعد عامة، كقاعدة التيسير لا التعسير، والوسطية لا التطرف والغلو، والعدل الذى لا يتبعّض، واستباق الخيرات فى التعامل مع الآخرين، قصدا إلى خير البشرية، وتحقيق مصالحها ودفع مفاسدها.

إن شريعتنا هذه عُنيت عناية كبيرة بنقطة البداية فى الإصلاح، ألا وهو

الفـرد، رجـلا كـان أم امـرأة؛ لأن الفـرد هو العنصـر الأولى فى التكوينات البشرية الأخرى (الأمة والحكومة)، فإذا استقامت حياة الأفراد استقامت معها حياة المجتمع والدولة.

وقد جعل الله تعالى من مهام النبى الكريم ﷺ فترة وجوده بين ظهرانى امتـه أنه (يزكـيـهم) – وهى مـهـمـة الأمـة ورعـاتـهـا من بعـده – أى يربى الأفراد، ويطهر أنفسهـم من الانحرافات العقائدية والفكرية وغيرها. وهذا يؤكـد تركـيـز الشريعة على إصلاح الفـرد، بوصـفـه الأساس الذى يقـم به البناء، وتصلح بصـلاحـه الشعـوب والحكومات، وهـذا معنى قوله تعـالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ من زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقوله تعـالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤]، والتـزكـيـة: الإنماء والإعلاء بالتقـوى، بينمـا التدسيـة: النقص والإخـفـاء بالفـجـور... وإضافة التزكية والتدسية إلى العبد أولى من عود الضمير فيهما إلى الله؛ لأن للعبد اختيار وقـدرة مـقـارنة، فـالمهم هنا أن تطهـر الفـرد من الشـرك والمعـاصى، يكثـر التقوى، ويجلب الفلاح بمفهومه الواسع ويحقق النماء للأفراد والمجتمعات والشعوب فى كل مجالات الحياة المختلفة التى تتصل فيـمـا بينها اتصـال الأنابيب المستطرقة. فـمن صلح دينه صلح عمله، والعكس صحيح.. فما أعظم مهـمـة تربية النفوس وتأهيلها لفعل الخيرات أى أن صلاح الفرد هو المنطلق.

ويتعلل بعض الناس للمفاسد التى تعم المجتمع ويقع فيهـا كـأحدهم بما فيه تبرير للفسـاد وتبرئة له أن يلقى المسئولية على الحاكمين وحدهم، ونحن لا ننكر وجـود مـفـاسد ليس فى طاقة الأفراد ولا مؤسسات المجتمع

تغييرها، لكن علينا أن نتجنب مضارها، ونحذّر الناس منها.. إن الظروف التى ليس فى طاقتنا تغييرها لا تعفينا من مسئوليتنا عن أنفسنا أمام الله - سبحانه وتعالى ﴿إن كلُّ من فى السَّموات والأرْض إلاَّ آتى الرَّحْمَنِ عَبْداً (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عداً (٩٤) وكُلُّهُمْ آتيه يوْم الْقيامة فرْداً﴾ [مريم: ٩٣-٩٥] لذلك لا يستطع أحد أن يقول: ماذا أصنع؟ المجتمع فاسد، والأوضاع فاسدة... إلخ.. يقول النبى ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**»[1]. فكل إنسان مسئول، وعندما يلقى الله سيلقاه فردا، يحاسبه عن تقصيره وتفريطه فى أداء الأمانات التى عهد الله بها إليه قدر استطاعته.

إن بيان الشريعة بعمومها هو مسئولية العلماء وأصحاب الفكر والدعاة، خاصة أن هناك أمية دينية، فلم يُفهَم الإسلام بعد فى مجتمعنا حق الفهم، مع أن استقامة الفهم شرط لا يستقيم بدونه العمل، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، فعلى أهل العلم البيان على الوجه الصحيح؛ لأن البيان على غير هذا يكون إضلالاً، يستقر معه فى نفس المتلقى فهم سقيم للدين، قد يتمكن منه ويصعب نزعه. أما الذى حُرِم من البيان والفهم تمامًا فكأنما أغلقنا عليه النافذة، وتركناه يتخبط فى الظلام، حتى يصل إلى عقله وقلبه نور الهداية إلى الحق.

وإذا كان العلماء مسئولين عن البيان، فكل واحد فينا مسئول عن التدبر ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وإذا لم

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى.

أتدبر وأتفهم كتاب الله بقلبى وعقلى، ففيما وكيف أوظفهما إذن؟!
وديننا قائم على البصيرة والحجة والبرهان: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨]. ويسعف التدبر ويعين عليه أن كتاب الله ودينه لن تجد فيهما شيئًا يتناقض مع العقل السليم ولا الفطرة السوية، فالله تعالى لم يعنتنا بأحكام كتابه، ولا تركنا دون استعداد ذاتى لها - فهما لها وعملا بها - .

نحن فى أمس الحاجة إلى فهم عميق لشريعتنا ومقاصدها ومراد الله بها ومنها، حتى يرانا حيث يحب أن يرى عبده، ولا يرانا حيث يكره، ولو جهلا منا بأمره ونهيه، فالإيمان إقرار بحجة وبرهان، وكذلك إذعان بالسلوك والالتزام، فالشريعة الإسلامية تعُرِّف اتباعها ما يُطلب منهم: نحو أنفسهم، ونحو دينهم، ونحو بيوتهم، ومجتمعهم، وعملهم، ودنياهم، وآخرتهم. وهذا هو الوعى الكامل الذى نحتاج إليه، ويجب أن نربى ناشئتنا عليه، ويسند هذا الفهم تربية وتزكية؛ لأن علما بلا أخلاق طاهرة يجلب دمارًا واضطرابًا مستمرًا، وسوء عاقبة محتومة إن عاجلا أو آجلا.

ومن الخصوصية القيمية التى نعرفها من شريعتنا العظيمة أنها تراعى المصالح الشرعية، وتحكمها فى ذلك المبادئ العليا الرفيعة. ونلاحظ أن الإسلام بذلك ينجح دائمًا فى توكيد خصوصيته، وإن تسبب ذلك فى فشل المسلمين فى بعض المواقع، ففى غزوة أحد ضاعت من المسلمين معركة وهُزموا، ولكن مبادئ دينهم انتصرت، فالنبى ﷺ شاور أصحابه فى الخروج لقتال الكافرين أو البقاء داخل المدينة والدفاع عنها، وكان رأيه ﷺ البقاء فى المدينة، واتفق معه فريق من أصحابه، ولكن المتحمسين من

الصحابة والمشتاقين إلى الجهاد، اختاروا الخروج إلى العدو وكانوا الأكثرية، فنزل النبي ﷺ على نتيجة الشورى، احتراماً لهذا المبدأ الإسلامي الرفيع، وجاءت الهزيمة نتيجة للتقصير في ناحية أخرى، لا نتيجة لاحترام المبادئ الرفيعة.

نحن أمة مبادئ لا تتبعض، فعندما نؤمر بالعدل - مثلاً - نؤمر به مع العدو والصديق، في الحرب وفي السلم، في البيت والشارع والعمل. وهذه الخصوصية في شريعتنا الغراء، ينبغي أن تكون حاضرة في العقل، ماثلة في القلب، متحققة في واقع الحياة، وينزل الحاكمون على حكمها، كما يحرص المحكومون عليها حرصهم على سائر أصول الدين وفرائضه، ومما نراه واضحاً في شريعة الإسلام العظيمة أنها تصون كرامة الإنسان، وتستمد ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٠]، لكن هذه الكرامة ليس معيارها السلاح والقوة الباغية، فالقوة وحدها لا تقوم بها حضارة، وإن هي عُزلت عن الدين وهدايته آلت إلى السقوط، وكم رأينا من دول علا شأنها، وذاع صيتها، وازداد جبروتها، وخافها عباد الله، ثم انطفأت وانهارت من داخلها بسبب الظلم والقهر، ولم تمنع قوتها العسكرية أو الاقتصادية من سقوطها.

ولهذا اهتم الإسلام في بناء أمته بالجذور لا بالمظاهر والقشور، حتى إذا امتد الفرع كان من نفس نوع الجذر، وامتد مرتبطاً بأساسه، حتى يعلو البناء دون أن ينهار، فالفرد الذي تزكى هو الأساس، وكرامته جزء من إنسانيته، وتتأكد باحترامه للمثل والمبادئ الرفيعة وتقواه لله تعالى.

إن الله سبحانه جعل الهدف من الشريعة إسعاد البشر دنيا وأخرى، وضمان العيش الطيب لهم، والعزوف عن العيش الخبيث: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]. والمخالف لنهج هذه الشريعة لاشك أنه سيحصد حصاداً مراً: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٦].

ومع هذه الشريعة نحن نملك كل أسباب القوة والعزة، إلا أننا نحتاج إلى الإيمان الثابت، والعقل الراشد، والتخطيط الجاد، والعزيمة القوية، فالإيمان يؤسس، والعزيمة تدفع إلى العمل، والله يطمئننا إلى أن العاقبة للمتقين: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الاعراف: ١٢٨] فمهما ضاق الأمر، واكفهر الجو، وتسلط الأعداء، وتراكمت البلايا - فإن النتيجة ستكون فى صالح المتمسكين بشريعة الله تعالى.

وقد جعل الله تعالى فى محكم تنزيله التمسك بالكتاب بمعنى الإصلاح، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

ومع هذه الشريعة أيضًا تتأكد المسئولية على كل واحد فينا: ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

الشريعة وسنن العمران:

وإن لله سننا ثابتة في العمران البشرى، وقيام الدول وسقوطها، سبقنا الغرب إليها، ونحن الأحق بها لأنها من أصول ديننا، فوحدتنا دين وموالاة المؤمنين والمؤمنات بعضهم بعضًا دين، وتولى الظالمين من دون المؤمنين كفر، لقوله تعالى ﴿ ...وَمَن يَتَولَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وإعدادنا العسكرى لمنع العدو من العدوان علينا تكليف شرعى، لقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ..﴾ [الأنفال: ٦٠]، والثبات في مجاهدة العدو طاعة لله ورسوله، لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا...﴾ [الأنفال: ٤٥]، ووحدة الصف في قتال العدو والخروج على الوحدة نفاق ودخل في الإيمان، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١]، وقوله بعدها تغليظًا في النهى عن نكث العهد واتخاذ الأيمان دخلا بين المؤمنين في مجاهدة العدو فيشذ البعض عن مقتضى الوحدة والعهد فيسارع في التطبيع مع العدو مع استمراره في عدوانه الإجرامي، اعتزازًا بكثرة الموالين للعدو ورجحان قوتهم على قوة المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٩٢] .

هذه الأوامر والنواهى أراها تخاطبنا فى هذا الزمان، للمراجعة الواجبة والاعتبار اللازم حكامًا ومحكومين، وللعمل بمقتضاها فى إدارة المعركة التى فرضها العدو على المسلمين بغير حق، للخروج من المصير الأسيف الذى يريده العدو لنا، مؤمنين بوعد الله تعالى فى قوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [محمد : ٧].

إن القرآن ما قصَّر، ولا قصر هدىُ النبى ﷺ عن تعريفنا بكل أسباب العزة، ولكننا نحن عجزنا وقصرنا: بعدم وعينا بديننا، وعدم التزامنا بتعاليم شريعته العظيمة، وإيثارنا الدنيا على الآخرة.

* * *

[٢١]

وقفات مع سورة الأنفال

(أ)

دروس غزوة بدر الكبرى

استُهلَّت سورة «الأنفال» العظيمة بقوله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [الأنفال: ١]. روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدتُ معه بدراً، فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدو، فانطلقتْ طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت (أحاطت) طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غِرَّة، حتى إذا كان الليل، وفاء (رجع) الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها، فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ..** ﴾، فقَسَمها رسول الله ﷺ بين المسلمين».

لقد اختلفوا فتولى الله حسم الخلاف، فأمرهم بقوله: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾.

إن الجيش الذى كان يحارب مع رسول الله ﷺ لم يكن جيشًا نظاميًا، تنفق عليه الدولة وتتولى دفع رواتبه وتجهيزه بالأسلحة، وتداوى المصاب فى الميدان، وإنما كان المجاهد فى سبيل الله يشترى سلاحه، ويتولى أمر نفسه وأمر بيته، ولذلك جاء الحكم بأن تسد الغنائم حاجة المجاهدين.

وأما الآن فقد تغيرت الأمور، وأصبح الجيش نظاميًا، تشترى الدولة سلاحه، وله رواتب تسد حاجة أفراده ، ومستشفيات تعالج مرضاه، وأصبحت النظرة الآن تسمح بالاجتهاد، فهل تكون الغنائم إذا وقعت أولى بها أن تؤول إلى خزينة الدولة؟ حتى يستطيع الحاكم أن ينفقها فى المصالح العامة – هذا ما أراه والله أعلم[1].

وبعد تنقية القلوب من التنافس على متاع الدنيا الزائف، اهتمت الآيات الكريمة ببيان أوصاف المؤمنين؛ لأن غزوة بدر وما تلاها من سرايا وغزوات لم يتم النصر فيها إلا بجند مؤمنين آمنوا بالله حقًا، وآثروا الآخرة على الدنيا، وكان إعلاء كلمة الله هو شغلهم الشاغل، فاهتم القرآن بوصف هذه الفئة من المؤمنين الذين تتوافر فيهم الصفات التى تجعل الجند قادرين على أن يحملوا أمانة الدعوة، ويقيموا العدل إذا انتصروا، وأن يقيموا الحق فيمن يملكون أمرهم – فقال فى وصفهم: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢] وَجِلت قلوبُهم؛ أى أفزعتهم مهابة الله، وعرفوا له قدْرَه، وخشيته، فتوافر لهم الإخلاص والتوكل.

---

(١) اجتهاد للمؤلف.

إنها نعوت ثلاثة وصف الله بها المؤمنين الكُمّل، وهى أوصاف من أعمال القلوب: خشية الله والإخلاص فى دين الله، والتوكل على الله. ثم أعقبها بوصفين هما من أمور وعمل الجوارح: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣]. والصلاة هنا نابت عن كل العبادات؛ لأنها أم العبادات، كعبادة روحية، وأما الأخرى ففريضة مالية؛ لأن الأمة لا يصلح أمرها إلا إذا أعان الغنى والقادر فيها الفقير والمحتاج، حتى تكون أمة متكاملة، متعاونة، متساندة، لا يوجد فيها فقير ولا سائل ولا محتاج: ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤].

بناء المجتمع المسلم:

وسورة الأنفال حين نسير معها إلى الأمام، نجد أن الله تبارك وتعالى أورد فيها ستة نداءات صارمة، وأتبعها بأوامر أو نواهٍ صارمة، ورتب على المخالفة فيها عقابًا شديدًا، وجاءت هذه النداءات مصدَّرة بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا.. ﴾، ويستوقف المتأملَ المتدبرَ أن هذه النداءات جاءت خمسةٌ منها متتابعة، ووقعت فى أثناء خمس عشرة آية (١٥-٢٩)؛ فى خطاب ليس قاصرًا على المسلمين فى بدر، بل هو عام للأمة الإسلامية زمانًا ومكانًا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وخصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ.

وأما النداء السادس (الآيات من ٤٥ إلى ٤٧) - وهو فى غاية الأهمية - فيمس حال الأمة الآن، والذى نعرف ما آل إليه من ضعف فى العقيدة،

ومن فساد فى الأحوال، ومن ابتعاد عن النهج الذى حدده لنا رسول الله ﷺ فتسلط علينا أعداؤنا وضاعت هيبتنا، وصار حالنا إلى ما علمناه فى البوسنة، وعلمناه فى كوسوفا، وعلمناه فى كشمير، والشيشان، وفى أفغانستان، ومواقع أخرى من العالم. كل هذا بما كسبت أيدى المسلمين، فحين فرطنا فى ديننا تخلت عنا أسباب النصر، وأسباب النصر هذه لا بد أن تأتى بعد عمل يؤدَّى، مع توكل العبد على الله حق التوكل.

وسنتوقف أمام هذه النداءات الستة:

النداء الأول: يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ**﴾ [الأنفال: ١٥].. نداء يمس المعركة الحقيقية، ويمس معها المعارك الأخرى التى يلقون فيها أعداءهم، حتى المعارك التى ليس فيها ميدان حرب وقتال، فقد تكون المعركة من معارك السلم، كأن يحدث صلح أو هدنة، والوهن الذى يصيب الجندى فى هذا الميدان ليس أقل شأنًا من الوهن الذى يصيبه فى ميدان القتال، والقوة فى كلا الميدانين حفظ للكرامة يمنع الأمة من أن يطمع فيها أعداؤها.

وتولية الأدبار هى النفور من الحرب، والهرب من العدو، وهما بحق جريمة فى جميع الميادين، بل هى كبيرة من الكبائر، يقول النبى ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات..**»؛ أى المهلكات، وعد منها «**الفرار يوم الزحف**»(١).

وجاء الوعيد على المخالفة فظيعًا، على الرغم من فتح بابين لمعاودة الكَرَّة

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

عند الضيق الشديد: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦]، فالفرار من وجه العدو غير جائز، إلا لأخذ وضع افضل للقتال، أو الانضمام إلى فئة مؤمنة أخرى يكون الصف بها أقوى.

إنه نهى صارم، وهذا أمر نحن فى حاجة ماسة إليه الآن؛ لأن الأمة الإسلامية فيها ضعف، ولا تستطيع أن تثبت على تكاليف الحرب، ولا تعمل لكى تستخلص حقوقها المنهوبة، وتدفع عنها بكل ما أوتيت من عزم وقوة.

ثم تأتى الآية التالية ببيان شىء فى غاية الأهمية، وهو عمل القدر الإلهى وجهد البشر؛ لأن الاثنين متكاملان فى حياة الخلق، فلا يأتى نصر الله على القاعدين الكُسالى، ومن لم يأخذ ويعمل بكل أسباب النصر، فليس له عند الله موالاة ولا نصر. يبين الله لنا هذا المعنى فيقول: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ فهو يخاطب المؤمنين، ويخاطب النبى ﷺ بأن الله هو الذى شاء،وأذن لسعيهم بأن يربح، وهذا يطمئن المؤمنين بعد العمل الذى قدموه بتأييد الله لهم، يقول تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٧].

وعُنيت سورة الأنفال – كما ذكرنا آنفًا – بتحديد صفات المؤمنين؛ لأن عليهم المعوّل والكسب فى الساحات المختلفة، وأما التأييد من السماء فكان ثوابًا وكان لطفًا من الله يؤيد به من ينصره.

هذا التوازن فى الفهم نحن فى حاجة إليه، كى تصح منا العقيدة؛ لابد من بذل جهد البشر حتى يحصل موعود القدر بنصر الدين؛ ومن المسلمين من يتصور الأمر على غير هذه الحقيقة.

وقلب المؤمن ينبغى أن يكون بهذا الصدق وهذا الإخلاص؛ لأن الله كأنه يقول إن النبات أنتم وضعتم بذرته فى الأرض، فهل أنتم الذين أتيتم بالبذرة؟! قالوا: لا، هى من عند الله، قال والأرض التى وضعتم فيها البذرة بما فيها من عناصر ومكونات: هل أنتم وضعتم فيها عناصرها المناسبة، كى تُخرج هذه الثمرةَ حلوة وهذه لاذعة؟!! قالوا: لا. إنه تعالى أمرنا أن احرثوا وكلوا من ثمار النخيل والشجر والأعناب، واسعوا لذلك، فهذا هو العمل الذى تُسألون عنه يقوم القيامة (السعى الملتزم بشريعة الله) - يقول تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩ - ٤١].

يجب أن نكمل فينا حسن الاعتقاد، والالتزام بما يمليه علينا ديننا من عمل وبذل وكفاح وجهاد، وحسن توكل على الله، وثقة فيه وأن النصر بيده، وأنه هو الذى يملك الأمر كله.

يقول الله لرسوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] «اعبده» يدخل فيها كل العبادات والجهاد والسعى لإعلاء كلمة الله، وكل عمل يرجى به صالح الفرد والأمة فى دينها ودنياها.. «وتوكل عليه» اعتمد عليه؛ لأنه الله رب العالمين.

ثم إن الله تعالى أعطى المؤمنين بقدر ما علم من صدقهم وبذلهم فى

ساحة الحرب وغيرها للنفس والمال، وهو سبحانه الذى يقوّى عزائم المؤمنين، ويضعف كيد الأعداء الكافرين: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨]. انظر التكامل المدهش؛ فكما أيد الله المؤمنين بنصره، وأنجح سعيهم، أنزل بالكافرين الوهن. ثم يخاطب الكفار ويخوفهم حتى لا يطمعوا فى المؤمنين، إن كانوا أقل منهم عدداً أو أقل عدة؛ لأن النصر ليس بالعدد، إنما النصر بمن يحمل سلاحه إيمانًا، ويبذل فى الميدان كل ما يستطيع صبراً وعملاً وإقبالاً على الله وإيثاراً للآخرة على الدنيا - يخاطبهم بقوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾؛ أى تطلبوا النصر، ﴿فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾؛ أى النصر الذى جاء للمؤمنين، ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ عن معاداة المسلمين ﴿.. فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

هذه المعانى أحوج ما نكون نحن إلى تدبرها، فإذا عاد الإيمان إلى مكانته منا، وعادت هذه الأوامر والنواهى إلى مكانها من عمل الأمة حكامًا ومحكومين فى كل المواقع، وإذا عدنا وحققنا كل ما أُمرنا به، وانتهينا عما نُهينا عنه - تحقق لنا النصر؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

النداء الثانى: يقول الله - سبحانه وتعالىَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠، ٢١].

إن هؤلاء الأعداء من الكفار والمنافقين يزعمون أنهم يسمعون، ولكنهم لا يسمعون سماع تدبر يؤثر فى السلوك، ويشحذ العزائم، ويبدو أثره فى الأعمال، فهذا سماعٌ وصف الله أصحابه بأنهم دواب فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

ليسوا فقط دواب، بل شر الدواب؛ أى من لا يسمع ويتدبر، ويعمل بما سمع أُلحق فى وصفه بالدواب، بل شرها: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، ولكن الفطرة ساءت، وهبطت القيم، وتراجعت قوة الأنفس والعزائم، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ...﴾، ولكنهم غير مستعدين، ليس عندهم نور الفطرة، ولا إقبال على الطاعة، ولا إيثار للحق والخير، ﴿... وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

* * *

(ب)
أسس الإيمـان

فى سورة الأنفال ما يستوقف كل متدبر لكتاب الله تعالى، ومن ذلك النداءات الستة التى تتابعت فى السورة الكريمة موجَّهة إلى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وتناولنا منها النداء الأول والنداء الثانى.

من حكمة الله وحسن انتظام خطابه - سبحانه - للناس وللمسلمين: أن حُدِّد - ابتداءً - المخاطبين بهذه النداءات، وهم الذين قال فيهم فى أول السورة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]، فلهم أوصاف رئيسية خمسة: خشية من الله، وإخلاص له، وتوكل عليه، وإقام الصلاة، وإنفاق المال فى سبيل الله.

والصلاة اختارها من بين الشعائر لشرفها ومكانها من الدين، فالحفاظ عليها وحسن إقامتها يستدعيان الحفاظ على كل عُرى الدين.

ثم جاء بعدها ذلك الركن الركين المتين الذى قام عليه حال الأمة الإسلامية، وما تميزت به من عدالة اجتماعية وتكافل بين الأغنياء والفقراء، حتى لا يوجد فى أمة الإسلام فقير محتاج وإلى جانبه غنى يبطره غناه،

فكان إيتاء الزكاة و إنفاق المال هو العبادة العملية المالية التى يقوم عليها صرح العدالة الاجتماعية.

ولا بد أن نتنبه إلى أن المؤمن لا يكتمل إيمانه - تبعًا لما جاء فى هذه السورة وغيرها عن خصائص المؤمنين - إلا إذا أدى الزكاة كاملة، وحرص عليها، وكثير منا قد غفل أو تغافل عن هذا، فصارت الزكاة فريضة غائبة.

إن نداء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ يتوجه إلى الناحية القوية من دنيا الناس، تلك التى تحفظ للدين نقاءه، ولا تحب أن تعيش إلا فى صفوه، بعيدًا عن الكدر الذى يعكر به الناس شريعة الله.. وهذه الناحية هى النفس المفعمة بالإيمان المسكونة بمعانيه الرفيعة.

ولا شك أن هذا الفريق من الناس هو الجدير بنداء الله تعالى؛ إذ يلين قلبه مع النداء، وتستجيب نفسه له، وتنسحب من مواقع المخالفة، ولا تُفتَقد فى مواقع الطاعة.

طاعة الله ورسوله:

النداء الثالث: بالنظر فى النداء الثالث الذى خاطب الله به المؤمنين فى سورة الأنفال، نجده يتصل بحاضرنا كما اتصل بزمان سلفنا، وسيمتد قطعًا إلى مستقبلنا كله - فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والإعلام وتربية الناس وحياة الأسرة وفى كل شىء - يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

طاعة الله ورسوله ﷺ هى مخ الإسلام، بل هى كل الإسلام، ومجمل

القرآن، وقد أوجب الله ورسوله علينا ما ينفعنا في الدنيا والآخرة، ونهانا عما يضرنا في الدنيا وفي الآخرة، فمن التزم بذلك كانت خطاه محفوظة من العطب، وعاقبتُه في الآخرة مضمونة السلامة.

وطاعة الرسول هي من طاعة الله، ولذلك قرنها بها: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، فالاستجابة لرسول الله هي استجابة لله، وطاعة رسول الله فيما أمر به ونهى عنه هي طاعة لله.

وما أمرنا أن نطيع الله فيه ونتقيه ليس فقط الآيات التي نزل بها الوحي، وإنما أيضًا الآيات التي هي سنن الله في نظام الكون والمجتمع، مثل معرفة سنة الله التي تقوم بها الدولة العادلة ولا تقوم الدولة الظالمة، فينصلح أمر الناس في دينهم ودنياهم إذا لزموا الشورى، واحترموا الحرية، وحافظوا على كرامة الإنسان.

والآية - النداء - تتضمن دعوة للإحياء، وعكس الإحياء الإهلاك والإماتة، والإسلام دين حياة وعزة، دين كرامة وقوة، فلا يقبل الهوان، ولا يتفق معه الذل لمخلوق، وهو دين التوحيد الخالص والحرية الكاملة، وفي تمام الحرية كمال التوحيد؛ ولذلك قال: ﴿ **إذا دعاكم** ﴾ ، وفي كلمة دعاكم حض ودفع وتشجيع على العمل..

وكلمة ﴿ **استجيبوا** ﴾ لاتعني الإجابة المجردة، وإنما معناها الإجابة بعناية وإعداد وهمة، استجيبوا بكل ما تملكون من قوة لتقيموا دعوة الإحياء؛ إحياء العقول بالمعرفة، والقلوب بالإيمان، والنفوس والجوارح بالطهارة،

والإحصان، إحياء فى كل شىء: إحياء السياسة بمعرفة حدود الله، وإحياء المجتمع بالوقوف عند محارم الدين.

وهذا الإحياء يوجب ألا نُحِل حرامًا ولا نحرّم حلالاً إلا اعتماداً على حكم الكتاب والسنة، وذلك إحياء لهوية الأمة؛ حتى لا تكون ضائعة تائهة، تعيش فى ذيل الغرب أو الشرق، وكأن لا خصوصية لها ولا مرجعية عليا لها.

﴿**لما يحييكم**﴾ فى الدنيا باستقامة العيش، وزوال أسباب القلق، ودواعى الإحباط، وفى الآخرة بنجاتكم من مصير الكافرين، وفوزكم مع أهل الجنة.

﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ ينبهنا لكى نعلم علمَ يقين أن الله يملك إرادة القلوب كما يملك إرادة الجوارح، ولذلك كان رسول الله ﷺ كثير الدعاء لله بالتثبيت، فقد كان النبى ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك**»(١).

والرسول هو الأتقى والأعلم بالله، وهو القدوة الحسنة للأمة؛ ولذلك فنحن ينبغى أن نسأل الله مثل هذا التثبيت، لأن محن الحياة كثيرة، ودواعى الأهواء متعددة، ودروب الفساد أمام الإنسان سهلة، والشيطان لا يكف عن الحيلة، ويعمل على خذلان المؤمن دائمًا.

لابد أن نعلم أن القلوب بيد الله، وأن الله يحول بين المرء وقلبه، وقد كان العُبّاد والمتنسكون يخافون هذه الآية أشد الخوف؛ لأن أكبر ما يقلق

---

(١) رواه أحمد.

المطيع ويخيفه، هو أن يتغير قلبه، فإذا صلى أو تصدّق أو عمل غير ذلك من الطاعات خشى أن يدخل عليه العُجب والخيلاء، فيحصل فساد فى القلب.

وهذا الأمر مرتبط بأن القلب هو مركز الوجدان ومركز الإرادة، وهو ذو سلطان على فعل الإنسان وعلى توجهاته.

وهنا فائدة: لا ينبغى لأحد أن يأمن مكر الله مهما عمل من طاعة وصالحات، وأما العاصى «**وكل بنى آدم خطاء**» [رواه الترمذى] – فلا ييأس من رحمة الله – وبهذين الأمر سيعيش المؤمن بين خوف يحبسه عن المعصية، ورجاء يحمله على الطاعة، ومن يصنع هذا يكون قد بلغ خير الدنيا والآخرة.

وبعد الإعلام بأن الله يحول بين المرء وقلبه يقول تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ فإذا كنا نعلم علم اليقين أن القلوب بيد الله، وأن الله يحول بين المرء وقلبه – سيظل كل منا فى حال جد ودعاء، موصولاً مع الله أن يعينه على الخير، وأن يباعد بينه وبين الشر، وأن يصرف عنه الشيطان ونزغه، وسيراقب قلبه، ويحاسب نفسه قبل أن يحاسَب: «**والكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله**»(٢)، فناسب ذلك أن يُذكر الحشر الذى يُجمع فيه الخلق للحساب.

ثم فى الآية التالية ينبهنا القرآن إلى أننا إن لم نستجب لما فيه إحياء الأمة والملة بكل أسباب القوة: علم وعمل وحركة وحياة وبذل وقيم

(١، ٢) رواه الترمذى.

وأخـلاق – نكون قـد خـالفنا عن أمـر الله، ولـم نجب دعـوته، إذن يقع العقاب وتقع الفتنة، يقول تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

ونلاحظ أن الآية لم تقل «واتقوا ذنبًا أو معصية»، بل قالت: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً ﴾ لجسامة الفُرقة وخطرها؛ فهى تؤثر على السياسة، وعلى الناحية العسكرية، وعلى الاقتصاد، وعلى عزة الأمة ووحدتها، وعلى كرامة الأوطان.

هوية الأمة:

وما يتصل بوحدة الأمة ومستقبلها وخلافاتها ينبغى ألا يخوض فيه أى أحد، وإنما يسند إلى أهل الذكر: من أهل العلم والسياسة والخبرة بالأمور؛ ممن يحترمون دينهم، ونأمن لسلامة حكمهم، فيتدارسون ويستنبطون ما يجب أن يُعمَل به، ويحكمون حكمًا واعيًا تجتمع عليه كلمة الأمة، فتكون الأمة على رأى جامع اختاره حكماؤها وممثلوها وأهل خبرتها. يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء: ٨٣].

إن أمة الإسلام ليست يتيمة بلا هوية؛ فمعها كتاب الله يأمرها أن تحفظ الدين، وأن تحيى نفسها بشرع الله.. والكتاب الذى معها يبصّرها: ماذا تصنع فى أمر الأمن والخوف، وماذا تصنع إذا حدث التنازع، ويبين لها الحدود، ويجعل التزامها بهذه الحدود من أوجب ما أوجبه الله على المؤمنين.

إن حقائق الدين ليست معلومة لدى الكثير من المسلمين على وجهها الصحيح، ولو عرفنا هذه الحقائق والتزمنا بها لتغيرت أحوالنا كلها، خاصة أن الأمة فى الإسلام هى مصدر القوة، وهى الحافظة للشرع، فإذا استقام أمرها على الدين، وفهمت أمر الله، وعملت به – استقام أمرها، وصلح حالها تماماً، وذهب عنها كل ما يضعف شأنها وسلطانها.

وكأن آيات سورة الأنفال تقول لنا: انظروا لما آمنتم ماذا أعطاكم الله: ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[الأنفال: ٢٦].. وإهمال شكر النعمة بالنسبة للفرد هو بطر يُذهبها، وكفران النعمة بالنسبة للأمم يذهبها أيضًا: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [النحل: ١١٢].

سنن الله قائمة لا بد أن نعلمها، وأن نتقى الله فيها، حتى نخرج مما ألم بنا. نريد رجعة إلى حقائق الدين، وإلى العمل بها تمامًا، وأن نتواصى بها فيما بيننا، لتكون لنا مع الله معية وبه استعانة ويقين بأنه غالب على أمره، وأن العاقبة للمتقين، وأن الله لا يصلح عمل المفسدين، فنكل أمرنا إلى الله بعد أن نبذل كل ما نستطيع بذله، ونأخذ الأسباب علمًا وعملاً؛ فى السياسة والاقتصاد والبيت وغيرها.

النداء الرابع: وفى نداءات سورة الأنفال أيضًا يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال : ٢٧] .. إذا لم نعمل بكل ما فات، وبالأوامر والنواهى التى ذكرناها كلها - نكون قد خنا الله ورسوله .

بل إن من أراد استسلامًا للعدو يسميه « سلامًا » فقد خان الله ورسوله، ومن أراد منا التطبيع مع اليهود دون أن نأخذ حقنا، ونسترد أرضنا، ونستعيد أسرانا، ويعترف لنا عدونا بقدسنا - فهو خائن لله ورسوله .

نحن مع السلام الذى يريد الإخوة العامة فى الناس . والجهاد نفسه هو وسيلة لإقامة الحق وإعلاء كلمة الله، وليس غاية فى ذاته، الغاية إنما هى السلام . فديننا دين السلام، ولكن إذا اعتُدىَ علينا وجب أن ندفع العدوان حفظًا للسلام : ﴿ ..وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة : ٢٥١]، ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج : ٤٠] هذا شأن الإسلام .

ثم بين لنا السياق القرآنى الكريم فى آيات سورة الأنفال أسباب الخيانة؛ حتى نكون على علم بها، فقال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال : ٢٨]؛ ذلك أن العبد إذا أحب المال حبًا جمًا، حتى يكون حظ نفسه أعلى وأولى عنده من حق الله وأحبَّ الأبناء حتى استحل الحرام من أجلهم - فإن هذا الحب وذاك

يجلبان عليه مهالك الدنيا ومهالك الآخرة. وإنما يريد الله منا القصد والاعتدال، حتى نضع الأمور فى مواضعها.

إننا فى حاجة إلى مراجعة عميقة لحقائق هذا الدين العظيم؛ حتى لا تكون نسبتنا إليه نسبة جغرافية، او نسبة أسماء: محمد وعلى وفاطمة، إنما نسبة حق يتَّبع، وعقائد وأمور تُنتهج.

نريد أن نعلم هذا، و ان نعتز بديننا، ونعمل بحقائقه، ونحاسب أنفسنا ونراقب قلوبنا حتى يرض عنا ربنا، وتتضح أمامنا الطريق القويم بهذا القرآن الكريم: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٩].

* * *

(ج)

الثبات على الطاعة

النداءات الأربعة الأولى من سورة الأنفال - والتى عرضناها فيما سبق - اشتملت على:

أ - الأمر بالثبات عند لقاء العدو، فلا ضعف ولا وهن، ولا جبن ولا خور.

ب - وجوب طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ فى كل ما جاء عنهما.

ج - الاستجابة لله وللرسول حين يدعوانا إلى ما يحيينا فى الدنيا حياة كريمة، وفى الآخرة حياة طيبة مكرمة، من علم وعمل، وأداء للأمانات المنوطة بنا، وقيام على مصالح العامة والاهتمام بأمر الأمة - فى كل المجالات؛ سياسياً واجتماعياً وتعليمياً.

د - التحذير من خيانة الله تعالى ورسوله ﷺ وخيانة الأمانات، فقد استرعانا الله واجبات وكلفنا بأمانات، منها ما هو حق نحو الله، ومنها ما هو حقٌ نفسك، ومنها ما هو حق نحو الخلق، ولابد أن تؤدى كل هذه الأمانات على الوجه الصحيح، وإلا كانت خيانة لله ورسوله.

أما النداء الخامس: ففيه بعض ثمار التقوى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾** [الأنفال: ٢٩]. وكل متقٍ لله يؤتى فرقانا، أى فراسة وبصيرة يفرق

بها بين الحق والباطل، سواء أكان فى علم أو عمل، أو سياسة أو قضاء، وكل مؤمن تقى يمهر فى الأخذ بالأسباب فى أمر من الأمور يؤتيه الله الفرقان فيه، حتى العالم فى معمله إذا أخلص لله فى عمله، وسهر عليه، وأعطاه حقه – نال الثمرة بأن يؤتى فرقانا فيه، يميز به الصواب عن غيره، وفى السياسة كذلك، وفى الاجتماع والاقتصاد..

كثير من الناس لو قلت لهم هذا الكلام لأساءوا فهم معنى التقوى، فالعالم غير المسلم حينما يساير مناهج العلم الصحيحة التى تكشف له قوانين الله تعالى فى كونه – نعده تقياً بمعنى من المعانى، فهو ملتزم بجانب الطريق الذى يوصله إلى الحقائق سالمة، ويقيه الوصول إلى نتائج سالبة.. وكثير من الناس عندنا يفهم التقوى بمعنى ضيق، لا تلك التى تغير تاريخ الشعوب والأمم، وتهبها العزة فى الدنيا، وتؤهلها بعد الإيمان بالدين الصحيح لثواب الآخرة، فالتقوى عندهم بمعنى أداء الصلوات وأكل الحلال فحسب.. وهؤلاء يظنون أن الغرب ترقى بفسّاقه وفجّاره، ولم يترقَّ بعلمائه وحكمائه.

الثبات فى الحرب والسلم:

أما النداء السادس والأخير: الذى خاطب الله عز وجل به المؤمنين فى سورة الأنفال فيقول الله – عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الانفال: ٤٥] – هذا النداء ليس منقطعاً عما سبق من نداءات فى السورة الكريمة، ولا عما فى سور القرآن الأخرى من نداءات للمؤمنين، بل هو جزء مهم من المنهج المرسوم للمؤمنين من خلال النداءات القرآنية التى وجهت إليهم.

والثبات - الذى أمرت الآية الكريمة به - قوة معنوية أساسية، فالجيش إن لم يثبت غُلب، والفرد إن لم يثبت على الهدف الذى يعمل له لن يحقق مقصوده. لذلك كان الثبات على المبادئ وعلى الحق جزءاً مهماً وضرورياً فى مسيرة المجتمع والفرد.

والآية ربطت بين الثبات وبين ذكر الله تعالى كثيراً، والنتيجة المنتظرة هى «**لعلكم تفلحون**»؛ أى أن الرجاء هو فى الفلاح، سواء كنا فى حرب أو فى سلم، فى مجال اجتماعى أو سياسى أو اقتصادى.

والكلام عن ذكر الله تعالى كلام مهم، فذكر الله مطلوب ومأمور به على وجه الإكثار؛ لأن المنافقين وصفهم القرآن بأنهم: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [النساء: ١٤٢].

وينبغى أن يكون ذكر العبد لربه بالقلب واللسان معا، حتى يوافق منطوق اللسان ما فى القلب، أن يجمع العبد عند الذكر أشلاء نفسه المبعثرة، ويكون أشغل ما يكون قلباً بربه، وأكثر ما يكون اهتماماً بصلته بخالقه. وذكر كهذا يرجى أن يترك أثراً فى حياة الفرد والجماعة؛ لأنه لن يكون مجرد كلمات تُردد، بل صلات توثق، ومعان تُحيا وتبعث فى النفوس؛ لتحول النقاط الميتة فى الشخصية البشرية إلى قوة حية فاعلة.

وربما ينظر البعض إلى الذكر على أنه جندى ضعيف بين أعمال المؤمن، ومجرد كلمات تتردد على اللسان، وليس الأمر كذلك، فالله - سبحانه وتعالى - يطالبنا فى سورة الأنفال المذكورة بأن نستعين من أجل الثبات

بذكر الله تعالى، مما يعنى أن هذا الذكر يهب الإنسان قوة معنوية هائلة، فيزيد الأقدام ثباتا، ويملأ القلب شجاعة وإقبالا على التضحية فى سبيل الله.

وهذا الذكر - وقبله الثبات - من ضمانات النصر وحوافظ الرقى الأربعة التى ذكرتها آية سورة الأنفال التى معنا والتى تليها، وأما الضمانان الآخران فهما:

- طاعة الله ورسوله فى كل ما أمرا به، وهذا من شأنه أن يحدد المرجعية التى تحمى الصف من التمزق والتشرذم، بل تحمى الذات المسلمة المفردة نفسها من التشتت بين مرجعيات عديدة.

- الصبر، إذ لا يستطيع العبد أن يتم عملا - عبادة دينية كانت أو عبادة لها تعلق بعادات الناس - إلا إذا تحلى بالصبر: يصبر على فعل الطاعة، ويصبر على ترك المعصية، ويصبر نفسه - خاصة الداعية ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ [الكهف:٢٨]، فالصبر هو الذى يشحذ العزائم، ويقوى الهمم.

هذه الأوامر الأربعة لازمة الامتثال، وعلينا تدبرها وفهمها والعمل بها، ونراجع أنفسنا معها فى كل صغيرة وكبيرة، فإذا وجدنا فى أنفسنا تفريطا تلافيناه أو نقصا أكملناه، أو خطأ قومناه. وإضافة الى هذه الأوامر الأربعة نجد فى السياق نهيين يحميان الضمانات الأربعة السابقة من الفشل فى تحقيق النصر، وهذان النهيان هما:

أ - « **لا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** »؛ فالخلاف والتنازع داخل الصف يفرق ويوهن كيان الأمة، ويغرى العدو باختراقها والنيل منها. وشبيه بذلك قوله تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فوحدة الأمة دين، وليست كمالا سياسياً، ولا شيئاً إضافياً: ﴿ **وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، فيجب أن نحرص على وحدة الكلمة ووحدة الصف ووحدة الأمة؛ لأن الأصل أنها أمة واحدة تنتشر فى الزمان منذ آدم عليه السلام وفى المكان حيث يمكن أن يعيش إنسان.

وهذا الموضوع يحتاج إلى فهم جيد وفقه عميق فى معانيه؛ لأن من سنن الله تعالى أن التفرق لا يورث إلا الضعف والهزائم، فالتنازع وصل بمسلمى هذا العصر إلى أن حارب بعضهم بعضا، ورأينا مشكلات حدودية جمة تركها الاستعمار بين الكثير من بلداننا الإسلامية. وقد كانت الحربان الخليجيتان الأولى و الثانية من تداعيات التنازع المشئومة.

وقد حددت الآية الكريمة من سورة الأنفال النتيجة الطبيعية للتنازع: « **فتفشلوا وتذهب ريحكم** »، حتى لا ننساق وراء مطامعنا وننازع إخوتنا حول الدنيا، وحتى نصبر على بعض الأخطاء التى يمكن أن يقع فيها إخوتنا فى الدين.

ب - وأما النهى الثانى، ففى قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾ [الأنفال: ٤٧]. هذا نهى عن التشبيه بالآخرين فى أخطائهم وعيوبهم، ويتحدد الخطأ والصواب من خلال الكتاب والسنة، فالمؤمنون

يلتصقون بالصواب، ولو فرط فيه غيرهم، ويبتعدون عن الخطأ، ولو برز في أفعال الآخرين، فالله تعالى يقول ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء:٨٤]، فالغرب المعاصر - مثلا - له شاكلته وفلسفته وحياته، والمؤمنون كذلك لهم شاكلة وخصوصية بدينهم، ففيه حرام وحلال وأحكام شرعية فى الكتاب والسنة.

وهذا النهى من سورة الأنفال مكمل للأوامر والنداءات السابقة فى السورة، والتى تحدد عناصر الهوية المسلمة، ويأتى هذا النهى والذى سبقه لينفيا عن هذه الهوية عوامل الضعف، ويسدا ثغراتها.

والمقصود بالآية هنا هم كفار قريش حالَ خروجهم لقتال المسلمين فى بدر، يريدون القضاء على الدعوة الإسلامية، والصد عن سبيل الله تعالى. يقول الفخر الرازى فى تفسيره لهذه الآية: «قال المفسرون: المراد قريش حين خرجوا من مكة لحفظ العير، فلما وردوا الجُحفة بعث الحقاف الكنانى وكان صديقاً لأبى جهل - إليه بهدايا مع ابن له، فلما أتاه قال: إن أبى يُنعمُك صباحاً، ويقول لك إن شئت أن أمدك بالرجال أمددتك، وإن شئت أن أزحف إليك بمن معى من قرابتى فعلت !! فقال أبو جهل: قل لأبيك جزاك الله والرحم خيراً، إن كنا نقاتل الله - كما يزعم محمد - فوالله ما لنا بالله من طاقة، وإن كنا نقاتل الناس، فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله ما نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدراً، فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا فيها القيان، فإن بدراً موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بهذه الواقعة.. فوردوا بدراً، وشربوا كئوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان»!!

لقد خرجت قريش لحماية عيرها وتجارتها، فشاء الله أن يُفلتها من أيدى المسلمين، حتى تكون المعركة خالصة، معركة دعوة ومبادئ ليس فيها شبهة مصالح ولا هوى، لكى لا يقول أحد: إنهم لا يقاتلون من أجل الدين، بل من أجل التجارة والمال. وذلك يبين أن المسلم – فى أساس حياته – رجل مبادئ، ورجل دعوة قويمة؛ لا تحكمه المصالح، وإن كان هذا لا ينفى أنه يحرص على مصالحه وحقوقه، ولكن دون أن تعلو على قيمه ومبادئه التى يؤمن بها.

عوامل النصر والهزيمة

وقد حدد القرآن الكريم فى هذه الآية المباركة عللا توجب الهزيمة والخذلان من الله تعالى، وهى:

– البطر، وهو الطغيان بالنعمة.

– ورئاء الناس، وهو «القصد إلى إظهار الجميل مع أن باطنه يكون قبيحا».

– «**ويصدون عن سبيل الله**».

وقد أحسن المفسر الفخر الرازى شرح هذا المعنى، وبيان غرض استخدام الفعل المضارع فيه فقال: «إن أبا جهل ورهطه وشيعته كانوا مجبولين على البطر والمفاخرة والعُجب، وأما صدهم عن سبيل الله فإنما حصل فى الزمان الذى ادعى محمد ﷺ النبوة، ولهذا السبب ذكر البطر والرئاء بصيغة الاسم، وذكر الصد عن سبيل الله بصيغة الفعل».

لقد كانت قريش فى الجاهلية مجتمعا لا يلتزم بضمانات السلامة،

وشاعت فيه عوامل الفساد، وزين لهم الشيطان أعمالهم حتى تبدو لهم حسنة، والآية تحذر المسلمين من أن يكونوا كذلك، حتى وإن ثبتوا عند ملاقاة عدوهم، فالكفار من قريش ثبتوا فى البداية، وأصروا على القتال، ولكنه ثبات البطر والرياء والصد عن سبيل الله تعالى.

علينا أن نقف أمام الفوارق التى بيننا وبين الغير، ونحترم خصوصيتنا فى أنفسنا وبيوتنا وجامعاتنا وكل مناشط وميادين حياتنا، سواء أكنا حكاما أم محكومين، وذلك لابد أن ينتج احتراما لأحكام الإسلام فى كل مجالات الحياة.

وقد علمنا القرآن الكريم فى سورة النصر ماذا يكون عمل الأمة إذا ساق الله لها النصر، ماذا تصنع؟ يقول الله تعالى: ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ [النصر: ١-٣]. وقد جاءت غزوة الفتح الأعظم (فتح مكة)، ودانت مكة والجزيرة العربية للإسلام، وتحقق النصر، وهنا يكون المطلوب أن يذكر المنتصر من ساق إليه النصر، ومكنه من عدوه، لا أن ينشغل بالنعمة محتفلا بها لاهيا عن الله تعالى.

والتسبيح المأمور به فى السورة الكريمة كناية عن أنواع الطاعات والعبادات جميعًا، وأما الاستغفار فهو احتراز من الذنوب والتوبة منها إن وقعت.

* * *

[٢٢]

وقفات مع الحجيج

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: « سئل النبى : أى الأعمال أفضل؟ قال: **إيمان بالله ورسوله**. قيل: ثم ماذا؟ قال: **جهاد فى سبيل الله**. قيل: ثم ماذا؟ قال : **حج مبرور**»(١).

الحج المبرور – كما حكى ابن حجر – هو المقبول، أو الذى يخالطه شئ من الإثم، أو الذى وفيت أحكامه، ووقع موقعًا على الوجه الأكمل. وخيرٌ لمن عزم على أداء هذه الفريضة أن يُخلصها لربه، ولا يؤديها إلا بالمال الحلال، وأن يتجنت كل ما يناقض روح الفريضة الكريمة من الجدال والغلظة والانشغال بالشهوات.. وإلا فالفريضة فيها مشقة وكلفة من المال والجهد، يربأ العاقل أن ينفقها فى غير سبيل الله تعالى.

وجاء فى الحديث الصحيح أيضًا أن أبا هريرة رضى الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول : «**من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيومَ ولدته أمه**»(٢). وهذا هو الهدف التربوى الذى يبغيه المسلم من الحج: أن يعود نقيًا طاهر الصفحة، ليبدأ من جديد بروح جديدة، ويخوض لُجج الحياة ورائدة الإيمان، وهدفه إعمار الحياة فى ظلال إسلامه الحنيف.

وقد وجدتُ آيات الله البينات – التى عرضت لأحكام الحج والمناسك، وبينت الحكمة منه والمقاصد – وجدتها فى سورة البقرة فى نحو اثنتى

(١، ٢) رواه البخارى.

عشرة آية، وفى آل عمران فى آيتين، وفى سورة المائدة فى عدة آيات، وفى سورة الحج فى نحو اثنتى عشرة آية..

مقاصد الحج:

ونظرت فى هذه الآيات فوجدت أن كل مؤمن - وإن لم يحج لسبب خارج عن إرادته - يمكن أن يكون مع الحجيج فى مقامهم، ما عرف حقائق دينه، وحافظ على روح الحج ومعانيه وأخلاق أهله، فإن فاتنا ونحن فى بيوتنا الصلاة فى مقام إبراهيم والسعى بين الصفا والمروة والطواف بالبيت العتيق والرمى وذبح الأضحية فى مكة - فلا يفوتنا أن نكون معهم بالنية؛ فـ«**نية المؤمن أبلغ (أو خير) من عمله**» - كما جاء فى جوامع كلم النبى ﷺ(١)، ولا يفوتنا الاستفادة من دروس الحج، فهدف هذه الفريضة العظيمة هو تحصيل التقوى؛ أى تهذيب النفوس وتزكيتها، وأن يحتاط العبد من أن يعرّض نفسه لسخط الله.

الحجيج فى وجودهم بأرض الحرمين، يشكلون مؤتمراً عالميًا جامعًا للأمة، ومن حضر ناب عمن خلفه من مسلمى بلده وقومه، لقد تجمعوا من مشارق الأرض ومغاربها فى صورة تجبر العقلاء على التدبر والتفكر فى عظمة هذا الدين الذى حشد أجناس البشر كلها فى موضع واحد من الأرض، والتأمل فى أهمية دور هذه الأمة فى مسيرة استخلاف البشر فوق الأرض ، وخطورة أن تتسيب هذه الأمة، أو تضعف، أو يتحول الدين عندها إلى تراث بال.. إن هذا من شأنه: لا أن يضيعها هى فقط، ولكنه أيضا يحرم البشرية من دور إنسانى لازم لها..

---

(١) رواه البيهقى فى الشّعب والطبرانى.

ومشهد الحجيج يدعونا إلى التدبر في حال الأمة وأسباب ضعفها وخذلانها وطمع الأعداء فيها، فهذا المشهد يؤكد أننا لا نفتقر إلى كثرة العدد، ولا قلة المواهب، ولا كثرة الثروات، الذى ينقصنا فقط هو روح الحج: من نقاء السريرة، وسلامة العقيدة، وصدق التوجه إلى الله، ووحدة المؤمنين وتكاتفهم ..

يجب أن نتدبر حال الحجيج حتى نعلم بالرأى والفكر ما نريد لننهض للعمل فيما يتأتى بالأمة إلى أن تعز ويعز معها دينها.

١ - يعلمنا الحج أن التجارة وطلب الأرزاق عمل لا يخالف التقوى ولا مقاصد الحج، فهذا الدين يجمع لك الدنيا والآخرة، ففى الحج: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] فالتجارة أبيحت ورخِّص فيها فى موكب الحج، ولا تنافى بين تقوى الله وبين السعى ابتغاء فضل الله.

٢ - ونستلهم من الحج أن المسلم إذا نوى الحج أو العمرة كان عليه أن يتمهما، يقول الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]؛ ويتمها أى يحسن أداء حقها، ويمتنع عن كل ما يفسدها، وهذا يتطلب نية صالحة صادقة أولا. وهل معنى العيش بالإسلام إلا هذا المعنى؟ أن تحسن أداء الحقوق إلى أصحابها؛ فالعبادة حق لله، والبر وحسن المخالطة حق للخلق، والاستقامة على طريق الجنة حق للنفس. فالإتمام والإكمال هما من طبيعة المؤمن فى كل عمل يعمله.

٣ - والحاج مأمور بتقوى الله، والبعد عما يخدش نقاء الفريضة وسلامها العام - وهو أشد قبحا أن يكون من زوار بيت الله - فإن النفس المهذبة تتحرج أن تزور بيت أحد من الخلق فتكسر شجره، أو تقتل صيده، أو تعقر دوابه بغير إذن من صاحبه، فما بالكم بالمؤمن قد حل ضيفًا على الله تعالى فى أطهر بقعة فى الأرض؟!

وهذا التعدى على حدود الله سواء فى الحج وفى غير الحج، ولكنه أشد ما يكون قبحا أن يجرى بين الحجاج وهم ضيوف على الله - عز وجل - فى بيته الكريم..... يقول الله تعالى: ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ [المائدة: ٩٦].

٤ - وحددت لنا الآية السابقة أن الحكمة والمقصود الأعلى من كل مناسك الحج هو تحصيل التقوى؛ أى تزكية النفس ؛ لأن النفس إذا زكت أفلحت، وأفلح صاحبها فى أمر دينه وأمر دنياه، وما لم تتمكن التقوى من قلب العبد، ويظهر أثرها فى قوله وفعله، فإن هذا دليل على عدم انتفاعه من أداء شعائر الدين، وعلى أن باطنه لا يتفاعل مع الطاعة التى يؤديها، بل هى القشور يأخذها ويكتفى بها.

ويوم يعرف الناس التقوى ستعرف البشرية السعادة التى أرادها الله لعباده، وقد احتفلت آيات القرآن المتحدثة عن الحج بالتقوى، فهى فى قلب الفريضة المباركة، ومن مقصوداتها، يقول الله تعالى ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِى الْحَجِّ وَمَا**

تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ومن تقوى الله تعظيم شعائره ونسكه: ﴿ **ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب** ﴾ [الحج: ٣٢]، ويقول تعالى عن لحوم الأضاحي تهدى إلى البيت الحرام أو تذبح في البيوت: ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم** ﴾ [الحج: ٣٧]، يقول العلامة ابن كثير في معنى هذه الآية: «إنما شرع (الله) لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرازق، لا يناله شئ من لحومها ولا دمائها، فإنه تعالى هو الغني عما سواه، وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم، ونضحوا عليها من دمائها..» (**فالمقصود من الذبح هو التقرب إلى الله تعالى والوصول إلى رضاه**).

فنسخ الإسلام هذه المظهرية الكاذبة للتقوى والالتزام بالنهج المنحرف، والزم عباده بتقوى صادقة تجمع إلى استقامة الفعل الظاهر (الهدى يذبح ليأكل الناس منه لا لتُلطخ به تماثيل الآلهة الزائفة) استنارة الباطن.

والقرآن جعل محل التقوى القلب، وجعلها منوطة بالعقل ﴿ .. **واتقون يا أولي الألباب** ﴾ [البقرة: ١٩٧]. فالتقوى محلها القلب، وباعثها العقل، وأهل الله هم أصحاب العقول والقلوب الذين يسعون لتحقيق التقوى، حتى يستقيموا في أمور الدين وأمور الدنيا.

حاجة الغرب للإسلام:

وما فسد حال الناس شئ إلا لأنهم يعيشون منكبين على الدنيا، مشغولين كل الانشغال بمتاعها وزينتها، لا يلتفتون - لا فهماً ولا عملاً -

الى هذه المعانى الرفيعة فى الحج وفى الإسلام عموماً، وهم منصرفون عن الآخرة والحساب والتجهز للقاء ربهم، فحصل الخلل والعدوان والتناقض، وحصلت المذابح التى سُفكت فيها الدماء البريئة . .

ولن يعود للإنسانية ميزانها المعتدل، فيسود العدل والحرية وحقن الدماء وإعطاء كل ذى حق حقه، إلا إذا ردت أمرها إلى الدين .

والتقوى هى المعنى الكبير الذى يبحث عنه الغرب، دون أن يجده متكاملاً فى تعاليمه وأدبياته وتراثه، إنه يريد أن يضبط حياته الروحية كما ضبط الكثير من نواحى حياته المادية. وقد عبر بابا الفاتيكان فى زيارته للقاهرة (فبراير سنة ٢٠٠٠) عن حاجة الغرب والعالم هذه – دون أن يكون للتقوى فى مسيحيته تلك الصورة الإسلامية المتكاملة – عندما قال : « **إن البشرية بعيدة من ربها، ولن ينصلح وضعها إلا إذا ردت هذا الوضع إلى نصابه الذى جاء فى شرائع الله، وقامت الحياة على العدل والمساواة والحرية، فنحن كلنا من أصل واحد** » .

وهو المعنى العظيم الذى حدده لنا القرآن بصورة كاملة فى علاقة المؤمنين بأهل الأديان، قال الله تعالى : ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ [المائدة : ٤٨].

ليس بين المسلمين وبين الغرب خصومة فطرية، نحن طلاب الخير للبشرية، وندعوهم إلى أن نستبق جميعاً الخيرات. كل منا يحاول أن يضيف إلى البشرية المعذبة شيئاً يقيل عثرتها، حتى يجد العاطل عملاً، ويحصل الفقير على ما يكفيه، والمظلوم يرفع عنه الظلم، والشعوب المظلومة يرد إليها حقها.

٥ - من أدى فريضة الحج حقًا سيدرك حلاوة الإنفاق فى سبيل الله ، فما عليه أن يتطوع فينفق من ماله لليتامى، ولدفع العدوان عن إخوانه المظلومين، وقد رأى إخوانه بعينيه وهو يحج، رآهم من مشارق الأرض ومغاربها، من كشمير والشيشان وفلسطين وكوسوفا والبانيا وكل المواقع والمواطن التى يتعرض المسلمون فيها للإبادة، ويمتص غيرهم خير بلادهم.

إن مسألة النصرة هذه ينبغى أن تكون هى الشغل الشاغل للمسلمين، وأن تُرصد لها الأموال والجهود ، وأن تستيقظ الأمة من غفلتها، ولا تنسلخ من آيات ربها ، وأن تعمل لنصرة دينها ونصرة المؤمنين.

٦ - وهنا درس آخر من دروس الحج، فقد قال الله تعالى للحجيج: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[البقرة: ١٩٩]، فنحن بعد الفريضة المباركة لا نرجع مرة أخرى؛ من كان آثما مضى فى إثمه، ومن كان مفرّطا مضى فى تفريطه. وقد فرض الحج لتطهير الأمة، فإن كان عاصيا أو مفرّطا أو آثما أو غير مؤدٍّ للأمانات، بل إن كان طائعًا - ينبغى أن يرجع من حجه خيراً مما كان.

فإذا انقضت المناسك، وعاد كل إنسان إلى داره ينقسمون قسمين: قسم تشغله الدنيا كل المشغلة، فلا يطلب غيرها بحلال أو حرام، ولا تعنيه الآخرة، وقسم يطلب الدنيا بأسبابها، ويسعى إلى الآخرة سعيا: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢].

* * *

[٢٣]

نكبة فلسطين بعد خمسين عامًا

قضية فلسطين هى قضية المسلمين عامة، والعمل من أجلها واجب علينا جميعًا، ولا يصلح أن نضع هذه القضية ونبحث عن حل لها إلا فى ظلال فهم إسلامى، وتخطيط ينطلق من الإسلام، وإعداد يجعل الحساب الأول للإسلام. فإن الصهيونية العالمية خطر زاحف يهدد كل مناطق العالم الإسلامى ودوله، ولا يتوقف على حدود فلسطين والأرض التى يحتلها. فمن قبل خمسين عامًا مكنهم وعد بلفور اليهودى من احتلال أرض فلسطين إثر إنهاء الانتداب البريطانى عليها، باتفاق الغرب، فطردوا أهلها، وأوقعوا بهم أقسى أنواع الظلم، وسرقوا الأرض ونكثوا العهود، وهم فى كل ذلك يجدون من الدول الكبرى ظهيرًا ومساندًا لا يخيبهم ولا يخذلهم.

والفلسطينيون فى أكثرهم بذلوا – ولا زالوا يبذلون – جهودًا جبارة لحماية ذاتهم ووطنهم من غزو السفاح الصهيونى الشرس، وظهر من قوادهم رجال عظماء جاهدوا فى سبيل الله، وعلموا علم اليقين أن ما اغتصب بالقوة لا يرده إلا السلاح، ومنهم عبد القادر الحسينى والمفتى أمين الحسينى وعز الدين القسام، وغيرهم كثيرون من قادة المقاومة المصلحين – رحمهم الله .

ولابد من الوعى الصحيح بالقضية وأبعادها وتداعياتها، ومخطط

الغرب والصهيونيين فيها، والعمل المخطط بين الفلسطينيين خاصة والأمة الإسلامية عامة، وحشد القرارات والتوجهات على كل الأصعدة ويدخل فى ذلك المجتمع الدولى وهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن لمواجهة الخطر الصهيونى فى فلسطين، واحتلاله لها، وفى حركة الاستيطان التوسعى التى تباشرها اسرائيل مدعومة بالترسانة العسكرية والنووية التى تمدها بها وتعمل على تطويرها الولايات المتحدة الأمريكية بكل إمكاناتها غير عابئة بالحق العربى الثابت، ولا بقرارات مجلس الأمن التى تحمى فلسطين من العنت الصهيونى، وممارسة جرائم الاحتلال العسكرى التى هى من قبيل جرائم الحرب المحظورة. إن رفع الغرب لراية المصالحة هو من قبيل ذر الرماد فى العيون، لأن اسرائيل تمارس حالة حرب لا جنوح إلى سلم. وشاكلة اسرائيل واحدة بصقورها وحمائمها، وفى أعماقهم جميعًا حلم إقامة هيكل سليمان محل الأقصى، ويعملون له بخطى حثيثة ومكر سيئ، هو مردود عليهم بإذن الله، ومفض إلى وبال أمرهم وخذلانهم، ذلك لقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [يونس: ٨١].

إن الوجه الصهيونى القبيح لم يتغير، فهذا الوجه نفسه هو الذى ارتكب المجازر فى دير ياسين وكفر قاسم وصابرا وشاتيلا، وهو نفسه الذى احرق المسجد الأقصى عام ١٩٦٩م، وانتهك حرمته مرات ومرات، وفعل ما لا يحصى من الجرائم.

إن الحل الوحيد والأوحد لكل أزمات المسلمين - وعلى رأسها مشكلة فلسطين - هو إحياء الأمة الإسلامية من جديد بشريعة الله تعالى، التى من

استمسك بها عز ولم يقبل الذل لقوله تعالى: ﴿..وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ..﴾ [المنافقون: ٨]، فالعزة كلها مختصة بالله ولا عزة إلا له ولأوليائه، وما تطلب به هو الإيمان والعمل الصالح، والمؤمن يعلم بيقين: إن العاقبة لأصحاب الحق ولو بعد حين وحرب سجال، وذلك يلزمنا - كأصحاب حق - أن نستمسك بديننا وطاعة ربنا الذى بيده البدء والعاقبة وإليه المصير. وهذا وعده القائم ولا إصلاح إلا بالاستمساك بديننا، لأن الإصلاح يشتمل على كل عبادة وكل عمل صالح بشرط الإيمان والنية.

شروط تحقق النصر:

نحن نحيا فى زماننا هذا فى مذأبة تدهمنا ذئاب البشر وطواغيتهم من كل صوب، وبين الحين والحين لتشخن منا الجراح؛ هنا مرة، وهناك مرة، ولابد من أمرين عظيمين لدفع صولة الأعداء وعتوهم ضدنا:

أولهما: توحيد هذه الأمة، التى تملك طاقات لا يغيب عن أحد قدرها، ولكنها مهدرة فى خلافات وصراعات داخلية، وضائعة بسبب غيبة العقل ووهن العزائم وغياب الحرية وتغييبها عن الغالبية العظمى من بلاد المسلمين، مع الاشتغال تحت لافتات كاذبة من الديموقراطية الشكلية والعلمانية المتلفة، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، فلا أخلصنا العبادة، ولا حصلنا التقوى. بل تفرقنا فنفذ إلينا عدونا، وأتينا من كل ناحية، وانهارت فينا كل أوجه المقاومة، وضعفت الهمم، وتفرقت الكلمة، وتحدث من مثل هذه المهازل التى نراها كل يوم، ويأباها الإسلام.

الأمر الثاني: مجاهدة العدو، وهو الأمر الذى لا يُرد العدوان إلا به، «وما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بذل»[1]. وقد جربنا من الكيان الصهيونى القبول بجزء من الأرض، قطاع غزة وبعض الضفة الغربية، مما لا يساوى خمس مساحة فلسطين الطيبة، ولكنهم أبوا ذلك علينا وأصروا على احتلال كل الأرض، وعقدوا معنا اتفاقات دولية وثنائية، ثم عادوا ونكثوها، كما هو ديدنهم فى القديم والحديث ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

إن الكيان الصهيونى يغتر بقوته، ويخرج رؤساء وزاراتها ومسئولوها بين الحين والحين، ليعلنوا أنهم قادرون على هزيمة العرب، وأن قوتهم العسكرية تفوق قوة جيوش العرب مجتمعين ناهيك عن ترسانتهم النووية، وهم بذلك لا ينظرون إلى عملية الحل السلمى حول مائدة المفاوضات، إلا من منظور ممارسة فعلية للحرب لا الجنوح للسلم، كسبا للوقت، وزيادة فى القهر، بقصد فرض الأمر الواقع على صاحب الحق، وابتلاع فلسطين أمة ودولة، والقضاء على الانتفاضة وجذوة المقاومة فى الشعب الفلسطينى، وتيئيس أمتنا من إمكان الوصول إلى حقوقنا، ولا يكفون عن ارتكاب المجازر الوحشية، واغتيال رموز المقاومة، وترويع المدنيين وحرمانهم من حق الحياة، كما أنهم يحسبون أنهم سيظلون على قوتهم هذه إلى الأبد، وغرّهم أن دولتهم قد ازدهرت، وتفوقت فى بضعة عقود من الزمان، وإلى جانبهم جيران أضعفهم الاستعمار، وأذلتهم الفُرقة واستبعاد شريعة الله تعالى، التى عز بها أسلافهم من قبل.

---

(١) رواه ابن مردويه.

بصّرنا من القرآن بالشاكلة اليهودية، وبالخور من داخلهم، واعتمادهم دائمًا على قوة أخرى يحتمون بها كما يقول الله تعالى: ﴿ **لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ** ﴾ [الحشر: ١٤]، ويقول: ﴿ **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴾ [آل عمران: ١١٢].

ويخطيء من ظن أن حل قضية فلسطين يمكن يأتى من شرق أو من غرب، بالضغط على هذا الطرف أو مساومة ذاك، ولكن الحقيقة هى أن حل هذه القضية فى يد المسلمين أساسًا لا غيرهم، وأخطأ من يطلب العون من عدو على عدو مثله، يظاهره وإن زعم أنه صديق لنا، فالأعمال تكذب الأقوال، وهى التى عليها المعول.. هذا شيء غير معقول... ﴿ **الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ [النساء: ١٣٩]، وتعزز المسلم بغير الله سراب وضلالة ومذلة، وصدق عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – إذ يقول: «كنا أذل الناس، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة فى غيره أذلنا الله». نحن نؤمن بحقنا، ونعلم أن الطريق إلى استخلاصه هو الوحدة، وحدة الصف والقرار، وجهاد العدو: ﴿ ... **فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ**.... ﴾ [البقرة: ١٩٤]، والذى يعيننا فى تحصين جبهتنا الداخلية، وما نحكم من خلاله بضعف هذه الجبهة أو قوتها – هو

استجابتنا لله وللرسول، أو عدم الاستجابة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾ [الأنفال: ٢٤]. فلا بد من الاستجابة لما شرع الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، والعمل بتكاليف الدين، وأداء الأمانات إلى أهلها - سواء على المستوى الفردى أم فى الأسرة أم المجتمع والدولة والحاكم والمحكوم، فى خاص الأمور وعامها، وفى دفع العدو عن أرضنا وصون دمائنا من أن تنتهك، وأموالنا من أن تنهب، وأعراضنا من أن تستحل.

نزل الإسلام ليحيى الأمة بالملة، ويربى النفوس بالتوحيد، والعبادات، لتحيا قوية عزيزة، لا تهدمها المفاسد، ولا تفتنها الدنايا... وهذا هو ما نريده لنحافظ على أرضنا حرة مستقلة، كما نحافظ على روابط الأسرة، حتى لا تتفكك وتضيع فى زخم الفساد الذى يأتينا من كل مكان فى الداخل والخارج. والاستجابة لله والرسول إحياء، لأن الدين الإسلامى يحيى فينا العقول بإيقاظها، وإعتاقها من ربقة الشرك بكل مظاهره، وأشكاله، ويحيى القلوب بمعالجة أمراضها وعللها الفاتكة، ويحيى العزائم، فيزيل عنها الخَوَر والضعف، ويجعل أصحابها حاملى رسالة وأصحاب دعوة، لا يعيشون هَملاً: يكتفون من الحياة بالأكل والشرب والمتعة، وذلك حظ الأنعام.

إن سيل النعوش التى تحمل شهداء الانتفاضة تحمل أحياء لا موتى، يهبون بأمتهم أن تحمل أمانة الجهاد فى سبيل تحرير فلسطين، وإقامة دولتها المستقلة العزيزة التى أكرمهم الله بالشهادة فى سبيلها، حتى يتحقق وعد الله فتشهد أنفسنا وتدمع أعيننا، ويطرق نداؤهم قلوبنا فنحس بالأمل

البعيد يقترب، وعزمة التحرير تتأجج في القلوب فنردد قوله تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

حقًا إن الإحياء قضيتنا، وينبغى الا يكون اليهود ابصر بذاتهم منا بذاتنا، فاليهود يهتمون بإحياء ما مات منذ مئات السنين، ونحن أولى بذلك منهم، فمثلاً وهم يحتفلون بمرور خمسين عامًا على نشأة دولتهم، ذكروا أن من أعظم إنجازاتهم إحياء اللغة العبرية، وإذا نظرت إلى حالنا وموقفنا من لغتنا العظيمة (اللغة العربية)، ستجد العجب، فهى مهيضة الجناح، والطلبة فى أكثر الجامعات الإسلامية يتعلمون الفيزياء والعلوم والكمبيوتر بغير لغة القرآن الثرية الغنية...، وقليل منهم من يحسن تلاوة القرآن، والقراءة باللغة العربية، فى حين يجيد ربما أكثر من لغة أجنبية، وملبسه ومأكله، والنوادى التى يرتادها والاختلاط المشبوه فيها، وتعاطى المخدرات والخمور، كله تخريب مدمر له وللمجتمع.

إن الدول الصغيرة الحجم المحدودة السكان لا تعلّم العلوم فى مدارسها وجامعاتها بغير لغاتها القومية، مثل هولندا. وقد كان فوز علمائنا - مثل د. أحمد زويل - بجوائز علمية عالمية على أرفع مستوى فرصة لندخل المضمار بلغتنا، وذلك ممكن ما دمنا لا نعيش عيالاً على غيرنا، ولا متطفلين على موائدهم، ولا تابعين لهم فى خصوصياتهم الاجتماعية والثقافية وإن خالفت خصوصيات هويتنا العقدية والثقافية ، وهذا عين التغريب والضياع.

إنه الإحياء الذى يريده الإسلام للأمة المسلمة لا يخرجها فقط من

مأزقها، ولكنه كذلك يمهد الطريق أمامها لعمارة الأرض بالخير العميم، ورفع شأن الدين وشأنها فى العالمين، إحياء للعقل المسلم، وللقلب المؤمن، وللعزائم وإرادة الإصلاح والتغيير.

والإحياء الذى يريده الإسلام أيضًا - هو إحياء عام لكل شيء، وقال تعالي: ﴿ ...وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ... ﴾ [الأنفال: ٢٤]، حتى يكون المؤمن دائمًا فى حال رقابة دائمًا على نفسه، ويعلم أن السلطان الأعلى ليس له ، وإنما هو لله - سبحانه وتعالى - وهذا لا يدفع المسلم إلى زوايا اليأس من أن يطوّع الله قلبه للإيمان، وإنما يشجعه على العمل والتنبه الدائم، وترك الغفلة.

ومن أحسن الظن بربه هداه إلى سواء السبيل، وآتاه تقواه، وجعل له فرقانًا، يفرق بين الحق والباطل، ويؤتيه الحكمة والبصيرة، إن خوف المؤمن على قلبه يدعوه إلى التمسك أكثر بدينه خوفًا على هذا القلب من أن يتغير، ولا يمكن أن يكون هذا الخوف دافعًا إلى الانسلاخ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فحتى العالم العابد المشمر يخشى ولكنه يعمل، وقد قال أبو بكر رضى الله عنه : «والله لو كانت إحدى قدمى فى الجنة والأخرى خارجها لم آمن مكر ربى»!! إن صرعى الشيطان وضحاياه كثيرون، ولكن كثيراً من هؤلاء يروحون ضحايا غبائهم، فيأتى الشيطان إلى العاصى، ويقول له أنت عصيت فامض فى طريقك، ولا فائدة من التصحيح، ولا من العودة، حتى ييأس. وإن كان صالحًا زل وانحرف مرة قال له: قد ضاع سعيك، وفقدت ثواب عملك، ولا فائدة من التوبة فيتحول الرجل المطيع التقى إلى مرتش ، والمصلى إلى مستهزئ بالدين

وبالمصلين، وهكذا. فالكل فقير إلى لطف ربه، وحفظه له من السوء، وهدايته إلى الرشاد، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ [فاطر: ١٥]، فهو تعالى الغنى النافع بغناه خلقه، الجواد المنعم عليهم، المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه.

ومن المهم بمكان الا نستقل قدرتنا، فهذه الأمة - الواثقة فى الله أولاً - تستطيع أن تفعل الكثير والكثير، وتقدر على تقديم أغلى التضحيات؛ حماية لدينها واستمساكًا بحقوقها، والأمثلة كثيرة ومتكررة، فأهل فلسطين ينفجر بركان غضبهم بين يوم وآخر، فتسيل الدماء، ويعلو نجم الشهداء، ويسقط الجرحى على أرض الوطن الطاهر، ثم يعودون لمثلها من جديد...

وتطور الأحداث فوق أرض فلسطين المحتلة يؤكد كل يوم أن اليهود لا يريدون سلامًا، ولكن استسلامًا منا للذل، وتسليمًا سهلاً للأرض والوطن. والمعاهدات التى يعقدونها والاتفاقات التى يوقعون عليها لا تستحق الحبر والورق الذى ينفق فيها!! وحتى ما كانوا «يجودون» به علينا فى بعض الأحيان من كلمات لينة، قد اختفى، وحلت الكلمة المسلحة محله.. وهم دمويون بحكم شاكلتهم، ويعتقدون أنهم شعب الله المختار على سوء ما يفعلون، وعلى فظائع جرائمهم الوحشية التى عليها يصُرون، ولا عجبَ فقد أوصلهم اعتقادهم هذا إلى القول بأن كل من ليس من شعب الله الخاص وليس من أهل دينه فهو ساقط من نظر الله ومنقوص عنده فلا حقوق له ولا حرمة لماله فيحل أكله متى أمكن.

فاستحلالهم سفك دم وأكل مال من ليس من شعب الله المختار أى من اليهود ، جاءهم ذلك من الغرور والغلو فى دينهم، لقوله تعالى فيهم: ﴿ ...ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ.. ﴾ [آل عمران : ٧٥]، فليس فى التوراة التى عندهم: إباحة خيانة الأميين، وأكل أموالهم بالباطل وهو من كلام أحبارهم. وقد رد الله عليهم هذه المزاعم بقوله فى عجز الآية ﴿ ... وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾. والبشرى بالنصر تأتينا من فم النبى ﷺ فيما تواتر عنه قال: «**لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله**»، وفى رواية البخارى: «**وهم بالشام**». روى هذا الحديث من الصحابة: معاوية بن أبى سفيان، والمغيرة بن شعبة، وجابر بن سمرة، ومعاذ بن جبل، وجابر بن عبد الله، وزيد بن أرقم، وأبو أمامة، وعمر، وأبو هريرة، ومرة البهوى، وشرحبيل بن السمط. وزاد محمد بن جعفر الكتابى فى كتاب «نظم المتناثر من الحديث المتواتر» قوله: «ورد أيضاً من حديث عقبة بن عامر، وثوبان، وسعد بن أبى وقاص، وسلمة بن نفيل الحضرمى، وعمران بن حصين. وله ألفاظ متقاربة المعنى. ونصّ على تواتره أيضاً شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» فى أوائله..

إنها وقفة تاريخية يجب أن تقفها الأمة الإسلامية حكاماً ومحكومين، وإلا ضربنا الله بالذل، فلا سبيل إلى رفع المهانة، إلا بتحمل المسئولية كما ينبغى، ومواجهة الصلف والغرور اليهودى، والعدوان والمذابح التى تقع على إخواننا كافية لإيقاظ الموتى..، والاستكبار والإفساد الذى يبديه اليهود وبال عليهم، وعلى دول كبرى تناصرهم بغير حق وتنحاز لهم وتبرر

جرائمهم بدعوى توفير حقها فى الأمن، وهم ماضون فى تصعيد عدوانهم على أصحاب الأرض غير الآمنين يؤكد لنا دينيا، وسنن الله في أرضنا، وشواهد التاريخ قديمًا وحديثًا أنهم لن يفلحوا أبدًا إذا وعينا الدروس وعرفنا كيف نواجههم، فالله تعالى يقول: ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، وضرب القرآن أمثلة كثيرة بخسران المستكبرين وفشلهم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ⑮ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦].

وخلاصة القول فى القضية:

أولاً: أن الصراع بين الحق والباطل من سنن الله في العمران، ولولاه لفسدت الأرض والحياة، كما في قوله تعالى: ﴿ ...وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ولهدمت المتعبدات وفسد أمر الدين لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ..﴾ [الحج: ٤٠]. فلا تعدى عن خيار الحرب عن المقتضى، وإن كان السلام أصل فى الإسلام.

ثانيًا: أن النكبات التى تنزل بأمة تكون عقوبة من الله على تفريطها وسوء كسبها، ولا ترفع إلاّ بتوبة ورجعة صادقة للحق وعملاً بشريعة الله

ومنهاجه. والخلاص منها بتغيير ما بأنفسنا من وهن وفساد مسئولية الأمة، كافة حكامها ومحكوميها.

ثالثًا: الوعي بالدروس المستفادة من تجارب الأمس والاعتبار بسنن الله في حركة التاريخ والعمران، واضعين قواعد الله في حركة الحياة نصب أعيننا، ومن أمثلتها:

قاعدة التغيير: ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. ﴾ [الرعد: ١١]، وهي تفسر وتحتمل وجهين: إن الله لا يغير ما بقوم من العافية والنعمة حتى يغيروا ما بأنفسهم من الحال الطيبة الحسنة بكثرة المعاصي، أو يغير ما نزل بهم من بلاء حتى يغيروا ما نزل بأنفسهم من سوء وفساد، المهم أن تغيير ما بالنفس يترتب عليه تغيير ما بخارجها، حسب تزكيتها أو تدسيتها، كما في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴾ [الأنفال: ٥٣].

قاعدة الإصلاح: قوله تعالى في الإصلاح كيف يتم: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، إذ جعل المصلحين في معنى الذين يمسّكون بالكتاب.

قاعدة العمل على المكانة: قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ [هود: ١٢١]، بين لنا المعول عليه في معركة الحياة، ومدافعة العدو، وإحراز النجاح، وبلوغ الغايات، ليست الأقوال، والجدل، والصراخ، والتمني، وردود الأفعال، وما إلى ذلك مما لا ثمرة له ولا جدوى منه، وإنما بالعمل على المكانة، الجاد، المخطط، الدؤوب المخلص

الذى لا يراد به إلا وجه الله، دون تعجل لقطف الثمار قبل نضجها، فالزمن جزء من العلاج والعجلة من الشيطان.

قاعدة التوحد ونبذ الخلاف والفرقة: توحد الأمة الإسلامية فريضة واصل، لقوله تعالى: **﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾** [الأنبياء: ٩٢]، وقوله كذلك: **﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾** [المؤمنون: ٥٢]، وثمة ربط بين وحدة الأمة وعبادة الله سبحانه فى الأولى، وبينها وبين تقواه فى الثانية، فوحدة الأمة دين واتقاء الله فيها وحفظها من الاختلاف والتفرق فريضة؛ لأنها مناط عز الملة والأمة، ولكن أمة الإسلام للأسف لم تحسن عبادة ربها بحفظ وحدتها ولا هى اتقت ربها باتقاء أسباب الفرقة فعوقبت بالعدو الصهيونى فى فلسطين ومنطقتنا العربية يحتل الأرض ويسفك دماء أبرياء المسلمين ويعيث فى الأرض فساداً. وذلك بالرغم من كونها خير أمة أخرجت للناس إن عملت بحق هذه الخيرية فى عمارة الأرض وجاهدت فى سبيل الله حفظًا للحقوق وحكمًا بالعدل وأخذاً بسنن الله فى نظام الحياة.

قاعدة: أن التوكل على الله لا يصح بغير العبادة والأخذ بالأسباب المستطاعة، وبدونها يكون من التمنى الكاذب والآمال الخادعة: ويأتى تفصيلها فى نهاية سورة هود: **﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾**

[هود: ١٢١-١٢٣].

وفى آيات هود، يبين الله تعالى لنا أصول وأبعاد ومنهاج التصدى لتكبات الأمة الإسلامية وما أكثرها وأسرع توليها،ويمكن تلخيصها فى العمل على مكانتنا لا الاعتماد على غيرنا، وعدم استعجال وعد ربنا بالنصر، وأن التوكل على الله الذى أُمرنا به لا يصح بغير العبادة الحقة بمفهومها الواسع الذى يشمل الوحدة والجهاد فى سبيل الله، وبغير الأخذ بالأسباب المستطاعة، وذلك أمره لنبيه وأمته (**فاعبده وتوكل عليه**)، وما يفرضه ذلك على الأمة بمراجعة الذات وتصحيح المسار واثقين من نصر الله.

* * *

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

هذا الكتاب

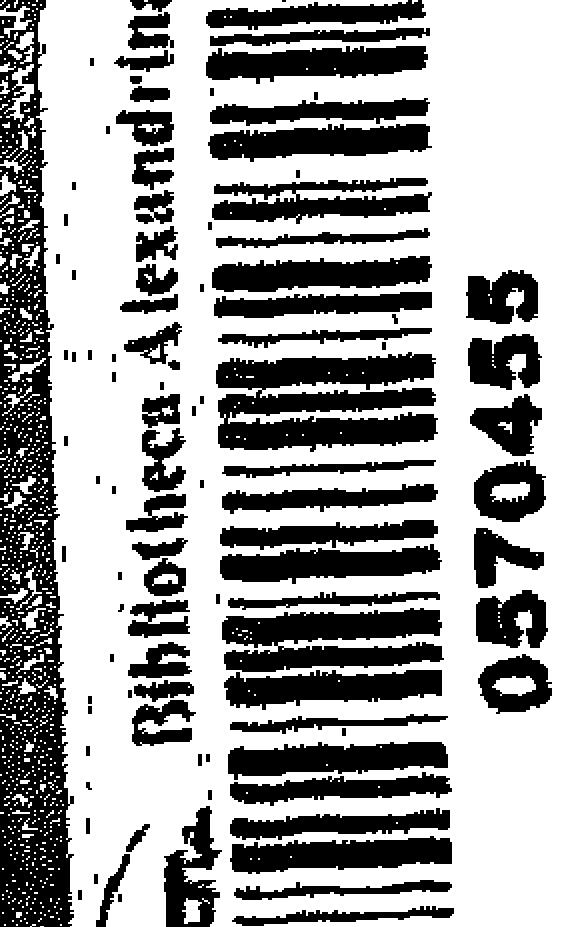
إن الكلمة أمانة تنوء الجبال بحملها وتتقاصر الهمم دون ذراها العالية ، وكلمات هذا الكتاب تحمل للناس زفرات صدر قضى فى الدعوة إلى الله تعالى أكثر من ستين عامًا ، عاصر فيها أحداثًا جسامًا ، ومضى مرابطًا فى طريق الله المستقيم حاملًا مع إخوانه لواء الدعوة إلى الإسلام الشامل على امتداد الرقعة الإسلامية .

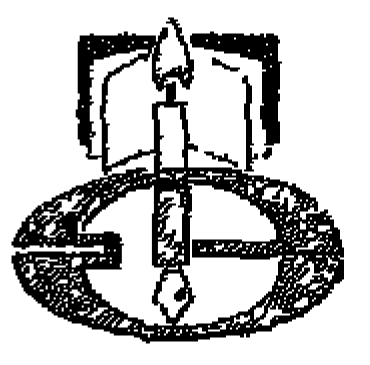
والكتاب يضم مجموعة من خطب الجمعة فى مسجد مصطفى محمود فى أواخر التسعينات من القرن الميلادى الماضى محذوفًا منها المقدمات والدعوات فصارت بذلك موضوعات حية تمثل أهم صور الخطاب الدينى والدعوة إلى الإسلام ، والتصدى لمشكلات الأمة الإسلامية ، وأزماتها المختلفة ، بيانًا لأسبابها وحلولها .

والله نسأل أن ينفع بهذا الجهد أبناء أمتنا المسلمة

والله الهادى والموفق إلى صراطه المستقيم

الناشر





دار التوزيع والنشر الإسلامية
٢٥١ ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ فاكس: ٣٩٣١٤٧٥
email:info@eldaawa.com www.eldaawa.com